



خيانة القاهرة

شيرين أبو النجا

مكتبة مدبولي

شيرين أبو النجا

خيانة القاهرة

مكتبة مدبولي

٢٠٠٩

حکى بارد

الصفحة التجريبية

هدوء مريب لا بداية له أو نهاية، هدوء اعتذر له عن صوت زفيرى،
هدوء انيق إلى درجة الألم. أنا الصاخبة جنت من القاهرة الصاخبة المليئة
بالقصص الصاخبة لأجد نفسى فى برلين التى تهمس بأناقة وحذر. كدت
أحزم الحقايب وأعود، أعود إلى تلك القاهرة التى قهرتني بعذاباتها وأغوتني
بسحرها حتى وجدتي متورطة معها وفيها حتى الثمالة. مدينة شهنت كل
عثراتي وسمعت كل ضحكاتي ولم تهتم كثيراً بدموعى. القاهرة التى طالما
استمتعت برويتي متشبثة بحبل رفيع يفصل الشك عن اليقين، العقل عن
الجنون، الحب عن الكراهية، الروح عن الجسد. تأكل الحبل لأن السنوات
تؤدي عملها جيداً، لكننى ظللت متشبثة، كانت بالنسبة لى مسألة حياة أو
موت. كان تشبثي بهذا الحبل هو ما يميزنى، كيف أتنازل عن ميزة فى زمن
كثر فيه البشر وضلوا الطريق فى مساحات تلوث ضبابية. مع كل خيط
يهترئ من الحبل كنت أغض النظر وأتشبث أكثر رغم الجروح التى أدمت
يدى. يهترئ الحبل وأنا أتنفس هواء الذعر، لا قبل لى على ما ينتظرني
دون الحبل. وعندما لم يتبق إلا خيط رفيع قديم فى الحبل قفزت تجاه برلين.

القاهرة التى لا يتوقف فيها رنين التليفون ولا الصداع، وآلام الظهر
ضيف ثقيل مستديم. القاهرة التى تعنى أصبحها مزاجاً متعكراً لقلّة عدد

ساعات النوم وتعنى انهـرها ان نثور لأتفه الأسباب وتعنى إيامها الخاملة أن الأمن مستتب. القاهرة التى يخفى لونها تحت ركام القصص والحكايات والشائعات والمؤامرات والأيدولوجيات والصحف والمجلات والمانشيتات والأفلام والمؤتمرات. القاهرة التى تجعلنا نتأمل صورتنا فى المرأة لنقول "أهلا، إحنا اتقابلنا قبل كده؟" القاهرة التى نبدأ يومنا فيها وندعو "يارب اليوم يعدى على خير". القاهرة التى نقود فيها سيارتنا ليلا ونستعيد كلمات "أبى فراس الحمدانى" بصوت "أم كلثوم": "أراك عصى الدمع شيمتك الصبر" ونتغامز لأننا نقصد شخصا بعينه. القاهرة حيث نقع فى الحب ونقع خارجه فتتحول الأماكن إلى بؤر ذاكرة تنتظر من يعيدها حاضرا، لكنه أبدا لا يعود. القاهرة التى تفتح على النيل وتخلق الأرواح. القاهرة التى تحتكر العقل ولا تترك بوصة واحدة للقلب بصيغ فيها شرايينه كما يهوى.

القاهرة التى تعلمنا طوال العمر التسامح والغفران (ألم تغفر للكثيرين من قبلنا حتى كدنا نموت غيظا؟) تلك القاهرة لا تسامحنا إن أخطأنا ولا تقبل أعذارنا، ونحن شعب لا تنتهى أعذاره ولا أخطاؤه. ونحن ناس لا نعرف كيف نسامح رغم كل محاضرات القاهرة، ولنا كل العذر لأننا نشيد أعذارنا على أنقاض عثرات الغير. وفى لحظة واحدة لا نسمع سوى أنفسنا وكان المرأة موجودة فقط من أجلنا. هكذا علمتنا القاهرة، أن نذوب فى الآخر دون أن نسمعه أو نراه. وكل مدينة لها شيمتها. نقع فى هوى القاهرة ثم ننعثر

فنجدها قد انشغلت بغواية أخرى. القاهرة مدينة الغواية التى تخبئ غفرانها فى هوامش الأزقة وتحت الكبارى وعلى كومة من الرمل والأسمنت ملقاة أمام بناية. القاهرة لا تمنح الغفران إلا للباحثين عنه والباكين من أجله والصامدين على جفائه. والصمود يحتاج القوة والقوة تحتاج الضعف والضعف يحتاج الفهم والفهم يحتاج القلب والقلب يحتاج الروح والروح مسلوحة بهوى القاهرة. والقاهرة غفرانها عزيز.

تلك القاهرة التى ركدت فى روحى منذ آلاف القرون، منذ أن كنت فكرة مازالت فى رحم الأرض، منذ أن كنت أحاول التودد إلى بذرة واحدة فى الأرض. تعلمت من حينها أن أقول "نعم" حينما أرغب فى قول "لا". وأن أقول "لا" حينما أرغب فى قول "نعم". تعلمت ببراعة كيف أحول الرغبة إلى فكرة عابرة سرية بدون أية معالم تشى عن وجودها سوى درجة توتر غير ملحوظة فى الصوت، وحفظت الدرس عن ظهر قلب: إن نظرة أسمى تحرك المؤشر وإن نظرة الناس تعنى جحيم دانتي. فكانت البراعة تقاس بمدى القدرة على الاختباء عن أعين الناس. علمتني القاهرة وكل أحبائها أن جسدى محرم وقلبي محرم على كل الرجال إلا لواحد فقط سيأتى فى يوم ما فى مكان ما وفى لحظة ما. وليس مهما أن أكون مستعدة لاستقباله، المهم أن يأتى. كم مرة أخطأت وتوهمت أنه أتى؟ كم مرة طلبت من القاهرة السماح والغفران؟ كم مرة شعرت أنني لا أستحق القاهرة لأننى أخطأت؟ كم مرة التهمتني حية الأرواح الأخرى لأننى أخطأت علانية دون مداراة؟ وحفظت

الدرس مرة أخرى، لنخطئ كما نحب سرا وقهرا وكمدا. القاهرة لا تحب من يستخف بقوتها وجبروتها، القاهرة لا تحب الأقوياء بنزاهة، القاهرة تحب من يتواطأ معها، حينها فقط نتواطأ معه.

والتواطؤ مع القاهرة يحتاج عمرا كاملا. عمرا نتعلم فيه الابتسامة المرسومة والضحكة المفتعلة، عمرا نتعلم فيه طقوس ممارسة العفة الزائفة، أن نمشى فى الشارع وننظر أمامنا مباشرة بحدة ونجهم لكى نثبت براعتنا. وألا ندل الغربى على شارع يسأل عنه حتى لو كان الشارع آمنا، وألا نبسم ونظهر فرحتنا حين ندخل مكانا ما حتى لا يظن الآخرون أننا نحب الحياة، وألا نقول لامرأة أن زينتها لا تلائم المكان حتى لا تظن أننا نشعر بالغيرة تجاهها، وألا نسأل كاتبة عن كتابتها حتى لا تظن أننا نسرقها، وألا نكتب رسالة لرجل أحبيناه حتى لا يظن أننا وقعنا فى هواه فيلقينا جانبا، وألا نمرض لكى نثبت تفانينا فى العمل، وألا ندخن سيجارة فى أماكن بعينها ولكن يمكن أن ندخن فى أماكن أخرى، وألا نقول كلمات معينة لأنها تفهم بمعان أخرى، وألا نجلس مع رجل بمفردنا حتى لا يقال عنا كلام بعينه.

بكل هذه الازدواجية أحببت القاهرة فأحببتى. لكن فى كل المرات التى تمردت فيها على القاهرة كان العقاب شديداً. اللعب مع القاهرة له قواعد وأصول، وغالباً هى التى ترسم القواعد لكنها تتركنا نعتقد أننا نملك الزمام. والحقيقة أننا لا نملك حتى أنفسنا فى القاهرة، فالروح هائمة دائماً تبحث عن علامات رضا القاهرة والعلامات تتوه وسط الزحام والروح تتفقت من جسد سقيم عليل لا يحب نفسه، والعين لا ترى الروح الهائمة. العين اعتادت الفقد والجسد اكتسب مناعة. منذ أن فقدت أبى وأنا أعتبر كل ما أفقده ليس إلا إعادة ركيكة لكل ما أفقده. كل يوم أفقد شيئاً بل كل ساعة، أفقد التليفون المحمول وأفقد صديقة، أفقد كتاباً وزوجاً، أفقد الهواء الطازج لأن التكيف لا يتوقف، أفقد قطتى لأن أمى لا تحبها، أفقد حبيبتى، أفقد ورقة مالية، أفقد فردة حلق كنت أحبها كثيراً، أفقد الصوت الدافئ لصديق قرر أن يقلل من جرعة الدفء، أفقد اختياري أحياناً (دائماً؟)، أفقد خصوصيتى، وأفقد أعصابى، أفقد احترامى لفكرة أو لشخص، أفقد حماسى فى أيام وأنظر عودته دون مقدمات، أفقد القدرة على الكتابة ثم تعود فأهرب منها فتفقدنى هى، هل لابد أن أذكر فقدان الحب هنا؟ أحاول التظاهر أنه لم يحدث ولذلك لن أذكره، جزء من التواطؤ مع القاهرة، فنحن جميعاً نعرف أنه حدث. فقدان الحب هو أول ما تعلمه لنا القاهرة، فقدان الحب هو طقس العبور إلى القاهرة. مؤلم للغاية فقدان الحب، أن نتوق لسماع صوت نعرف أننا لن نسمعه أبداً، أو نحن إلى لمسة يد لن نصافحها

مطلقاً وإن حدث فستكون مصافحة شبيهة بالمعلبات، مضافاً إليها مواد كيميائية تحفظها من العطن. فقدان الحب يعنى أن نقبل فكرة أننا فقدنا شخصاً وفقدنا معه جزءاً من الروح، جزءاً لن يعود كما كان حتى لو حاولنا مع آخرين، فقدان الحب لا يختلف عن الموت، بل هو متطابق معه. كل محاولة ليست إلا أملاً لاستعادة ما فقدناه. القاهرة تكويننا بنار فقدان الحب لتوُسّمنا على جبيننا بعلامة تؤهلنا لدخول عالم الكبار الراشدين الذين يتحكمون فى عواطفهم، العاقلين الذين يحسنون الاختيار دائماً، الحكماء الذين لا يندفعون مثلنا أو هكذا نعتقد على الأقل. الحقيقة أن كل ما فى الأمر أننا نتعلم كيف نبتلع الألم ونضعه فى قاع الروح فى مكان مظلم مهمل، مكان الكراكيب، الحجرة المائتة التى لا نفتحها أبداً إلا عندما تبدأ بعض التجاعيد فى احتلال أركان العين. علمتنا القاهرة ألا نبكى فقدان الحب إلا سراً، ولا عجب فقد علمتنا أن نحب سراً أيضاً. البكاء سراً على فقدان الحب أصعب من الفقد نفسه. شلالات الدموع المتحجرة والغصة الدائمة فى الحلق والوخزة فى الصدر، وابتنسامة على الشفتين. فى مثل تلك اللحظات البسيطة الكثيرة ندرك قسوة القاهرة القاهرة.

غادرت القاهرة ولم تغادرنى هى.

عادت لى القاهرة فى أبعد مكان، تجرب كل مفاتيحها لتفتح الحجرة المائة. وكلما أسمع خشخشة المفاتيح فى باب الحجرة ارتعد، أحاول أن أوصده أكثر، القاهرة تدفع عنوة وأنا أحمى الباب خلفه. كنت أعرف أن الحجرة لابد أن تفتح يوماً ما، لكننى كنت دوماً أوجل، فأتعلل أن العمل كثير وأن الأمر يتطلب الكثير من الوقت الذى لا أملكه وأن غبار الحجرة سيقتلنى إن فتحتها وأننى لا يمكن أن أقوم بهذا الجرد بمفردى. انتهى بى الأمر فى برلين الألمانية بمفردى مع مفردى. فتح الحجرة المائة عمل فردى تماماً، مهما كانت المتاعب والجروح من الأدوات الحادة التى غالباً ما سننثر فيها، ومهما كانت شراسة عناكب الذاكرة التى ستنقض علينا ومهما كان عدد غفارىب الظلمة الذين استوطنوا الحجرة. الآن أنا أمام أنا. كيف المسبيل والقاهرة علمتنا أن نكون معاً جميعاً دائماً؟ حتى مهارات فتح الحجرة لم نعلمها. ظننت أنها انتهت وذهبت إلى النسيان بكل ما فيها. لم تذهب، بقيت هى ومحتوياتها تنظر إلى شذرا لتفرض قوتها وليتناكل عنادى وكبريائى ويظهر ضعفى.

كيف السبيل إلى تلك المواجهة التي نهرب منها دائماً؟ في البداية كنت أظن أنها أشياء بسيطة، موجعة مؤقتاً، سخيصة في حينها وستمر، تعلت بكل الحجج المستهلكة، أفنعت نفسي أن درجة الحساسية تزداد كلما تقدمت السنون، وأنني أراقب نفسي وأقف امامها لأخرج لها لسانى وأقول بنبرة الأطفال عندما يحصلون على شيء رغماً عنا ثايفاااكيببيي". أزحت

كل القصص جانباً لأكمل وكان شيئاً لم يحدث، تماماً كما انزلت قديمي على سلم محطة المترو في ميدان التحرير، وتحملت ألام الارتطام في ركبتى ويدى وكتفى، وفي آخر درجة سويت ملابسى بشكل مسرحى أنيق وقلت للجمع الغفير الذى تجمع حولى "حصل خير، مافيش حاجة يا جماعة، متشكرة قوى". أركز كل جهودى على أن أظهر لهؤلاء المواسين أنهم مخطئون، لم يحدث شيء. أضع على وجهى كل ملامح الاستهانة والاستكثار ليقنعوا أنهم واهمون. ثم أقف وأعاود شكرهم لأثبت أن الارتطام لم يؤثر على معنوياتى وأبدأ المشي بخطوة قوية سريعة لأقدم أدلة إضافية على سلامتى التامة. تبدأ ركبتى بعد قليل فى الاحتجاج، أتجاهلها فترة لا بأس بها حتى أصل إلى مكان يمكننى أن أفحصها به. أرفع الفستان قليلاً لأجد ركبتى وقد تشوهت تماماً، جلد منزوع من مكانه ويظهر تحته اللحم عليه دم أحمر متجلط، نقاط دماء متناثرة، وخدوش كثيرة تتدلى من نهاياتها شرائح طازجة من الجلد. أنظف ركبتى وأنسى الأمر تماماً حتى تبدأ فى السخونة وتتفخ وتتورم واستيقظ ليلاً على وخزات الألم الشديد. يتحول الاحمرار إلى زرقاء ممزوجة باصفر باهت ويوماً بعد يوم تنقلب المساحة كلها إلى أزرق داكن. مع الأيام تنقشع الألوان وتبقى كدمة صغيرة سوداء لتذكرنى بتلك العثرة. فى كل العثرات كنت أقف وأقول "حصل خير" فأنتهيت فى برلين ببقع سوداء كثيرة لن تزول إلا بتقشيرها من على الجلد.

إلحاح الحجرة المائة يزداد، إلحاح جعلنى لا أفكر فى السفر مرتين، مرة واحدة، ثم قرار، ثم مطار، ثم طائرة، ثم بلد آخر. مكان مجهول، جديد، بكل ما فيه، وجوه ولغة وممرات ومناظر وماكنات ومشروبات وعمليات ورقية. مكان جديد لابد أن نخوض فيه ممرات الألم لنصل. هكذا استوعبت ما قالته "سمر"، قالت إنه ممر طويل له بداية لكن نهايته غير معلومة، بدايته الشوك والماء المحموم وآخره السندس والريحان. ولكن ماذا لو دخلت فى بدايته ثم ضللت طريقي كما يحدث لى دائما؟ أضل طريقي لكننى بارعة فى قراءة الخريطة. المشكلة الأولى: المكان خارج الخريطة.

١

صديقتى الصغيرة اللينة الجميلة "روضة" ستكمل اليوم بالتحديد عشرين عاما. وأنا ساكمل الأربعين بعد قليل. أحب العمر دائما كما كنت أقول لك، لا أخافه ولا أكره تجاعيده، نضحكين الآن يا "روضة" من ولعى بالكريم، اضع الكريم على وجهى - واحاول بدون فائدة أن أنقل لك بعض مهاراتي - من باب الحب وليس الخوف. هل تذكرين ذاك اليوم الذى كنت أنتفض فيه فرحة لأننى اكتشفت - أخيرا - شعرة بيضاء تتراقص أمام عيني فسى المرأة؟ شعرة بيضاء وحيدة كانت لديها القدرة على تحدى كل ذاك الشعر الطويل المتدثر دائما بالحناء. جننكم فرحة أنقافز كالأطفال وأقول "شعرة بيضا.. شعرة بيضا". كل منكم ضحك بطريقته... بخفة دم أو بتظاهر العقل

المضاد لجنوني أو حتى بالتعجب مني، فالزمن يأتي بالكثير من الأبيض. لكن أعتقد أنك فهمتني أيتها الصغيرة ولذلك امتنعت عن التعليق، ثم كنت في اليوم التالي تبحثين عنها معي، وكنا عندما نجدها نضحك كثيراً بصوت عالٍ ولا نقول شيئاً ذا معنى، لأن المعنى قابع هناك ينتظرنا معاً.

اليوم ذكرى مولدك والمسار الطبيعي للحكاية أن نكون معاً نحتفل ونضحك ونتمایل في حنان الأصدقاء وربما نسهر أكثر من المعتاد. لكننا لسنا معاً، فأنا إذا نظرت يمينا ساجد بولندا، وإذا نظرت يساراً ساجد هولندا وفرنسا، وإذا نظرت فوق ساجد الدانمارك وإذا نظرت تحت ساجد النمسا. تعرفين تلك المناطق؟ مناطق باردة بشدة وسكانها بيض للغاية، ونبرة صوته منخفضة قليلاً، وكلماتهم لا تكفي لإشباع جوعنا. كلها مناطق محددة على الخريطة هناك، وهو ما يميزها عن المنطقة التي أريد الوصول إليها. أما أنت فإذا نظرت على يمينك فستجدين بحراً أحمر جميلاً، احمراره يفوق ساعة الغسق، وإذا نظرت يسارك ستجدين صحراء ذهبية اللون، يفوق لونها قلب الشمس، وإذا نظرت فوقك ستجدين قمراً مكتملاً يناديك لأنه يشبهك، وإذا نظرت تحتك ستجدين أرضاً تتاجيك بذراعين مفتوحتين تَرجوكِ أن تقبليها كما هي. لسنا معاً لكن عزائي أنك ستجدين كل هذه الرحابة وسانتظر أنا هنا لأشاهدك تكبرين - ولا بأس من بعض الألم الذي

سيزيد من جمالك - وتمرحين وتعبرين عن الغضب والفرح بنفس القدر،
اليوم تضيفين عاما إلى أعوامك السابقة وتقولين "كنت...."، ومازلت لا
تعرفين أن كل ما كان لا يتركنا أبدا إلا إذا تركناه. ولأننا نتشبث بالحكايات
لنستمد منها الأمان - حتى لو كانت جروحا - فإننا نتركها بعد عمر طويل.
هل تشبثت لأننى أحببت دور الضحية أم أننى كنت ضحية بالفعل؟ احتلقى
واطلقى كل زفيرك على شموع كثيرة ملونة وتمنى.. تمنى ألا يطول تشبثك
بالحكايا. دعيها تذهب كلها لحيوات أخرى وانسجى أنت حكايا جديدة..
حكايا أنيقة تلائم الأعوام العشرين.

اليوم ذكرى مولدك وكأنه بالأمس القريب احتفلت بك، احتفلت بك آنذاك
وأنا مكبلة بقيود دونت على ورق، قيود كان ظاهرها الحب وباطنها
المقصلة، قيود رأيتها ولم أرها، لكنها جثمت على صدرى كثيرا وربما
مازال بعضها هنا الآن يكتب معى، قيود منعنتى حتى أن أبسم فى وجهك
خوفاً من عقاب القيود فلا أراك ثانية، وخوفاً من انهيار ما شيدته على
ورق. ولأن الورق لا يصمد كثيرا أو حتى لا يصمد مطلقا فقد انهيار كل
شئ بعد قليل جداً. هل تذكرين ذاك اليوم عندما احتل هو كل الفضاء
بصوته، احتله بكلمات فارغة مليئة بالبطولات الوهمية المشيدة على ورق
أيضا. اكتملت أعوامك يومها تسعة عشر، وكان قناعى قد اكتمل، بل أقنعتى
بأكملها. كان قناعى يومها ربما فى النزاع الأخير، يسجل قبحه وضيق
نظرته.. قبحا كان يعبر عن نفسه بثرثرة لا تنتهى، وكره للناس، ورصد

لأخطائهم، ونفاق لرغباتهم، وطاعة لأسيادهم. حاولت جاهدة يومها أن أقلد "مصطفى" ولا أجادل لنمر الليلة ونجد مساحة احتفال بك. مرت الليلة واحتفلنا داخلنا، أطفأت لك الشموع داخلى وكنت مازلت لا تفهمين. لا تفهمين معنى الخوف، ليس فقط الخوف من الفقد ولكن من شخص. اليس هذا مريباً وقمياً ومقززاً؟ نعم، لكنه حدث. أنا فعلته.. أنا قبلته.. لم أعترض حتى النهاية.

يوم مولدك... اكتمل القمر بدرا واكتملت لديك خطوة فى عالمنا وأوشك فهمك لمعنى الغياب على الاكتمال، أو هكذا ظننت، أفتح البريد الإلكتروني وأجد منك رسالة تقول "أنا كتبت حاجة كده مش متأكدة هى إيه". أثبت الفأرة على الملف وأنقر عليه ليفتح:

"كلما أحاول أن أبحث عن نهاية أكثر رومانسية لجذتى أجد نفسى بعد تفكير طويل أصل إلى نفس المشهد فى عقلى. قبرها. ولماذا أحاول أن أبحث لها عن نهاية أخرى وهى التى كانت سترضى بكل النهايات. تزورنى فى أحلامى لتؤكد لى رضاها، أسمع صوت صديقى العجوز يقول: "لا تبحثى عنها فى الخارج، هى بداخلك انصتى واسمعى صوتها". اليوم فقط قررت أن أنصت. قبل ذهابى إلى النوم قلت لصديقى: "أنا جاهزة" ثم سمعت أسمى تقول: "لن نعود كما ذهبنا"، فتحت عيني لأستقبل يوماً كباقي الأيام ولم أفهم. انتظرت اكتمال القمر وجاء القمر. جلست أمام منزل أترى فى الحسين

أتأمله رغم الضوضاء المحيطة بى. أمى هى التى ذهبت وقالت لى فى قاعة
المغادرة فى المطار: "ارى العالم فيك"، وجاء صوته ليؤكد لى أن العالم فى
داخلى وأن أمى ليست الوحيدة التى لن تعود كما ذهبت، بل أنا أيضا فى
قلب التجربة دون أن أكون واعية بها. اليوم أصبح عمرى عشرين عاما،
أمى هناك فى بلد لا أعرف حتى شكل أهله ولا أفهم لغتهم، وأنا هنا فى
القاهرة التى أعرف معظم شوارعها، محاطة ببشر أفهم أحيانا لغتهم. قالت
لى "سمر" صديقة أمى "أتمنى أمنية"، وقبل أن أنحنى لإطفاء شمعة وحيدة
صرخت "سمر" "الأمنية؟" ... أغمضت عيني فرأيت أمى تقف بجوارى
تضحك... فتحت عيني وأخمدت نار الشمعة بنفـس واحد ضعيف، وأرسلت
لأمى السلام مع القمر (دى مش قصة دى بس أفكار) .

اليوم تحتفلين بالعام العشرين فى القاهرة التى قهرتني فأحببتها، وأنا
أحتفل فى برلين بعيد الهالوين. هل رأيت هذا العيد من قبل يا "روضة"؟ أنا
لم أره، فقط سمعت عنه. الآن أجلس فى طاولة نائية فى مطعم أمريكى
بارد، أنقر على جهاز الكمبيوتر وأختلس النظر لكل هؤلاء الذين تتكروا فى
ثياب "الشياطين" ليردعوا كل الأرواح الشريرة التى تسول لها نفسها
التحرش بالأرواح الطيبة. وقع نظرى على تلك الباروكة الزرقاء التى
جنمت على رأس المرأة الجالسة أمامى، مرحت فى ألوان الشعر المستعار
لكل الجالسين معها على نفس الطاولة، تأملت أحمر الشفاه الأسود والأظافر
المطلية أحمر، والنجوم المتناثرة على الملابس... يتكرون ليصيدوا

الشیطان والعفریت، أضحك داخلی باستهزاء فقد تتكرت كثيرا، بل ربما كنت متكررة دائما، ولم أمنع العفریت من استیطان روحی. ها هی العفریت تحاول أن تخرج بكل قوتها وأنا أمنعها بكل قوتی. أحتمی بجهاز الكمبيوتر وأسجل علیه كل الخوف والضعف، وأطفئ معك شموعا فی ذاكرتی.. شموعا لم أطفئها معك من قبل.. لأننی كنت فی منطقة أخرى هناك.

٢

عندما كنت صغيرة لم أكن أخاف الظلام مثل كل الأطفال، كنت أخاف من عمی، بل كنت أرعد حين يذكر اسمه، وفهمت أمی الحيلة. فكنت كلما أمارس السخف المعهود للأطفال تهددنی بذكر اسمه، لأتحول فی لحظة إلى ملاك وديع. أمی أيضا كانت تخاف عمی، وترعد أمامه وتقول - دائما -: "طبعا كلامك مضبوط". كانت هی أيضا تخافه، ربما كانت تخاف كل الناس، تخاف الدنيا، وترأها عبئا لا بد أن نحمله. فأحاطتني بكم لا بأس به من الحماية، لكن تعرفین أن الخط الفاصل بین الحماية والقسوة رفیع للغاية، وتعرفین أننا مازلنا نبرر قسوتنا حتى الآن على أحبابنا بالحب. أمی تقسو وأنا أنكمش وأصمت، عمی يقسو وهی تتكمش وتبرر وتقول "كلامك كله مضبوط". كبرت قليلا ولم أتنازل عن كرهی لعمی، ثم كبرت كثيرا ونسيت عمی. الآن فقط أدركت أن عمی كان يبحث عن كينونة، عن مكان فی الدنيا، عن شخص يربط على كتفه ويقول له "إنت كويس قوى". لم يتزوج

عمى وظل وحيدا فى شقة مظلمة فى أعلى دور بالبناية، وظل يردد "أنا على درجة وكيل وزارة فى وزارة الشئون"، ثم يتأمل كل العقود الحريمى البلاستيكية التى اشتراها من سوريا فى الستينيات. ظلت العقود قابضة فى دولا ب ملابسه من باب البخل، لأنه لم يجد المرأة التى تستحقها - كما كان يقول -. حتى إن عمى كادت تموت غيظا لأنها اكتشفت أن "نبوية" التى تعمل لدينا منذ زمن حصلت على عقد من تلك الثروة البلاستيكية، وعندها تأكدت عمى أن "نبوية" تطمع فى ميراث عمى. مات عمى فى مستشفى ما ولم أعلم بوفاة إلا بعد أربعة أيام. صمت ولم أتكلم.

لم تتزوج أمى أيضا وأفتت عمرها فى محاولة ترويضى، محاولات باءت بالفشل لأن قاموسى لم يتضمن أبدا - عندما كبرت - كلمة "نعم". عندها انصرفت أمى إلى تطريز زهور كبيرة على أقمشة لامعة، زهور تشبه الزهور، زهور فاقدة الروح، زهور تحاول أن تستمد حكاية من محاولة ترويض "نبوية".

وكانت "نبوية" أذكى منى كثيراً، فقد علمتها السيدة التى كانت تعمل لديها عندما كان عمرها سبع سنوات أنها إذا أظهرت طاعة كافية طوال اليوم يمكن أن تحصل على نصف رغيف فى المساء بدلا من ربع الرغيف المعتاد. ومن هنا أصبحت "نبوية" أهم شخصية فى حياة أمى. تدخر أمى لها أموالها وتخطط معها حياة أبنائها، ومؤخرا تمارس عليها جرعة مكثفة من الوعظ الدينى الملئ بالمعلومات الخاطئة. و"نبوية" تملأ الفواصل بانبهار مفتعل يروق لأمى وتقول: "صحيح ياست كوثر، والنبى صحيح؟". يبدو أن أمى لم تكن قوية كفاية لأن "نبوية" بعد فترة قليلة من الوعظ تزوجت عرفيا من الرجل الذى أحبته، وهى لا تزال فى عصمة أبى العيال. وتلقت "نبوية" يومها أطول محاضرة عن عذاب جهنم وعن الثواب والعقاب والأخرة، استمعت وهى تبدى الموافقة والندم على فعلتها الشنعاء. وأقنعت أمى أن الرجل غرر بها وجعلها توقع على ورقة ما وهى لا تعرف القراءة. ثم دخلت على غرفتى وهى مبتسمة وقالت: "أعمل إيه بقى دلوقت يا عيشة؟" ارتبك، فليس لدى أدنى فكرة عما يجب عمله للخروج من هذه الورطة. لا أجد سوى أن أسألها لماذا تزوجته؟ تجيب وهى تخفض صوتها: "إكمنه طيب قوى يا عيشة. أول لما شافنى فى الماكروباص سألنى إن كنت فطرت ولا لا. وراح نازل شاريلى شندوتشات فول وجابلى طرشى. طيب قوى والنبى يا عيشة غير البغل الثانى اللى أنا صارفة كل فلوسى على بطنه، ده بيشر ب فى اليوم كيلو لبن". غالبا ما وجدنا فى "نبوية" أنا وأخواتى راحة لضميرنا، نحن الملائكة وهى الشيطان، نحن المتعلمات وهى الأمية، نحن الاستقامة

وهى الإثم. غسلنا ضمائرنا كما يغسل تجار المخدرات أموالهم، وشعرت
ألمى براحة الضمير أمام الله لأنها لقنت "نبوية" درساً دينياً دسماً، ونمنا
جميعاً فى نابوت مرابانا المعكوسة التى لا نرى فيها إلا الآخرين الأشرار.
كيف كنا سنشعر بالاكتمال بدون "نبوية"؟

تستدير لتغادر الحجرة ثم تعاود الالتفات وتقول: "صحيح يا عيشة، نسيت
أقول لك، خالك مات، يوه قصدى عمك. عرفت يوم الأربع اللى فات.*".

٣

الحب والأفئدة، سلاح ضدنا، إعلان الحب، انتهاء اللعبة. كيف نقع فى
الحب بسرعة لا تقل عن سرعة سائقى الميكروباص. المعتادون على ركوب
تلك العربى المكسدة لا يحفلون بتهور السائق، فقد اعتادوا عليه. فقط نحن -
سائقي السيارات الخاصة - ننظر بتعال أنيق ونتعجب: "إيه الجنان ده؟"
وعندما نقع فى الحب ونهيم شوقاً ينظرون هم إلينا بتعجب: "تأس فاضية".
رغم أن القاهرة التى يئن أسفلت شوارعها من السرعة الجنونية
للميكروباص هى نفس القاهرة التى تدفعنا إلى الوقوع فى الحب بسرعة
جنونية. وفى الحاليتين لا يمكن التوقف إلا عندما يحين التوقف. الميكروباص
يتوقف بشكل مفاجئ وجنونى فى مكان غير متوقع، وغالباً ما يكون مكاناً
حيوياً رئيسياً مزدحماً بالبشر ومحلات عصير القصب ولا مكان فيه لموضع

قدم. يغادر السائق مقعده بعنف ويصفق للباب خلفه لاعنا "الدنيا واللى فيها"، يدخل سيجارة ويتبادل بعض القفشات الغليظة مع سائق آخر ثم يعود إلى مقعده مرة أخرى وينطلق بنفس السرعة الجنونية. نغم فى الحب بنفس السرعة، هكذا نجد أنفسنا نفكر فى شخص ما يستحوذ على تفكيرنا ونؤكد "لا لا عادى، بجد مافيش حاجة". وبعد وقت قصير يتضح أن هناك مليون حاجة، فى عقلنا فقط، صورة نصيغها ونكمل ألوانها وفقا لاحتياجاتنا فى تلك اللحظة. بمجرد اكتمال الصورة بالوان فاقعة واثقة لا مكان للظلال فيها ننتقل بسرعة جنونية، نضع القلب والروح فى أعلى درجات التأهب واليقظة، لنكتشف فجأة أننا كنا نستريح من سخونة الأسفلت فى غفوة صورة متقنة توهمنا بغياب الوحدة وتدلل الذات قليلا. عند هذا الاكتشاف نتوقف فجأة بمنتهى العنف محدثين صوتا عاليا على أسفلت القلب، وكما تترك الفرملة المفاجئة للعجلات أثارا لا تمحى على الأسفلت، يترك التوقف المفاجئ للحب علامات لا تمحى. علامات تذكرنا دائما أننا أخطأنا الاختيار وأنها كنا مندفعين، وأنها مخطئون ومخططات، وأنها قلنا "نعم" حين كان يجب أن نقول "لا".

كيف كان لنا أن نعرف ونحن نقود بهذه السرعة، كيف لمسافر يجرى من محطة إلى أخرى أن يتوقف ليقرأ العلامات ويفهمها؟ المشكلة أن هذا

المسافر يجد نفسه بسبب السرعة فى محطة أخرى ليست مبنّاه، فيعود إلى البداية مرة أخرى، يعود لآعنا "الحب وسنينه" ويقسم أنه لن يقود تجاه ذلك الشيء المدعو الحب مرة أخرى لأنه إحساس يسبب الكثير من الكآبة. هكذا يتوقف المسافر حتى يلتقط أنفاسه ويهدأ ليعاود السفر مرة أخرى بحثاً عن مبنّاه، وكان ما كان لم يكن. هل يجده أبداً فى القاهرة التى لم أتبين كل شوارعها حتى اليوم؟ فما بالك يا صغيرتى بأزقتها وكوايسها، وكثيرة هى! فنحن إذا لم نقرأ العلامات جيداً على كوبرى أكتوبر قد نجد أنفسنا فى مدينة نصر بدلاً من العباسية، تماماً كما تفوتنا قراءة العلامات فى الحب. فانتتى الكثير من العلامات التى كانت تحذرنى الاقتراب من روحه، كادت تكون مثل العلامات التى تحول نهر الشارع لوجود إصلاحات به، ولم أتحول، كنت أنظر إلى الأمام والعلامات كانت - للأسف - فى الأسفل قُرب الأسفلت قليلاً. من الذى قال إنه لا يجب أن ننظر إلى أقدامنا؟ كيف فانتتى حتى العلامات التى جعلتنا نضحك لىالى طويلة يا صغيرتى؟ يذكرنى دائماً بسائق التاكسى الذى سألنى مرة منذ حوالى عشر سنوات: "قولى لى يا أبله، الكلمة دى يعنى إيه؟" وأشار إلى لافتة "ماكدونالدز"، فقلت له إنه اسم المحل، فسأل: "بيبيعوا إيه يعنى؟" أجبت بنبرة سخرية "كفتة أمريكانى"، غرق السائق فى الضحك. عندما حكيت بعد ذلك الواقعة، لم يضحك بل أشاح بوجهه وقال "مش عارف أركن العربية فين". أنا العالم والعالم أنا، ولاشئ يستحق الاهتمام. كيف يعيش هؤلاء؟

اه منك يا قاهرة فى الصباح الباكر واهلك على المقاهى يحتمسون شايًا بحليب والنصف الآخر يلتهم الفول بالزيت الحار ويصنع منه وليمة على سيارات الذين يأكلون نقاعة على الإفطار، وصوت "مصطفى إسماعيل" فى الخلفية يردد بقراءات مختلفة "الطارق ما الطارق وما أدراك ما الطارق"، والمستمعون يهللون "الله الله"، ثم يعيد "الطارق"، ما الطارق وما أدريك ما الطارق" و... "الله الله". اجلس أمام النافذة فى حجرى فى برلين وروحي مفتوحة على القاهرة تعويضا عن سحب برلين الرمادية التى تغلف زرقة السماء، الشيخ "مصطفى إسماعيل" يبدع "فرددناه إليك كى لا تحزنى وتقرى عيناً"، ادعوا أن أمر بسلام من هذه المحنة وأقول "المره دى صعبة شوية يارب، والنبي ماتسينيئش". بدون خرائط الروح تتحول كل الأمكنة إلى صحراء وأنا لم أملك خريطة لروحي إلا فى القاهرة وأهمها خريطة الابتسامه، نحن أهل القاهرة نواجه كل أحداث دنيانا بالابتسام، وابتساماتنا تقول الكثير: تقول الغضب والزجر والسخرية والعجز والكذب والحب والامتنان والراحة والقلق والقبول والرفض، من يمتلك هذه الشفرة السحرية إلا أهل القاهرة؟ فى لحظة - هنا فى برلين - عدت إلى القاهرة فى أكثر المواقف مأساوية، حين جاء لصديقى المغربى خبر

وفاة والده حاولت قدر استطاعتي مساعدته ليصل أغادير قبل الليل، وقبل أن يدلف إلى التاكسي الذي سيقله إلى المطار ابتسم وأخذ يردد: شكراً... شكراً، أدركت لحظتها أنه في أعلى درجات الألم، تمكنت من حل شفرة ابتسامته وعدت عبرها إلى القاهرة. ربما كانت كل ابتساماتنا مؤخراً في القاهرة هي ابتسامات الألم، وفي أحسن الأحوال كانت ابتسامات السخرية والعجز.

٥

تشتد حرارة القاهرة وترتفع وترتفع كأنها ستنفجر فأضع على رأسي عجينة الحناء الحمراء لتمتص الحرارة، أو على الأقل هذا هو السبب المعلن. أما السبب الحقيقي فهو محاولاتي المستمرة منذ سنوات في الحصول على شعر أحمر متوهج مثل روحى لأحقق قدراً من الاتساق في الألوان. مؤخراً تمكنت من الحصول على ظل يشبه الأحمر لكنه ليس أحمر، ولكي أنزع تعليقاً واحداً على هذا الظل لأبد أن أقف تحت شمس القاهرة الحارقة، بعد أن أضع الحناء لتمتص حرارتها.

في برلين الباردة التي أرتدى في خريفها أربع طبقات من الملابس، لم أستطع الكتابة عن القاهرة إلا عبر العودة الكاملة إلى الشمس الحارقة التي تؤلم العظام وتشق الجلد وتلهب الأعصاب. الطريق يبدأ من القاهرة. ولكي

ابدا لابد أن أقع تحت طائلة الذاكرة التي لا ترحم، ذاكرة لا تمسح شيئا لأنها تبدأ في العمل ولا تتوقف مهما كانت التمانم والأحبة، ذاكرة تهرس كل خلية في القلب والعقل ولا أعرف النتيجة بعد كل هذا الهرس والعجن، كل ما أعرفه الآن هو شلالات الدموع التي تنهمر مني لا إراديا، دموع حارقة أشعر معها بوخزة ألم في منتصف صدري، دموع ألم وتائب ضمير وشعور بالضالة والشفقة على الذات والندم، وكما تقول أمي دائما: "لولا عدة أم مكى" لكان الحال يبكي، وفي برلين لم أجد عدة "أم مكى" فكان الحال يبكي.

من برلين أرسلت رسالة لـ "سمر" بالبريد الإلكتروني عنوانها "مساعدة عاجلة"، سألتها ما العمل في تلك الدموع وكل ذلك الرثاء وأنا هنا بمفردي وحيدة تماما؟ وفورا أجابت:

"لن أقول لك لا بأس، ولن أطلب منك التوقف عن البكاء، بل سأقول ابكي وابكي حتى تتخلصي من كل الأهات، بل علقى ورقة في الغرفة تقول أنك مجروحة حتى الثمالة. ابكي وابكي وعندما تذرفين دمعك بأكمله سيجيء وقت الفهم. لكن تذكرى أنك لن تفهمي كل شيء، وعندما تحاولين الفهم لا تعفى نفسك من المسؤولية. عندئذ ستطهرين الجرح من الدم والصدید الذى تراكم فى القاهرة. وعندما يصبح الجرح نظيفا سينترك مكانه علامة عجوز (لاتنقلقى، يمكن أن نعالجها فيما بعد بجراحة تجميل). ابكى واعلمى أننى

أحبك وأؤمن بك. أبكى حتى تجدى الطريق الذى بدايته شوك ودموع وآخره
سلام وأمان".

كم جراحة تجميل أحتاجها؟ ومازلت أبكى ذاكرة مأكرة لئيمة، ذاكرة
بشعة تحتفظ بكل همسة ولمسة، ذاكرة لا تخون إلا فى الأشياء القافهة،
ذاكرة تنهش فينا لتؤكد أن كل ما حدث قد حدث بالفعل، ذاكرة تعيد لنا كل
الوجوه التى كرهناها، وكل الألسنة التى ظننا أننا قطعناها، وكل المشاعر
التي كنا قد نسيناها، وكل الأحداث التى كان لابد أن نصرخ فيها ولم نفعل،
واللحظات التى كان لابد أن نقبل فيها فرفضنا، والأماكن التى ما كان يجب
أن ندخلها فدخلناها بثقة ولامبالاة، والنساء ذوات الأرواح القبيحة اللواتي
كان لابد أن نملعن من مجال رؤيتنا فدخلن قسرا وغصبا ليقرن بطوننا،
والرجال الذين أسلمنا لهم القياد أحيانا فكانت حوادث مروعة... كل تلك
الروائح الكريهة، كيف سمحنا لأنفسنا أن تلتقطها؟

لن أعفى ذاتي من المسؤولية، ولن أبحث عن شماعة، لدى مئات
الشماعات فى القاهرة، لكن لن أتنازل عن الحناء الحمراء، إذ ربما أحصل
فى برلين على شعر أحمر متوهج كذاكرتي الآن.

ذاكرة النار

ذاكرة تسير بسرعة الرياح العاصفة الخائنة، تثير كل الزواجع الكامنة الهادئة لتحولها إلى أشباح متسلطة تعصر الروح... ثم يهدأ كل شيء لأبقى أنا مع قليل من الأسئلة والكثير من رثاء الذات والشعور بالغبن والندم. ماذا تفعل القاهرة بنسائها؟ لماذا يتحولن إلى وحوش كاسرة تنقض على كل ماتجده في طريقها؟ لماذا يلاطفن الفريسة قبل التهامها؟ إذا كشر الوحش عن أنيابه مباشرة فهذا مفهوم، إذ على الفريسة أن تلوذ بالفرار، ولكن إذا قرر الوحش أن يهددها ويدعوها إلى القهوة وبعض السهرات التي يكون البوح بالآلام هو محورها فإن الفريسة تأمن جانبه ولا ترى وحشيته. وهذا أصعب لأن الفريسة لا تكون مستعدة للألم فيفاجئها السكين في أضعف نقطة.

"عالية" ابنة القاهرة بحق، تتحرك في كل مكان وتشارك في كل مناسبة، وتظهر في كل مشكلة، وتتورط في أية كارثة، وتدلى برأيها في كل شيء، سياسة، فن، أدب، ثقافة، مشاجرة، مباراة كرة قدم، تطورات الإنترنت... بالإضافة لعملها كمحامية. تجلس معك "عالية" فتحل لك كل المشاكل المستعصية عبر قاموس ثقافي - أندھش دائما إزاء خروجه من دفتي كتاب إلى الحياة اليومية -، ثم تحكى لك حكاية تجعلك على وشك الانفجار من

شدة الضحك، ثم تجدها تقاتل في سبيل الإفراج عن شاب مضطهد في مكان عمله، والقاهرة تموج بالمضطهدين. عليك فقط أن تنفوه باسم رجل أمامها لتتوهج عيناها وتخبرك عن حبه المينوس لها وعما فعلته به. "عالية" لا تكذب، بل هي تصدق نفسها، تنقص الكلام حتى يصبح جزءاً من وعيها وروحها فلا تملك إلا أن تصدقها. وفي وسط كل هذا تخبرك عن جراحها والأمها فلا تملك سوى أن ترى إنسانيته بوضوح. اليست هذه امرأة رائعة؟

كالمعتاد كانت العلامات أمامي ولم أراها، أو ربما رأيتها وتجاهلتها. كانت "عالية" تثور لأتفه الأسباب ولا تتورع عن سب الآخر، ولم تكن هذه المشكلة، بل كانت المشكلة أنها تفعل هذا مع من يجرؤ على إظهار الضعف. كان دائما كلامها عن العدو ذاك الآخر، غير مقبول، ولا أذكر كم من البشر ناصبتهم العداوة تبنيًا لمنطقها. كنت أتابع كل الأخبار الحميمة عن الآخرين من فمها، كانوا كلهم عراة ما من شيء يسترهم أمامي، ولم انتبه مطلقاً أن دوري قد اقترب. كنت أراها دائما روحاً تبحث عن المستحيل، ولم أدرك مطلقاً أن ترجمة هذا القلق - الذي كنت أراه وجودياً بحثاً - تعني عدم التحقق وعدم الشعور بالاكتمال، أو غياب نقطة الارتكاز - كما يحلو لأحد أصدقائي أن يقول -. وكان "عالية" قررت أن تكتمل عبر وجودي، - أو بمعنى أدق - غيابي. لم أعرف بالطبع إلا بعد مرور سنوات أن "عالية" لم تحتمل سرا واحداً، كان السر يتقل قلبها فقررت أن توزعه على محتاجي الأسرار، لم أعرف أن "عالية" كانت تنقصني فكل حب كان

لها وكل كلمة كانت لها. أصبح الهم الأوحـد لـ"عالية" هو كيفية الحصول على ما أملكه، مشروع، علاقة، صديقة، عمل، وكان النار كانت تتعش لمجرد وجودى الفيزيقي. بذلت "عالية" جهدا فائقا، لكنها لم تحصل إلا على ما تركته أنا أو غادرتـه أو هجرتـه أو زهدتـه، كلما أطفأت نارا تعود "عالية" فى محاولة يائسة لإشعالها. بعض النيران اشتعلت وبعض النيران أبـت الاشتعال. لكن "عالية" لم تسترح لأنها عرفت أن خلاصها الوحيد كان فى وجودى/غيبى.

ترانى "عالية" - وربما تتجنبنى - بالصدفة فى مكان فيتلون وجهها باللوان شاحبة ويعلو صوتها صاخبا، وتكتسب لغة جسدها هستيريا، ما كنت أحاول بث الطمأنينة فى تلك النفس الخائفة، كنت أحاول أن أخبرها أن النقصان بطلاننا جميعا. محاولات كانت تزيد نار "عالية" اشتعالا وتأججا وعدوانية، محاولات كانت تطلق جموح لسانها وتزيده عنفوانا وغبنا. كانت "عالية" صادقة فى كل فعل تقوم به حتى لو بدا للبعض تناقضا. هل أغوتها القاهرة بتناقضاتها أم أنها كانت ترى فى وجودى تهديدا لقاهرتهـا. كنت أرى بمنتهى الوضوح، لكننى اخترت ألا أرى، فقد ملكتنى القاهرة وما تركت لى أحداثها لحظة واحدة أتوقف فيها لأعلن رفضا مماثلا أو عدوانية مضادة. كنت أتعالى على كل التفاصيل التى تتساقط نارا من ذاكرتى الآن. كنت

أغض البصر عن المدافن القابعة بتواضع تحت الملهى الليلية، وكنت
لتجاهل السحابة السوداء التى تتد صدر القاهرة الواسع.

ربما كنت أنا السبب؟ ألم أقل أننى لن أعفى نفسى من المسؤولية؟ ربما
أشعرتها لا مبالاى الدائمة بالخطر، ربما أدركت "عالية" أننى "فوق هناك"
وأرادت أن تجعلنى أهبط إلى الأرض حيث التفاصيل، ربما كان ادعائى
الوهمى بالاكتمال الذى أسعيت به على الحياة هو الذى استغفر قواها ضد
هذا النمط... ربما. قالت "سمر" إننى لن أفهم كل شىء، بالطبع يا "سمر" لا
أحد يمكنه أن يفهم كل شىء، لكن التخمين هو الاختيار الوحيد المتاح الآن.
لماذا لم أهتم بمواجهة "عالية"؟ يلح على السؤال حتى يصبح كملح البحر
الذى يأكل الجلد.

هل تذكرين يا "روضة" عندما قلت إننى "الكائن الذى لا تحتمل خفته"،
هذه هى إذن نتائج الخفة. القاهرة أيضا تبتلعنا فلا نحتمل خفتها، كثيرة هى
القاهرة علينا، لا نستوعبها فنقلدها، تطير هى بخفة إلى أعلى ونبقى نحن
أسفل نئن من جراحنا. لسنا جديرين بهذه الخفة، خفة القاهرة حقيقية، أما
خفتنا فكانت مصطنعة. بئس أنت يا "عالية"، متى تفهمين أنه لا يمكن لأحد
أن ينافس القاهرة فى عفوانها، متى تفهمين أنه لابد أن نتقزم إجلالا

وتواضعا لقاهرة مترامية الأطراف، متغلغلة في الروح، قابضة على جمرنا؟
القاهرة وحدها تجيب على ما نشاء من أسئلة، القاهرة الأسرة، الساحرة.

لا تسعى إلى الخفة يا صغيرتى. يلزمنا أحيانا أن نثور لأنفه الأسباب،
وأن نتصنع الغضب، وأن نكسر المرايا، وأن نقول "لا" بغم متقلصة عضلاته
بالحسم ومشمزة تعبيراته بالرفض، وناطقة خلاياه بالتمرد. الخفة
ياصغيرتى توقعنا في التأجيل البليد لكل ألم قدر لنا. جاءت "عالية" من رحم
غيرة القاهرة التى لا ترحم ولا تقبل خفتى.

"ليلى" مبتسمة دائما حتى إننى كدت أعتقد أنها تحتفظ بابتسامتها وهى
نائمة. لكنها ابتسامة موحدة مثل إعلان "بيسى كولا" فى أعلى نقطة فى
ميدان التحرير، لا يتغير أبدا سواء كنا نعبّر الميدان بحركات بهلوانية لنقابل
اصدقاء، أو نحاول الوصول إلى مكتب شركة طيران، أو نحاول أن نعبّر
من أى ثغرة متاحة فى كوردون العساكر الذى يطوق مظاهرة ما نرفض
حدثا وقع فى غفلة من الزمن. يبقى الإعلان هناك ليفرض نفسه علينا وكأنه
يخرج لنا لسانه. نَعشَقُ "ليلى" عروض الأزياء بنفس قدر عشقها للتواجد فى
افتتاح أى مؤتمر. لم أنتبه قط أن "ليلى" ليس لديها صديقة واحدة وأنها لم
تظهر بصحبة نفس الشخص مرتين متتاليتين. نَعشَقُ "ليلى" الحكى عن
الآخرين ولا ترى غضاضة فى هذا، ثم تنتقل إلى الحكى عن نفسها

باستفاضة، المشكلة أن "ليلي" تبوح للجميع دون أى تفرقة، تبوح عن نفسها وعن الآخرين.

تشعر "ليلي" بالأمان كلما ازداد عدد الرجال حولها وتدخل فى حالة من الرقص الهستيرى فى ليل القاهرة، إلا أن القاهرة ليلا ملكنا جميعا، قاهرتنا أيضا لا تفرق بيننا، فتعطى لكل ليله الذى يغنى فيه على ليله. لكن "ليلي" تشبه القاهرة التى لا تحتمل مدينة أخرى معها. و"ليلي" لا تحتمل امرأة أخرى معها. كنت أتأملها وهى تتأصب الأخرىات عداوة غير مبررة، عداوة مقنعة دائما بتعليقات حادة تصل إلى غياب اللباقة. لماذا اعتبرت نفسى بمنأى عن هذه العداوة، فالطريق الذى ندخله لابد أن نصل إلى نهايته الخاطئة، كما يحدث لى فى شوارع جاردن سيتي... أدخل الشارع لأكتشف أنه اتجاه واحد فأضطر إلى إكماله لأعود إلى نقطة البداية.

تلجأ "ليلي" إلى أقدم حيلة ابتدعتها النساء بمساعدة الرجال وتشجيعهم... تتأصر "ليلي" منطق الذكورة والقوة والسلطة. وكلنا نعرف أن النساء المعارضات لهذا المنطق موصومات - دائما وأبدا - بالشبهات وهن المكان المناسب الذى تجد فيه المخيلة كل الحكايات الشائقة والأساطير الشبقة. والحققة أنه لابد أن أنصف "ليلي" وأقول إنها ليست الوحيدة التى وقعت

فى هذا الفخ، فقد سبقتها للكثيرات من قبل، ولم تفعل "ليلى" سوى محاولة تقليدهن عليها تحظى ببعض المكاسب.

أكثر ما تخشاه "ليلى" هو المواجهة، ترتعد منها وتهتز أعصابها إذا لاحت فى الأفق. حدث أن واجهت "ليلى" ووقفت لتأملها مرة أخرى فى موقف مختلف، كانت تتلوى وتتطق بأشياء غير مفهومة، ثم تنسى ما قالت، ثم تعيده مرة أخرى ثم تلجأ إلى جمل العجز "بكره تفهمى". بمجرد أن اشتعلت نيران حياتى فى ليلة مظلمة بائسة كنت قد فهمت بالفعل ورأيت كل الأحجام الصغيرة للغاية التى سقطت ولم ألحظ سقوطها لشدة صغرها. عجيبة كانت تلك الفترة، تهاوى فيها العشرات من الأشخاص علانية دون خجل أو مواربة. لكن هؤلاء لا أحمل تجاههم أية ذاكرة، لأنهم لم يتواجدوا بداية، فقط أشفق عليهم كثيرا. ولحقت بهم "ليلى" فى الهاوية.

وعندما سقطت من ذاكرتى تماما شاهدتها بالصدفة فى ندوة مع "عالية". لم أتعجب بل ابتسمت ابتسامة مشابهة لابتسامة "ليلى". امرأتان معجونتان بالهيمستريا وعند كره النساء ثلثتيان. هذا لقاء القمة. كان الحوار بينهما مليئا بشبه جمل، أو جمل مقطوعة وأحيانا كانتا تتكلمان فى نفس الوقت وتأبى كل واحدة إفساح مجال للآخرى، بل تحاول خنقها بتلوث القاهرة المتغلغل فيها. ماذا تفعل القاهرة بنسائها، وكيف تتأكل روح رجالها؟

السنة القاهرة لا تصمت، واليوم ينقضى فى تنافس على الحكى، تمر سنوات فى محاولات واهية لإثبات اوهام. يقضى اهل القاهرة نصف حياتهم فى محاولة لرسم صورة غيرهم، على أمل ان يرسموا انفسهم، وتنتهى حياتهم بتشويه الكل. نار الذاكرة تفتح على ماكان ولم يعد والذاكرة تفتح على اشباح غابت وجوها ولم تغب أفعالها. وكثيرات وأخريات يشعلن ذاكرة النار، هناك مليون "لبلى" ومليون "عالية"، كل الأخريات نسخة مكررة منهن، ماذا أفعل بتلك الأشباح؟ كيف أفتح ذاكرتى دون مواجهة سيل من الزيف الحارق فى برودة برلين؟ كيف أتعامل مع ذاكرة لم تمر بالحكى، لم أحك أبدا.

أخرج للمشى ليلا فى شوارع برلين حيث البرودة تجمد أطرافى وحيث لا أحد يبالى بى ولا نظرة واحدة تربكنى، ودخان أبيض يخرج من فمى مع كل زفير وكان النار تبقى متقدة إلى الأبد، أقول لنفسى بصوت عال فى شارع يكاد يخلو من المارة "أنا لست غاضبة، أنا الآن بعيد هناك - هنا"، ثم أدركت أننى أكرر خطأ كل من قطع هذا الطريق قبلى، إذ نعتقد دائما أن الجغرافيا تلغى التاريخ، والحقيقة أن التاريخ والذاكرة ينتعشان كلما طالت المسافة وبعدت، فكلما بعدنا رأينا، وكلما رأينا تألمنا، وكلما تألمنا وانصهرنا تعلمنا وارتيقنا - لست متأكدة من الأخيرة، فلم أصل إلى حرف واحد أتعلمه مع كل هذا الألم -.

ذاكرة الألم

كان لابد أن يحدث كل هذا، كان لابد أن تزلزل المشاعر زلزالها، وتخرج النفوس أوهاماها وأن أتساءل أنا مالها، كان لابد أن أمر عبر صهد قرن الوجع لأعبر الناحية المقابلة، العبور لا يتغير أبداً، يستلزم نفقا موجعا يربط بين ضفتين فقط عندما عبرت تمكنت أن أقول: كان يا مكان.

كان لابد لي أن أحاول تهدئة دقات روحى عندما قرأت رسالتك الأولى والأخيرة، تلك الرسالة التى كتبتها بخط يدك ذى الزوايا الحادة المتعسفة، الخط الذى يهتم بوضع النقاط قبل الحروف كان لابد أن أعثر على الرسالة وأعيد قرائتها بنان لأستعيد كل لحظة ألم وعجز، كل لحظة دفعتنى نحو ممر لم أر منه سوى عتبة غير ممهدة، خطوة غير محسوبة. كانت لحظة اخترت أن أجمد فيها عقلى واندفعت نحو ممر بدون معالم، كانت كلها معالم فى مخيلتى ترسم صورة أب وام وأطفال. حتى آخر لحظة كنت أقاوم الخروج من كادر الصورة المرسومة مسبقاً. هكذا نحن النساء اللواتى ينتمين إلى مكان مبهم، مكان يقترض فكرة من كتاب، وفكرة من فيلم، وفكرة من طبقة، وفكرة من مبدأ، وفكرة من الخيال، وفكرة من الواقع، وفكرة من الممكن، وفكرة من موقف، وفكرة من فكرة.

أفكار نلضمها بدبابيس مشبك لنقدم أنفسنا للعالم فنتحول إلى ما يشبه
المحل الذى يبيع شامبو وملاعق وبهارات. فى الثلث الأول من عمرنا نبذل
مجهودا خرافيا لشرح هذه الأفكار ولنحصل على مكسب العودة إلى المنزل
متأخرين عن الميعاد المفترض نصف ساعة، وفى الثلث الثانى نحارب
أنفسنا لنتواءم مع نفس الأفكار ونحارب الآخرين لنقنعهم بها، وفى الثلث
الأخير نقرر أن ننسحب من المعركة بهدوء ونخرج للعالم بآثار كحل فى
العينين وحمرة شفاة خفيفة ونفكر فى الوقت الذى مضى فجأة ولم يمهلنا
لنمارس أفكارنا بدلا من الكلام عنها. فى الثلث الأخير نعلن عن أنفسنا بدون
رتوش، وبلا مبالاة فجأة، وبهدوء مبالغ فيه، وبمنتهى عدم الاكتراث. فى
الثلث الأخير نستكين لفكرة الاختلاف الذى كان يرعبنا، ذاك الرعب الأبدى
أن نكون مرفوضين أو موصومين أو فاشلين فيما نجح فيه الآخرون. فى
الثلث الأخير نصرح بما نكرهه ونتمسك بكل ما نحبه، الوعى الرهيب
بالزمن، الوعى بليال خاوية من أحلام ولبليال مزدحمة بصور سخيّة، ونبدأ
اليوم وخير يا رب...

لا نرى مطلقا الجانب المهنى فى الأصدقاء، بل نراهم فقط كأصدقاء،
حتى ننتبه فجأة لكل مالم نره من قبل. قررت مراسلة "عماد" صديقى الذى
يعمل فى الطب النفسى على البريد الإلكتروني. قلت له: "إن الغضب يوشك
أن يقتلنى وإن النار تأتى على الأخضر واليابس"، كانت جملى مهترئة
كعقل الذى لم يرغب سوى فى الانفجار. لم يتأخر الرد على رسالتى، جاء

واضحاً وقاسياً كما غضبى تماماً: "بالتأكيد كان لك دور فى هذا الألم... كنت أنانية أردت الحصول على الحب دون مقابل... ولماذا يجب أن يحبك الجميع؟" ثم أنهى رسالته بما أسماه "ثلاثة أخطاء طفولية شائعة": الأولى: (لا بد أن يحبونى جميعاً)، والثانية: (العالم يجب أن يكون كما أظنه)، أما الثالثة: (لا بد أن يعاملنى الآخرون كما أعاملهم). هكذا يجب أن أسير دائماً على الحدود الفاصلة بين واقع وتوقع، بين رغبة وانفجار، بين أمل وإحباط. حاولت أن أفكر كثيراً فى ذلك السؤال الأبدى: "ما دورى فى جلب الألم؟" أزحت السؤال جانباً بشكل مؤقت حتى أستوعب اللابدات الثلاثة ربما أتعلم حرفاً.

مع الأيام الباردة فى برلين، انطفأت نار مفسحة مكانها لنيران أخرى، نيران الروح الملسوعة من قصص حب واهمة غائمة تارجحت فيها بين واقع وخيال فى محاولة للحصول على أمان ملفق. فى وسط هذا البركان المحموم تصلنى رسالة من "مصطفى":

"كل المطارات موحشة ولكن مطار القاهرة بالنسبة لى على الأقل أكثرها وحشة سواء عند الرحيل أو عند العودة، عند المغادرة أو عند الوصول، عند الوداع أو عند الاستقبال - للمرة الأولى أنتبه لدلالات الألفاظ - ربما لأنه فى الحاليتين يضعك مباشرة فى مواجهة حياتك التى تتركينها

أو التي تعودين إليها. وبالنسبة لي - على الأقل - فإن هذه المواجهة هي آخر ما أتمناه. في تلك الليلة وأمام السلك الفاصل بين الراحلين/ المغادرين وبين المودعين، اكتشفت أن العائلة هي الحمل الذي يحني ظهورنا، وهي في نفس الوقت الحائط الذي نستند إليه عند المدة التي كانت وبالتعريف مجرد حالة استثنائية وأصبحت بالواقع حالة يومية، وأن العائلة لم تعد فقط الأب والأم والأخوات ولكنها تتسع وأحيانا تضيق إلى الذين تركوا بصمات أصابعهم على القلب الذي كان يوما ناصع البياض وأصبح مع مرور - أو بالأدق مع عدم مرور - العمر مثل حجرة استخراج البطاقات في السجل المدني القديم. على الحوائط بصمات كثيرة لم يبق منها إلا بقع سوداء لا دور لها إلا تلويث المشهد كله بزفت لايزول، وبينها بصمة واحدة أو بصمتان تحتفظ بكل خطوط الإصبع وتدل على صاحبه سواء غادرت أوبقيت. وحشتيني يا بنت ال.....".

هل كان يجب أن أقطع آلاف الأميال يا "مصطفى" لنكتب سطرا واحدا. الجغرافيا تؤكد التاريخ، الجغرافيا كالمصفاة، تبقى الحقيقي وتلقى بالزائف في سلة مهملات القاهرة. برلين مصفاة. أعجبنى التشبيه.

ذاكرة مורقة

برلين أيضا عدسة تكبر الأشياء وتصغرها طبقا لقدرها. وكما كبر الألم إلى درجة تفوق الاحتمال، كبرت أيضا تلك اللحظات التي تمرغت فيها في حب أصدقاء وصديقات آخرين. ولم أكتب الألم فقط؟ في كل ليالي برلين الموحشة، كنت أعود بمفردي إلى الغرفة لأجلس بالقرب من المدفأة كي تعود الحياة إلى أطرافي، أبحث عن شيء أكله فأكشف أنني لم أطفه بحجة أنني وحدي ثم أحاول النوم فأتوهم سماع أصوات في الغرفة، أضئ النور وأجلس أمام شاشة الكمبيوتر حتى يجيء النوم منهكا ومتعبا من كثرة نزاعي معه.

في كل تلك الليالي تمنيت تلك الصحبة القاهرية التي جمعتني بـ"تهى" و"سمر" و"جميلة" و"سميرة" و"غادة" و"هاجر" ومعنا "مصطفى" و"كمال" و"سارة" و"شهاب". لم أنجح يوما في ادخار أموال ولا شراء عقارات، بل فشلت بشكل يثير الضحك، فقط نجحت في بناء حائط حب صغير استند عليه كلما تلقيت ضربة موجعة. ولأن الضربات كثيرة تأتي من أماكن أكثر فقد استندت دائما على هذا الحائط. حائط بنينا معا دون أن ندرك أنه كل ما سيبقى لنا. حائط يصمد رغم كل سخافاتنا وحمقاتنا

اللامتناهية، ورغم المضايقات التي نمارسها على بعضنا البعض، ورغم كل عدم اللباقة التي تقفز في جملنا بدون سابق إنذار.

فى اللالى المتأخرة أضع راسى فى حجر "هى" ونضحك من القلب حتى تدمع عيوننا. تأتى "هى" من الحى السابع بمدينة نصر حتى وسط المدينة حيث أسكن بشارع شامبليون لترانى. ولذلك فهى دائماً متأخرة عن ميعادها بما لا يقل عن ساعة ونصف. لا يشفع لها إلا صراحتها الصادمة حتى إننى جفلت عدة مرات منها إلى أن وقعت فى حبها، هذا الصديق مطمئن ودافئ رغم قسوته الظاهرة. "هى" منغمسة فى السياسة من رأسها حتى قدميها، تحلم بالتغيير والديموقراطية والعدل وتشبك مع "كمال" فى نقاشات طويلة، تتابع معظم الندوات والمؤتمرات، وفى نهاية الأسبوع يعاودها النزيف وتقول: "انا مكتتبه". أعرف هذا الإحساس بالعجز لكننى أحاول أن أحول الموضوع إلى نكتة وأقول لها إن كل هذه الندوات بمن فيها من وجوه متجهمة ومستفزة لابد أن تصيبها بالاكنتاب، ودائماً ما أسألها عن سبب عدوانية النساء المتواجديات فى تلك الندوات. لكن "هى" لا تتنازل عن الحلم أبداً، الحلم الذى بدا أنه منذ أن كانت طالبة فى نهاية السبعينيات، وعندما أشعر بالغيط من مثالياتها الزائدة أقول لها بانفعال: "يا بنتى إنتِ من القرن اللى فات، ديموقراطية إيه؟ إنتِ لسة فاكرة؟ ده احنا ما نجيش على بعض خمسمية". تبسم بارتباك وأحياناً يحمّر وجهها وتقول: "معلش،

معلّش يمكن". كانت "تهى" آخر من يغادر المظاهرة وأول من يذهب وأول من يتضامن حتى إننى كنت أشعر بالذنب أحيانا عندما أتغيب لأنجز عملا ما، ودائما كعادة القاهرة أدارى شعورى بالذنب عبر الضحك فأقول لها: "إنّ وكمال صوت الضمير الحى". تقول: "أهه بنحاول، لازم نراكم فى الطريق ده". خالمة أنت دائما يا "تهى"، أتابع أخبار القاهرة من برلين ولا أجد بصيص أمل واحد، وقائع التعذيب تثير الغثيان.

"تهى" لا تجيد الرقص لكنها عندما تدخل فى حالة الرقص تتألق وتنغمس فيما تفعله تماما، حتى إن ابنها يشعر بالغيرة عليها! يجذبها من طرف ثوبها أو يلح فى طلب ما فتقيق هى وتقول:

- عاوز إيه يا حبيبى؟

- عاوز أروح.

- طيب نقعد شوية.

- لا، باقول لك عاوز أروح... تعبان الله.

ولا تملك "تهى" إلا أن تلملم بقايا روحها المتألفة لتخضع لابنها. فى تلك اللحظة تتكثف كل الآم "تهى"، ابن أنانى، مصاريف فوق الاحتمال، نزيف لا يتوقف، حياة لم تعطها ربع ما حلمت به، ووظيفة حكومية فى وزارة الشؤون الاجتماعية أوشكت أن تصيبها بالانهيار. لا أملك سوى أن احتضنها وأقول: "تذكرى أننى أحبك كثيرا". فى اليوم التالى تفاجئنى "تهى"

بمكالمة تطمئن فيها على الصداق الذى أصابنى الليلة السابقة! ثم تصمت برهة وتسال: "شكلك كان متغير امبارح. كان فيه حاجة؟" مثل "هاجر" تماماً التى تقول نفس الجملة كلما تقابلنى. تعيش "تهى" كل حياتها مؤجلة. ظلمت عاماً كاملاً ألح عليها فى الذهاب لطبيب لفهم سبب ذلك النزيف الدائم، وكانت دائماً ما تأتى أجوبتها مكررة "غداً، الأسبوع القادم، لابد من الحجز، بعد أن تنتهى امتحانات الولد"، لكن يبدو أن الأمر كان قد ازداد بشكل ملحوظ إذ أخبرتنى فجأة أنها ذهبت لطبيب مستوصف مسجد "رابعة العدوية"، وكتب لها روصة طويلة وأنها بدأت تتناول الأدوية. سألتها عن التشخيص الذى قدمه أو سبب النزيف فقالت: "بيقول توتر". كلما أقابلها أسألها عن الأدوية فتؤكد أنها ملتزمة وأن الحالة تتحسن، لكن ما حدث بعد ذلك كشف الأمر كله. كانت بمقر عملها تراجع أوراقاً قدمتها مجموعة من النساء الناشطات اللواتى يعترزن تأسيس جمعية، وكانت تجلس قبالتها على المكتب واحدة منهن وهى التى تعرف "تهى". ويبدو أن "تهى" شعرت أنها ليست على ما يرام فاستأذنت السيدة فى الذهاب لدورة المياه. قامت "تهى" من خلف مكتبها واتجهت نحو الباب فصرخت تلك السيدة الجالسة عندما شاهدت بنطلون "تهى" الأبيض وقد تحول إلى أحمر! فما كان منها إلا أن حملتها فى سيارتها واتجهت إلى المستشفى فوراً. كانت "تهى" تحاول أن تتخلص من إلحاحى الدائم فأوهمتنى أنها ذهبت للطبيب.

جميلة بالفعل "جميلة". اضحك لضحكها المجلجلة في كل وقت، وكانها أصبحت مثل أهل القاهرة، تضع كل مشاعرها على موجة الضحك رغم أنها تحمل الهم القديم الجديد، هم فلسطين تضحك فنضحك معها، تبكي فنصمت احتراما لمشاعرها. صحة "جميلة" تتدهور يوما بعد يوم، سكر.. ضغط.. التهاب في الأعصاب.. اضطراب في ضربات القلب، تضحك وأرتجف أنا من فكرة غيابها، تعشق "جميلة" الحياة إلى النهاية وترفض الخضوع للمرض وتقول "أكره فكرة أن أكون مريضة"، فاجيب: "ومن الذى يحب الفكرة؟ يومين بس، يومين فى البيت". ينقبض قلبى فأتصل بها من برلين، بمجرد أن تسمع صوتى تقول: "أفلى أفلى، أنا هاكلمك"، أجيب: "أنا بكلمك أهـ يا جميلة". تصر: "لا، أفلى أنا هاكلمك". أمام إصرارها أغلق الخط وانتظر. تعاود الاتصال وتقول: "أيوه، كده الصوت واضح". كل مرة تستخدم نفس العذر لكى تجنبنى إجراء المكالمة. أول مرة تبادر بطلب شيء كان الدواء الذى تتعاطاه، وعندما طلبته فهمت أن المرض تمكن منها. بمعجزة صغيرة حصلت على الدواء، وانتظر معجزة شفاء "جميلة". أثناء الانتظار تهاتفنى وتلح على أن أزور مرسما بحى الحسين لأشاهد آخر لوحاتها. استقل سيارة تاكسى لتجنب البحث عن مكان لسيارتى وأصعد سلما متهاكاً وقبل أن أصل للباب تفتح "جميلة" الباب وتقول: "يتعرفى شو.. قلبى حس إنو هايدا إنت". تفسح لى مكانا للدخول فتطالعنى اللوحة مباشرة. لوحة كبيرة تحل الجدار بأكمله. "اشتقت كثير لفلسطين، قلت بلا أرسمها". لوحة

مرسوم عليها خريطة فلسطين الأصلية، وتموج بأسماء المدن والقرى والبلدات الصغيرة: بيت ساحور، دير ياسين، يافا، عكا، كرمة الداليا، بيت حانون، جنين، غزة، رام الله، بيت جالا، القدس...

تنغمس "جميلة" في الرسم وتشد فلسطين وبيوتها بالفرشاة، ترينى لوحة أخرى وتقول: "هذه رام الله"، ألوان "جميلة" ملتهبة كأعصابها تماماً، ولوحاتها تموج بالحوارات والقصص والحكايات. ورغم أن كل لوحة تتجاوز التفاصيل الصغيرة ولا تعيرها اهتماماً كبيراً إلا أن الإحساس يصل واضحاً، مجلجلاً كضحكة "جميلة" تماماً. تتجاوز التفاصيل هو ما جمع بينى وبين "جميلة"، أنظر إليها أثناء أية مناقشة محتدمة بين اثنين ويبدأ التواطؤ فوراً. كلما تزعجنى التفاصيل أتأمل اللوحة التى أهدتها لى "جميلة" وأهيم فى جمال اختفاء كل التفاصيل خلف ضربات فرشاة مجنونة، وخطوط متداخلة، ومناطق يصعب الفصل بينها. لم تكن التفاصيل مهمة أبداً. فى النهاية حياتنا ليست سوى تفصيلة واحدة متكررة.

من تحدث عن التواطؤ؟ "عادة" تسخر منى دائماً وتقول إننى أتأمر ضد نفسى! يتفق معها "عماد" ويؤكد أننى "عبيطة وهبلّة"، كلما يقول هذا أرتبك وأقول: "بس يا قبضى، ادفع الجزية اللى عليك وبعدين اتكلم"، يجيب "عماد" بابتسامة رائقة: "سأدفع كل ما تريدن، لكن هذا لا يلغى إنك

عبيطة وهبلة، ننفجر فى الضحك وتوافقه "غادة" بنظرة العارفة للأمور. "غادة" عارفة إلى حد ما، لكنها لا زالت تبحث عن الحب الحقيقى الذى سيغير مسار حياتها كما الأفلام تماماً. إذا أحببك "غادة" فلك النعيم وإذا انقلبت عليك فالمصير هو الجحيم. أحببتى "غادة" من قبل أن نتوطد علاقتنا وأحببت ضحكك الصافية وروحها المتقدة دائماً رغم إيقاع خطوتها البطيئة. مشتعلة "غادة" دائماً مثل قلب الصعيد الساخن الذى جاءت منه، ويملكها الغيظ من "تهى" التى لا تفعل شيئاً حيال مشاكلها الشخصية. لا تمر لحظة دون أن تبدي "غادة" استعدادها للتضامن، وإذا لاحظت أننى متجهمة قليلاً تقول: "قولى بس مين اللى زعلك؟"، أختار أحد الأشياء من جعبة الزعل وأقول لـ "غادة": "بسيطة، معلش". تنتفض وتقول: "لا، مش بسيطة، وما فيش حاجة اسمها معلش، مش لازم تكونى مؤدبة مع كل الناس. كونى نفسك، إنت مش مضطرة تجاملى أى حد". حتى إنها لم تجامل "كمال" - صديق عمرها - عندما كان متوتراً بسبب انتهاء علاقته مع "سارة". لم يصدق "كمال" أن القصة انتهت، فواجهته "غادة" بالحقيقة المؤلمة، وكانت ترى أن ذلك فى مصلحته، كانت تستفزها كل محاولات تهدئة "كمال" وكانت تعتقد أنها محاولات تقوده إلى الانهيار. حاولت يا "غادة" أن أكون أنبأ، نجحت فى أحيان وأخفقت فى أحيان أخرى. ولذلك أحببت "غادة"، فهى دائماً هى. عندما زارنى "عماد" فى برلين أرسلت لها كارتاً بمناسبة عيد ميلادها الرابع والثلاثين وكتبت فيه: "كل سنة وأنت كما أنت لأنك رائعة

هكذا". ولأن "غادة" نفسها دائما فطبيعي أن تكون ألامها لا تحصى فى القاهرة التى تأبى أن تكون أنفسنا. فى العمل ينظرون إليها باعتبارها الشيطان الأعظم، فهى دائما شاردة وعندما يعترض أحدهم تقول: "كل الشغل ده وهم، تأدية واجب، ده شغل أى كلام"، وهى تعلن دائما غضبها من "تخلف الناس" كما تقول. ولا تفهم ما الحق الذى يجعل الرجل يعتبر زوجته ملكية خاصة. وبعد عدة سنوات من هذا الكلام لم تعد القاهرة تحتل آراء "غادة" خاصة فى مدرسة حكومية، كل يوم تذهب "غادة" إلى العمل بوجه مكفهر ومتربص، تلقى بآرائها فى الوجوه فيبادلونها مزيدا من القمع والاستبعاد. كلما أقابلها تقول: "أنا خلاص قررت أحصل على إجازة بدون مرتب، أنا مش لاقية نفسى خالص"، ولا تفعل. حتى حدث ما جعلها تصر على المغادرة. كان عيد ميلادها قد توافق مع يوم الجمعة واحتفلنا جميعا به. وفى صباح اليوم التالى توجهت إلى المدرسة الكائنة بشارع "يوسف الجندي" وكما تفعل كل يوم طلبت كوبا من الشاي واحتسته مع الساندوتشات التى تحضرها معها من المنزل، وبعد قليل وجدت مجموعة من المدرسات يتوافدن عليها بالحجرة فخمنت أنهن يردن كتابة طلب إجازة مثلا. بعد السلامة والتحيات المكررة والباردة قامت واحدة منهن وتوجهت نحو "غادة" وهى تحمل فى يدها علبة ملفوفة بورق هدايا وقبلتها وقالت لها أن الهدية جماعية بمناسبة عيد ميلادها. فرحت "غادة" لأنهن تذكرن عيد ميلادها وشكرتهن على تلك اللفتة، ولكن كبيرتهن قالت إن هذا تقليد بدانه

من حوالى شهرين مع كل مدرسة وموظفة فى المدرسة، وأن أعياد الميلاد يتم معرفتها من وكالة المدرسة. لم تفهم "غادة" مغزى كل هذا الشرح وكررت شكرها مرة أخرى. اقترحت المتحدثة باسمهن على "غادة" أن تفتح الهدية. ارتابت "غادة" فى الأمر، فقد كانت تخبرنى أن هذه السيدة تخيفها بملامح وجهها القاسية، ونظراتها الحادة وصوتها الأجش. كنت دائماً ما أضحك عندما أستمع لهواجس "غادة" وأتأكد أكثر أن نصف العالم يحدث فى مخيلتها. لكن يبدو أن "غادة" كانت على حق تلك المرة. فعندما فتحت العلبة وجدت عشرة شرائط مكتوب عليها: "عذاب القبر". ومن هول المفاجأة صممت تماماً، وقالت لها السيدة المخيفة: "هذه الشرائط لابد أن تستمعى لها جيداً، وعندما تتعظين ستكونى ولدت من جديد. عندئذ يكون عيد ميلادك الحقيقى. ربنا يهدى إن شاء الله". لم تذهب "غادة" للمدرسة فى اليوم التالى، وبعد أسبوع كامل من الغياب طلبت إجازة بدون مرتب. وحين نفذت قرارها أخيراً والتحقت بمشروع خاص مؤقت عن المناهج التعليمية فى مؤسسة أهلية، أشرق وجهها وتغيرت نبرة صوتها وبدأت تنتبه لصحتها التى كانت قد أهملتها. أهانتها من برلين وأقول لها: "وحشتنى النميمة معاك"، وأسألها عن أخبار الجميع، ما زالت مغلظة من "مصطفى" لأنه "تايم فى العسل نوم وفاكر الناس بتشتغل عنده"، وتسمى "غادة" أن إيقاعها مماثل لإيقاع "مصطفى" وأنه احتاج خمس سنوات ليكتب لى مطراً على الكمبيوتر. أتجاهل كل غيظ "غادة" من "مصطفى" لأنها تشتغل به كثيراً

وتسأل عنه كلما أتحت لها الفرصة. أتجاهل الأمر كله وأتعلم منها حين تغلق المناقشات السياسية المتأزمة بجملة عبثية: تانى هنقول مين اللي سرق العمود؟" رغم كل تلك القوة المفتعلة لا تحتاج "عادة" أكثر من كلمة أو نظرة لا تفهمها لترسلها فى أطول سلسلة هواجس ومخاوف.

ذاكرة تفتح على أوراق حب وعشرة، أوراق صدق بدون حسابات، ذاكرة كالأوراد كلما استعدتها تتمكننى القوة. وكلما تهبط درجة الحرارة فى برلين إلى ما تحت الصفر أفتح الذاكرة لأشعر بالدفء، وكلما أشعر بالدفء يزداد الحنين. كلما تزداد البرودة عبرت روى الحدود وفى العبور لا أقابل أية صعوبات، جاءت الصعوبات فيما بعد. التضاريس ليست وعرة بل سهولا مفتوحة من الوضوح والحب مثل "سمر" تماما، سهل مفتوح حتى لتعتقد أنه خداع البصر. هناك عدة مشاهد تحكم العلاقة بيننا. ذاك اليوم فى أكبر قاعة بجامعة القاهرة كان "إدوارد سعيد" يلقي محاضرة وكنيت قد دعوتك لتستمعى لها. تمكنت بحيل مهولة أن تحصللى على إذن بتغيب ساعتين من المركز القومى للبحوث، وجئت فى غاية الأسى: تصورى يا عيشة، أنا مضطرة أكذب فى الشغل علشان آجى أسمع محاضرة فى صميم الشغل بتاعى. قلت لهم خارجة فى بحث ميدانى وألفت قصة طويلة. حاجة تغم". لا أذكر ما الذى حدث وجعلنى أفتح فكرة المواعيد الخاصة بى، كانت ممثلة عن آخرها - غالبا ما كانت مواعيد لا قيمة لها - ونظرت أنت خلسة وقلت لى "very impressive". كاد قلبى ينفطر يا صديقتى لأننى

أعرف ما تعانيه من ظلم وغبن وقهر ولم أملك سوى الغضب من أجلك.
كل أربعاء تأتئين بعد أن ينتهى عمك وتقضين معى ساعة فى تلك الحجرة
الصغيرة المهملة فى القسم التى ليس بها سوى نافذة واحدة تطل على نخلتين
باسقتين، تحكين أنت عن الوجد وأنا لا أقول سوى: "مش معقول كده، لازم
تعملى حاجة". كنا صغيرات وغاضبات وكانت قوانين القاهرة هى ناموسنا
فى الدنيا، ولذلك عندما سلبوا منى الحجرة -وهو الجزء الذى لا تعرفينه -
أقمت مناحة لسكرتيرة القسم، فهى الحجرة التى شهدت الكثير من الدموع
والحكايات ودخان السجائر. قبل أن أغادر القاهرة توجهت إلى هذه الحجرة
واستعدت كل مخارج الحروف المؤلمة التى كانت تأتى بك فى طريق طويل
ملئ بالمنغصات من جنوب القاهرة. وعندما تمررت على أشد قوانين
القاهرة قسوة نجحت فى المرور برحلتك الجبلية الصعبة، ظاهرها الرحمة
من قسوة رجل وباطنها العذاب من مواجهة نفسك والقاهرة، حتى إنك انتقلت
إلى شمال القاهرة. لكن القاهرة رافت بحالك، فحولتك إلى فراشة تطير ولا
تحط أبداً، إلا عندما سافرت وعدت أكثر نقاء وأشد وضوحاً. عدت "سمر"
النقية بعد أن مررت بتلك المرحلة الضبابية الغائمة. كنا نساك: "مالك يا
سمر؟" ودائماً كانت الإجابة "مطحونة فى الشغل، مفرومة والله". عدت يا
"سمر" بعد غياب لتشهدى رحلتى الجبلية الصعبة، لتشفى لى عند القاهرة إذ
ربما تراف بحالى كما فعلت معك من قبل.

"سميرة" ذات الأربعين من العمر تبدو وكأنها فى الثلاثين، فارعة الطول ومغرمة باللون الأحمر. وعندما انخرطت فى تنظيم سياسى فى الثمانينيات لم تتنازل عن عشق اللون الأحمر، وبمنتهى الثقة ارتدت جونلتها الحمراء القصيرة فى أحد الاجتماعات، وبختها المسئولة وقالت لها: "ألا تخجلين مما ترتدينه؟" عينا "سميرة" لا تستقران أبداً فهى أكثر من تلتزم فىنا حرفياً بقوانين القاهرة. أردت دوماً أن أقول لها إن القاهرة ترى ما تريد حتى لو تشبهنا بالسيدة "مريم". فنحن حفنة من النساء اللواتى يرتعد أمامهن الآخر فيلقى عليهن كل بلانه.

"سميرة" تعشق الحب، حتى إننى دائماً أرتبك أمام أى شريك لها فى العلاقة، لا أتمكن من تحديد إن كانت "سميرة" تحب الشخص بعينه أم أنها تحب الحب. قضت "سميرة" عشرين عاماً من حياتها فى النضال وتقاطعت مع "تهى" فى منعطفات كثيرة. بعد أن تخرجت عملت بهيئة التأمين الصحى ولكنها لم تعشق سوى الكتابة. لم تدرك أبداً أن القاهرة تميل إلى التصنيفات التى لا تسمح بأكثر من دور واحد، وهو ما جعلها فى إحدى المرات تشعر باليأس التام وتعتزل الكتابة. ثم عادت "سميرة" إلى الكتابة. المشكلة أن "سميرة" تكتب بدمها ودموعها، تعيش أقدار الشخصيات حتى النهاية وعندما يموت إحدى الشخصيات تبكى "سميرة" كثيراً، ونقول: "ما كان يشحق الموت"، أجيب: "إننى اللى قررت تموتيه"، فنقول: "ما هو كان لازم يموت!" دأبت "سميرة" على اختفاءات مريبة وانقطاعات غريبة، فكما

تظهر فجأة تختفى فجأة، هاتف المنزل لا يجيب ورسائل المحمول لا تؤثر فيها. أغضب وأقول لـ"تهى": "سميرة" عمرها ما هتتغير، أنا زهقت بقى من الحركات دى". تسارع تهى" بالاتصال بها وتخابرنى "سميرة" فى اليوم التالى لأكتشف أنها كانت فى البلد لأن جار عم زوج ابن خالتها قد مات وكانت لابد أن تتواجد فى العزاء، وهكذا حتى تحول الأمر إلى نكتة فكلمنا تختفى "سميرة" نعرف أن هناك شخصا لا تعرفه "سميرة" قد مات فى البلد. ولكن هذه هى الحساسية البورجوازية لدى "سميرة" التى نلتقى فيها معا، فعلى الرغم من كل الدروس التى لقيها على "سميرة" يبقى أهل القاهرة هم الجمهور الذى أراعيه دائما (ربما تضحكين أنت الآن يا صغيرتى من الدروس التى طالما استمعت إليها) وأنصت له وأنجرح من كلماته وأحصى أنفاسه، ولم يتغير الأمر فى برلين كثيرا فقد غادرت القاهرة ولكنها لم تغادرنى. يمتد التواصل بينى وبين "سميرة" فى نفورنا من النساء الشرسات العدوانيات، والقاهرة تموج بهن. هؤلاء النساء اللواتى يكرهن الأخريات "غير المناضلات" اللواتى يلقين بالا إلى مظهرهن، فيضعن أحمر شفاه أو يطلين أظافرهن على استحياء أو يبيدين سعادة ما، هؤلاء (أى نحن) نساء خائفات "غير ملتزمات"، والأمر بالطبع لا يتعدى كوننا لسنا جزءا من شلال قاهرية بعينها ادعت لنفسها الوصاية وملكية أعلى طبقة صوت وأشد أشكال العدوانية. أنفر أنا من هؤلاء النساء وأشعر بالرثاء من أجلهن، أما "سميرة" فترتعد من رؤيتهن. الخوف من أهل القاهرة يتحكم فى "سميرة". فى ذات مرة قالت إن واحدة منهن تذكرها بكاكوس، وعندما سألتها "عادة" بعينين

لامعتين عن معنى الكلمة، قالت "سميرة" بهدوء شديد: "إن الكاكوس هو حيوان خرافي في الأساطير الإغريقية له خلقة بشعة وعينان مشقوقتان بالطول وفم يخرج لهبا"، حتى اليوم مازالت هذه الكلمة تضحكننا وأصبحت تختزل الكثير من الكلام.

لكنني ألتقى أيضاً مع "سميرة" في كل التصرفات الصببانية التي تجعلنا نتخلى مؤقتاً عن وقار القاهرة وعن حرفية قوانينها. فندخل مثلاً إلى حمام المكان العام الذي نجلس فيه لنرقص أمام المرأة على موسيقى وهمية، تفاجئنا "تهى" ونقول: "العيال اتجننت" فترد "سمر": "هو فيه أحلى من الجنان"، أو مثلاً أقول ما لا يجب قوله أمام شخص فنقرصني "سميرة" في ركبتي لأغير مجرى الحديث فوراً. ورغم كل خفة ظل "سميرة" تبقى ألامها محفورة في ذاكرتها منذ أن صدقت مثالية زوجها الأول وتلقّت طعنات أقرب الصديقات.

أما أنت يا "روضة" فحكايك بلا بداية ولا نهاية تماماً مثلنا كلنا، لم نعرف متى بدأنا ومتى سننتهي. كل ما نملكه حكي عن بدايات كثيرة ووهم نهايات أكثر. كل ما عرفه عنك الآن هو قدرتك الموهولة على تكوين ثروة عظيمة في أقصر مدة ممكنة. عرفتك وأنت فقيرة تماماً، في الابتسامة والكلام والأكل والشرب والصوت والوجود والتعبير، ثم بدون أية مقدمات تحول

هذا الفقر المدقع إلى تلال من الثروة، رغم كل التوقعات التي خيبتها لك
والتي لم ألتزم بها لأنها كادت تخنقني. كان لديك موديل في رأسك تريد
رؤيته متحققاً في، وبمجرد إدراكى لهذا بدأ الغيظ يفتك بي. احتججت وقتاً
للتنازلي عن هذه الموديلات وتقبليني كما أنا. فقط بقيت لنا مشكلة واحدة لم
نحلها: رغبتك المتقدة في إظهار مشاعرك التي تساوى تماماً قدرتي العظيمة
على إخفائها... وما بين الإعلان والإخفاء ننسج كل أشكال التواطؤ.

ذاكرة طالبة صامتة

"روضة" طالبة. تعرفت عليها وهى لاتزال طالبة صامتة مذعورة. الخوف كان يسبقك دائما ويقدم لك، كنت تفسحين له كل المجال وتتأزلين له عن كل الهواء ليتربع على عرش كل تفصيلة تأتين بها. الصمت هو مسكنك حتى يخال من أمامك أنك فى شدة الغباء لكونك لا تفهمين حرفا أو أنك مثلا خرساء لم تواجهي الأبجدية بعد. طالبة صغيرة مذعورة تحفظ عن ظهر قلب روايات "إيزابيلا الليندى" وأشعار "محمود درويش" ولا تمل من إعادة مشاهدة أفلام بعينها. طالبة صامتة مذعورة ترفض الأكل وتتأخر أن المسئول الذى يجيب على الهاتف فى محل ماكدونالدز يعرفها ويحفظ طلبها. طالبة صامتة مذعورة ترتعد من أشباح وهمية وتسميها "حرامى"، وأى صوت فى أى مكان كفى أن ينتزع من صوتك صرخة مشفوعة بكلمة "حرامى". صامتة مذعورة تعيش العالم كله فى بضعة كتب وترتعد من المصعد والطائرة وتهول على السلام لأنها تسمع أصواتا وترى وجوها. طالبة تذهب كل يوم للجامعة التى التحقت بها بحى ٦ أكتوبر وتعود بدون أية بشائنة على وجهها وبدون أية حكايات عن زملاء حاولوا التودد لها. طالبة صامتة مذعورة تنام فى أى وقت وغالبا لا تأكل فى أى وقت، وترتدى قمصانا قصيرة ثلاثم طفلة فى السادسة من عمرها. طالبة صامتة

مذعورة تنظر لك وكأنك المسئول عن صمتها. لا تغادر شاشة الإنترنت وتحدث مع شخص لا تعرفه في أمريكا وتناقش مشاكله وكأنها تعيش معه. طالبة صامتة مذعورة تؤمن أن المقهى الأوحـد هو ذاك الكائن بمدينة نصر، فتبحث كل أسبوع عن شخص يصحبها لهنـاك ثم يعيدها إلى المنزل في المهندسين. طالبة صامتة مذعورة تتنازع مع أمها على المكان في حياة الأب، ليبقى هو الرجل الأوحـد المتنازع عليه. طالبة صامتة مذعورة تصيبها حالة من التوحش البرى في مواجهة أمها وتحكى حكايات كثيرة تظهر فيها على شكل ضحية. طالبة صامتة مذعورة تتادى كل صديقاتي: "طنط" وكل أصدقائي: "أنكل" وتتوهم أن لا أحد يحبها. كان ذلك عندما نقلت منطقة النزاع - الطالبة الصامتة المذعورة - من أمام أمها لتضعها بأكملها في مجالى.

ذاكرة الانتظار

وصلت برلين فى بداية شهر أكتوبر، وكان السؤال الذى يلزمنى "متى يسقط الثلج؟" تأتىنى الإجابة مشفوعة بضحكة ونظرة شفقة: "لا تتعجل، كله أنت". لا غضاضة، أتيت من بلاد حارة وأشتاق للبرودة، ثم إننى لم أر الثلج فى حياتى إلا فى الثلجة أو فى أكواب المياه على شكل مكعبات. فى الشهر التالى دعى "عماد" إلى ألمانيا ليشارك ببحث فى مؤتمر عن الفرنسى "جاك لاكان" عقد فى ميونيخ، وبعدها قام بزيارتى فى برلين، وبعد أن أمطرته بالقبلات والأحضان تأملته ولم أتمالك نفسى من الضحك، فقد كان يرتدى كما هائلا من الملابس بالإضافة إلى المعطف الذى كان حريصا عليه أكثر من نفسه لاعتقاده أنه مرصود للمراقبة، فقلت له وأنا أضحك: "إيه اللي انت عامله فى نفسك ده؟" أجاب بسرعة البديهة المعروفة عنه: "إيه البلد اللي انت عايشة فيها دى؟" .. "أصل إنت صعيدى طالع من الفرن طازة"، استمر تراشق القفشات وأصررت على موقفى: "البرد أحسن من الحر ستين مرة، يارب الثلج بييجى". ظللت أتمنى وأتمنى حتى استيقظت يوما وهممت بفتح النافذة فوقعت عيناي على مشهد تجمد له الدم فى عروقى... البياض يلف الكون كله. تراجع فزعة إلى الخلف، فلم أستوعب مباشرة ما حدث، ولم أحب ذاك اللون الأبيض الذى يلغى الاختلاف تماما، ألم يكن هذا هو رعبى من القاهرة، مساحة الاختلاف التى تضيق يوما بعد يوم؟ انتظاراى عموما تنتهى بخيبة أمل، ومباشرة بدأت أنتظر انقشاع الثلج.

صباح كل يوم فى برلين أضغط على زر تشغيل الكمبيوتر وانتظر بلهفة
اية رسالة، أقرأ كل الرسائل حتى تلك التى تتضمن إعلانات أو إغراء
اشتراك فى موقع ما. أتابع الأخبار بدقة وعناية، أقرأ الخبر بأكمله، أنتبه
لأخبار ما كنت سألتفت إليها فى القاهرة، أنقر على الشاشة على قرار
١٥٥٩* وأتابع حملة حزب الله ضد القرار، بعض الأخبار أبحث عنها على
مواقع عربية وإنجليزية وأمريكية وأقارن، وانتظر المزيد. أنتظر اية كلمة
من "مصطفى" فيرسل إلى قصيدة، أنتظر أن أسمع من "سمر" عن حالة
والدها الذى تركته راقدا بالمستشفى، أنتظر ظهورك يا صغيرتى على الشات
الذى تعلمته مؤخرا، وأنتظر ظهور "غادة"، أنتظر ردا على رسالة عتاب
وأنتظر جوابا لسؤال وأنتظر... هل هو انتظار العودة؟ أم انتظار الغربة؟
"لا غربة دون حلم بالعودة" هكذا كتب لى "مصطفى" ذات مرة... فى أيهما
أنا؟ انتظارات برلين مكتومة وحبلى بالشجن. شوارعها باردة ونظيفة للغاية
حتى إننى فشلت فى تحديد مكن روحها.

انتظارات القاهرة لاهثة وملاحقة وموقنة وخادعة وصاخبة. فى اغسطس ننتظر الشتاء وفى اول رمضان ننتظر العيد وفى فبراير نتسأل عن الربيع (هل بقى لدينا ربيع؟)، ننتظر دخول كتاب إلى المطبعة ثم ننتظر خروجه، ننتظر شيكا من مؤسسة حكومية نحلم أن نشترى به العالم، ننتظر صديقاً تأخر عن مواعده، ننتظر أن تفتح الإشارة، ننتظر انقشاع السحابة السوداء، ننتظر تصريحاً بئياً من الحكومة يدل على أنها تعرف عن وجودنا، ننتظر مكالمه لا تأتى أبداً، ننتظر رجلاً نحبه، ننتظر ورقة طلاق من رجل تواجد بصدفة طارئة فى حياتنا، ننتظر الأسبوع المقبل ليخف ضغط العمل، ننتظر عودة المسافرين، ننتظر شفاء مريض يحضر، ننتظر العام المقبل، ننتظر ما ننتظره دائماً وأبداً: لكنها القاهرة... كل شئ يحدث بها ولا شئ يحدث. لا أحد يمر من هنا. قاهرة لا تهدأ ولا يبطل مفعول الصخب بها، مدينة لا تغير شيئاً، قاهرة تمدنا بوهم يجعلنا نتعلق بها وننتظر، وعندما تتراكم السنوات نكتشف أننا لم نعلم سوى فن الانتظار وهذه كل مؤهلاتنا فى الحياة. برعنا فى فن الانتظار الذى لا يعلن عن نفسه مطلقاً.

يذهلنى "كمال" بقرته على الانتظار. هو الوحيد فىنا الذى ينتظر علناً، كل خلية فى جسده تقصح عن انتظار أبدى. وجهه يشبه الصخرة المصمتة، منحوت فيها - بالصدفة - عينان لوزيتان وأنف رومانى مستقيم وفم محايد لا يفتح كثيراً. رأسه شبه حليق مستعد لاستقبال أية فكرة تحوم. جسده متماسك ونحيف، خطواته مدربة فى أزقة القاهرة وميادينها. خطوة تخذع

بهذونها مثلما تخذع ملامحه الجامدة. ملامح يكفى أن يחדش سطحها
الأملس بطرف دبوس لينفجر بركان غضب غائم ومخيف وصامت، أو
بحار حب غائم ومخيف وصامت. فى غضبه لابد الاحتماء من الأمواج
الهادرة وفى الحب لابد الاحتماء من شظايا اللهب.

اتخذ "كمال" من الشعارات السياسية مظلة احتماء. أفلت من تعصب والده
الأزهري ليقع فى التعصب السياسى. لم تتبع روح "كمال" أية طائفة دينية
بل تبعت حلم تغيير العالم. بدأ حلمه بترتيب أشياء صغيرة مثل غرفته،
ولكن عندما ضاقت الغرفة بمحتوياتها وانهارت ذات ليلة الكتب فوق رأسه
وهو نائم، بدأ يحلم بتغيير البشر، وكانت نقطة البداية هى الشركة التى يعمل
بها كمحاسب ولكنه لم يجد سوى ضحكات سخرية. وعندما تملكه اليأس بدأ
يحلم بتطهير العالم من الشرور الصغيرة، كإرجاع حق أو علاج مريض،
وعندما لم تساعد إمكانياته قرر أن يستأصل من العالم الشرور الكبيرة
وعندها لم يجد موقع قدم لبصمة عدل بدأ يترنم بهزيمته ويبحث عن هيكل
جديد للعبادة. حاول "كمال" أن يغير كل شىء إلا نفسه التى لا تؤمن
بالاختلاف.

وهب نفسه للآخرين فإذا أراد صديقه اقتراض بعض المال استدعاه، وإذا
ارادت الأخرى أن تعالج الماس الكهربائى الذى التهم كل شىء فى شقتها

تستجد به. وعندما أردت أن أضع لوحة في إطار ملائم هاتفته. قرأ في الأدب الرومى والفرنسى والعربى، قرأ في السياسة والاقتصاد، فى كل مظاهرة وكل ندوة كان أول الحاضرين وآخر المغادرين، وفى عيد ميلاده الأربعين لم يكن لديه أية أمنية محددة سوى تغيير مقر عمله، فانتقل إلى شركة عقارية. قضى أربعين عاما يستمع للآخرين، حتى أصبح محط رحال الامهم ومآسيتهم وقصص وقوعهم فى الحب وخارج الحب، استمع إلى قصص غيرة نساء القاهرة وثبت كل فرحة فى صورة وكل إحساس فى كادر، كلما نجتمع لاحتفال ما نكون قد قضينا الكثير من الوقت لاختلاق سببه، يتواجد "كمال" مع الكاميرا. هل هو الخوف من هروب الحياة من بين أصابعه أم محاولته فى أن يكون هنا والآن؟ تدريجياً استبدل "كمال" بالحياة الصور وكلما كان يتردد إلى واقعه كان الأمر يختلط عليه، فينقضى الزمن خارجه وتبقى الصور داخله. كان يحلم أن يكون مصوراً ولكنه لم يصرح بحلمه أبداً.

فى "سارة" وجد "كمال" هيكلاً جديداً للعبادة، فاضت بحاره وانطلقت كل براكينه الحبسية معها. منحه هيكلها ألواناً جديدة لم يعهدها من قبل، وأصدقاء طبيين وبهجة متواصلة. وضع كل مدخراته فى ذاك الهيكل وفى حكايات "سارة" الفائضة عن احتياج العالم. لم يسمح لها بثغرة واحدة تنفس من خلالها. عندما أرادت أن تؤدى صلواتها وقف يراقب، وعندما ألقت بنفسها فى البحر تتلوى كالسمكة النقط لها الصور، وعندما كتبت خواطر

أصر على قراءتها. ضفر عقله وقلبه مع مشاكلها الصغيرة والكبيرة فلم تجد شيئاً تحله بنفسها، عادى اعداءها وصديق أصدقاءها، وأصر على الذهاب معها للمحكمة عندما يحين ميعاد مرافعة أو تقديم مستندات خاصة بقضية. ثبت كل لحظات فرحها وألمها بالصور. فى ستة أشهر النقط لها حوالى مائتى صورة واحتفظ بنسخة لنفسه. وحينما قررت أن تكسر الحصار وتعيش خارجه اختلط الحب مع الغضب وبذل ما فى وسعه ليحتفظ بصورتها كما هى، ليحفظ الصورة فى عقله كما قدماء المصريين. زاد من قوة حصاره حولها عبر أصدقاء وبشر يمرون فى الحياة فى شوارع القاهرة.. وآه يا قاهرة من كلامك وحكاياتك. لم تزد لها الحكايات إلا عناداً وإصراراً، كرهت حتى ذكرى العلاقة وكرهت شعورها بالذنب تجاه ننب لم تقتربه وكرهت أصدقاءها الذين لم يتوقفوا عن استجدائها، ولما أصررت لم يجدوا سوى الانصراف عنها - ولو مؤقتاً - لمدواة جرح "كمال". انصرفوا عنها وأحدثوا لها جروحاً مازالت باقية معها حتى اليوم. كلهم رفضوا علاقات واختاروا أخرى، كلهم دخلوا علاقات وخرجوا منها، لكنها عندما فعلت مثلهم لم يسمحوا لها، أقصوها واستبعدوها وقالوا لها "إنت قوية، لكن "كمال" حساس زى ما إنت عارفة". وأثبتت الأيام أن قوة "سارة" حملت صدقاً أكثر من ضعف "كمال" الماهر. كانت "سارة" تقول لى دائماً "مشكلتى إنى باعمل كل حاجة فى العلن، بجد مش باعرف خالص أعمل حاجات فى السر، أى حياة سرية بتكتم على نفسى. دول بيتعاملوا معايا كأنى قتلت لهم قتيل. سهراتهم بالليل تطلع على الصبح".

ما زالت "سارة" تحكى حتى اليوم عما فعلته معها "سمر". وما زال "كمال" حتى اليوم يحاول أن يستنطق الصور ليَجدها خرساء. حاول أن يلتقط فيلماً آخر فجاء محروقاً. ما زال يجوب الشوارع والأزقة فى القاهرة. ما زال وجهه المنحوت يوحى بالنقّة. ما زال يبحث عن المرأة التى لانتشبهه. ما زال يمسك حلم تغيير العالم فى يد وهزيمته فى اليد الأخرى. ما زال كل شىء كما هو عدا القسوة التى أصبحت ملاذه.

ليس "كمال" وحده هو الذى ينتظر من القاهرة عصاها السحرية. ربما كلنا ننتظر "مصطفى" أحياناً لكى نحكى له عما فعله بنا الآخرون الأشرار، فيذكرنا بالموعظة التى ألقاها علينا فى البروفة السابقة، ويؤنبنا أننا خالفناها وسمحنا لحدودنا أن تفتح قليلاً. عندها نشعر بالنقص أمام تعالىه عن تلك الصغائر، وعندما نراودنا بعض المشاعر ونبكى، يهتز شاربهُ قليلاً ويندهش أننا لم نتجاوز بعد كل هذه الحماقات المتخيلة. يقول إنه خبر كل الحماقات، وعرف كل الأماكن، وعشق كل النساء (الطيبات)، إنه بدأ وانتهى من قبل أن نبدا نحن. يقول إنه كان مناضلاً ومغرمًا بالمقاهى. يقول إنه خاض معارك فكرية، يقول إن جميعهم يحمل له التقدير والإعجاب، يقول كل هذا وهو يحاول أن يستيقظ، فنشعر بضآلتنا فى مواجهته، ونفكر فى الانسحاب من المسرحية. نحن الذين لم نصل إلى خبرته نشعر بالصغر أمام من يتشبه بـ"تايرزياس": "فهمت المنظر، وخدمت بقيته".

ليست صدفة أن يكون عالم "مصطفى" فى أعلى طابق بالبنية، وكأنه أمير يطل على الشارع من أعلى، وعندما يطل لا يرى سوى النيل. ولذلك فإنه عندما يطل علينا لا يرانا رغم أن القياس الهندسى يؤكد أننا فى مستوى نظره. عالم خادع لا يتسع إلا له وحده، يشبه السراب الذى يلمع ويوهم الناظر أنه رحب يسع الجميع. عالم متطابق مع حدود وجهه. عالم حكمة متعالية، تلقى متاعبنا خارج الحدود لتتألف فى هدوء دون أن نبذل أى مجهود. ظل "مصطفى" يتعالى علينا وعلى كل ما نقوم به لنعبر عن آرائنا أو لنحصل على قروش قليلة نعيش منها حتى جاء اليوم الذى اضطر فيه أن يفعل مثلنا جميعاً ويعمل رغماً عنه.

نخبئ انتظارنا فى أعماق وأضعف منطقة داخلنا. لكننا بالطبع نؤكد دائماً أننا لا ننتظر لأننا نفهم لعبة القاهرة. ونحن أيضاً مثل كل أهل القاهرة نكذب. إلا أن الانتظار - انتظار شيء ما - هو الذى يحفزنا إلى مغادرة السرير صباحاً رغم مطارق الصداق التى تدق الرأس والام الظهر المستمرة لناخذ نفس المسار إلى الحمام حيث نتأمل وجوهنا فى المرأة ونتجاهل الانتفاخ الواضح تحت العينين ونقول فى نفس اللحظة الصباحية: "النهارده لازم أنا بدري"، ثم نفتح دولاى الملابس ونقف أمامه كالبلهاء، وكان شخصاً آخر هو الذى ابتاع هذه الملابس. نبذل مجهوداً لنرتدى ما يصلح لسياقات اليوم

المختلفة، فالقاهرة سياقاتها عديدة، تبدأ بالسيدة "نفيسة" ولا تنتهى بالمشاركة فى مظاهرة.

نذهب إلى العمل وننتظر بلهفة ميعاد المغادرة، وفيما بينهما نتحسس الهاتف المحمول. يحمله "كمال" فى يده كالسلاح المشهر فى وجه العالم، نتحسسه "غادة" وتربت عليه وكأنه رجلها المدلل، تضع "سمر" جرسه على أعلى صوت لتسمعه فى أى مكان، وألقى أنا صوته وأضعه فى جيب الجونلة الجينز فأشعر بذبذباته دائما، أما "مصطفى" فيبحث عنه دائما بين الوسائد والكتب الملقاة على الأرض. نهاتف ونسال: "هه إيه الأخبار؟"

قبل أن أغادر إلى برلين تقلصت طموحات الانتظار لدى، فقط كنت أنتظر أن أغادر إلى برلين، وعندما وصلت مطار القاهرة كنت أنتظر أن تغادروا جميعا، لم أكن مستعدة لكل تلك العواطف، وعندما غادرتم جلست أنتظر الطائرة، وعندما صعدت على متن الطائرة انتظرت الوصول إلى بودابست، وفى بودابست انتظرت ميعاد إقلاع الطائرة إلى برلين، وفى برلين انتظرت حقيبتى، ثم انتظرت "لورا" التى ستوصلنى إلى الحجرة التى استأجرتها لى، وفى الحجرة ارتيمت على السرير لأنام وعندما استيقظت بدأت أنتظر اتصالات القاهرة.

ذات ليلة جاءت "عادة" مثالقة فسألتها: "إيه؟ حصل حاجة جديدة؟" أجابت:
'جاءتني مكالمة كنت أنتظرها منذ سنة!'! القاهرة... فن الانتظار...

ذاكرة السرقة

الهاتف المحمول هو موضوع الساعة فى القاهرة، القاهرة نفسها تحولت إلى أكبر هاتف محمول، تدور المشاكل حول تلك "الرنات" التى نلقاها أو الرسائل القصيرة التى ترفعنا كالملوك أو تهزمنا ليتلون وجهنا بالحزن والارتباك. رسائل تحمل إعلانات ونكاتاً ونميمة، اعتذار عن ميعاد، تبرير لتأخير، أو تنبيه بسرعة دفع الفاتورة. أثبت المحمول قدرات خارقة وأصبحنا نحن القاهريين نتصرف وكأننا ولدنا به ولذلك أنظر لعم "أحمد"، صديقى المسن المكتئب دائماً، بحسد لأنه رفض إدخال المحمول إلى حياته. كلما أزوره يقول لى "اكتمى البتاع ده بقى". تضاعل وجود التليفون المنزلى وتضاعف حجم الفواتير، وأصبحنا نخرج إلى العالم فى الصباح ونحن نحمل المحمول كما لو كنا نحمل حياتنا. وهذا يعنى أنه عندما يسرق المحمول - وهى سرقة أصبحت شائعة فى القاهرة - فإن حياتنا تسرق. كلما كنت أسمع عن سرقة مماثلة أعتبر أنها لا تخصنى، لست أنا من يسرق منها المحمول. ولكن لا شئ كبير على القاهرة الجبارة. أعادت لى تلك السرقة ذاكرة أول سرقة مررت بها.

لا أذكر كم كان عمري آنذاك، السابعة أو الثامنة. كان طموحى هو صدور مجلة ميكى يوم الخميس التى كنت أعيش مع أبطالها فى صحوى

ومنامى، كنت أجد "كوكا" ممتلئة وأتطلع إلى "ميمى" باعتبارها أجمل امرأة (أدركت فيما بعد أنها ليست سوى فارة واعتبرت الأمر خيانة شخصية). لسبب ما لم يأت بائع الصحف يوم الخميس ويبدو أن هستريا ما أصابتنى مما جعل أمى تسمح لى بالنزول إلى الشارع لأبحث عن البائع فى البناية المجاورة، ولما لم أجد له أثراً توجهت إلى البناية التالية ثم التالية ثم التالية، وعندما أوشكت على فقدان الأمل بدأت أبكى حزناً على ميكى الذى غاب عني خوفاً من أمى التى حتما ستعاقبنى لأننى لم ألزم ببناية واحدة. اقترب منى رجل وأمسك كفى يدي برفق وسألنى: "مالك يا أميرة؟" ازداد بكائى لأننى لم أجرو أن أنزع يدي من كفه، ثم قال: "لا لأ كده الأنسيال الحلو ده هيقع منك، بصى إنت تقلعيه كده"، وخلعه من يدي ثم لفه فى ورقة منزوعة من جريدة وقال "هاسيله لك معايا علشان ما يضعش"، وافقت على الفور لأنها كانت الفرصة الوحيدة أمامى لانتزاع كفى وعدت جرياً إلى المنزل وأخبرت أمى بكل ما حدث. بعدها لم أفهم لماذا بدأت أمى تؤنبنى ولماذا أخذ الرجل الأنسيال، كنت مصرة على شئ واحد: "عايزة ميكى دلوقت"، وعندما انفلتت أمى: "بلا ميكى بلا زفت" شعرت أن الإهانة موجهة إلى فى الصميم. لم يتوقف بكائى ولم يتوقف تأنيب أمى الذى كان يدور حول "بلاهتى" و"غباوتى"، هكذا فقدت فى خبطة واحدة مجلة ميكى والأنسيال وموافقة أمى على وجودى.

ظلت أمى تؤنبنى سنوات لفقدانى الأنسيال، ورغم التأنيب لم أتعلم أبداً. بل ازددت براعة فى فن فقدان، جاءت حياتى تمارين على الفقد.. حتى برعت فيه، براعة لم تنافس براعتى فى فن الانتظار. ولأكافئ نفسى على هذه القدرة الرائعة كتبت على حائط غرفتى "ليس من الصعب تعلم فن فقدان". ولذلك عندما فقدت الهاتف المحمول كنت سعيدة ولكننى أثرت الكتمان. فقد أدركت أننى أنهيت مرحلة ما من حياة فى مكان ما. انزعج الجميع من هذا الفقد إلا أنا. كنت أعرف أن شيئاً كبيراً على وشك الحدوث. وبالفعل بعد أسبوعين فقط من الإقامة فى بيت توهمت أننى ساصنع فيه أسرة تشبه أسرة كتب الأطفال المصورة، غادرت بدون رجعة، فقدت أشياء كثيرة وأشخاص أكثر - كان لابد أن أفقدهم أو أسقطهم - بسبب هذه المغادرة. وما زالت واقعة فقدان الأنسيال تعاودنى فى مواقف عديدة، فقط كنت أريد ميكى. كلما تحضرنى دموع العجز والقهر التى تساقطت منى أرتبك، أتذكر تلك الواقعة. وعندما توقفت فعلياً ميكى عن الصدور منذ عامين - رغم أننى أنا أيضاً كنت قد توقفت عن شرائها - فى ذاك اليوم جمعت الدموع فى عينى ورمقتى "شريف" بائع الصحف بنظرة غريبة.

تطورت القاهرة بشكل مفاجئ، "زمان" كنا نسمع عن الحرامسى الذى سرق المجوهرات من منزل أحد الأثرياء أو النشال الذى استولى بخفة على محفظة الموظف "الغلبان"، أو "نجل" مجلة ميكى زعيم عصابة القناع الأسود التى كانت تسرق بنكا بأكمله فى صفحة واحدة. أصبح الآن كل شىء

مباحا للسرقة فى القاهرة، وبعيدا عن تلك الأشياء المملة من كثرة حدوثها مثل سرقة الآثار والبنوك وطعام المساجين ومواد البناء وكابلات الكهرباء، أصبحنا نحن أنفسنا موضوع السرقة، نحن - كاشخاص نمشى فى شوارع القاهرة- نسرق فى كل لحظة، شاشات تليفزيونية تبث كلاما مبهما عن تغيير ما وإصلاح ما فيسرقون عقلى الذى ينشغل بالتفكير فى أمور لن يراها. نطالعنى آلاف التوقيعات المطالبة بالتغيير فطالعنا الصحف بعدم دستورية التعديل، نطالعنى مسلسلات التليفزيون بنهايات سعيدة، يطلعنى عم "سيد" صاحب كشك السجائر بشارع قصر النيل بابتسامة واسعة افتقدتها بشدة عندما قرر الرحيل عن عالمنا، يطلعنى رجال ملتحمون بحديث عن الفضيلة ووجوب تغطية لحم النساء، نطالعنى امرأة ترتدى فى أحضانى ثم تسرد ما لذ وطاب من الكلام، نطالعنى أخرى بتتظير عن حقوق الإنسان المنتهكة ثم لا تتورع عن انتهاك مشاعر من حولها. سرقات قاهرة تحدث بنعومة وسلاسة حتى نكاد نقول لها: "اسرقينا كمان".

لكن أكثر السرقات أناقة هى تلك التى يقوم بها رجال أنيقون أيضا. عرفت عددا من هؤلاء، كان آخرهم واحداً أراد أن يسرق عقلى وأفكارى والهواء الذى أتنفسه، وعندما فشل تساقطت أفنعتة الواحد تلو الآخر ليكشف عن وجهه ويتحول إلى المثال النموذجى للقبح. كان أكثر ما يزعجنى فيه هو تمسحه بالحياة، لم أكن أنزعج منه هو بشكل شخصى بقدر ما كنت

أحزن من أجل الحياة نفسها. ربما كان صوته العالى هو ما يزعجنى أو ربما أنانيته الطفولية أو ربما هى رغبته الشديدة فى أن ينبه من حوله أوجوده... اعتقد أننى أنزعج الآن من مشاهد علاقتى به. كانت "سمر" دائماً ما تردد: "أصل ما عندوش خبرة بأى حاجة"، هى الفلسفة عندما تتلبسها، أما "عادة" فقد منعتها عدة مرات من الفتك به. كالمعتاد يدفعنى "مصطفى" ببروده إلى الجنون: "عادى كنت متوقعة إيه؟" ظلت "تهى" فترة طويلة تنظر إليه ثم تسائل كائنات لا نراها: "معقولة فيه بنى آدم بالشكل ده؟" ... وحتى هذا اليوم لا زالت "جميلة" تكرر: "طفل.. طفل.. طفل"، أما أنا فكلما أتذكره أتأكد أنه أبرع سارق تعثر به. على الأقل لديه موهبة. لن أنسى له أنه ساعدنى على تسديد كل الديون المتراكمة المتأخرة، التى نظن أنها سقطت بالتقادم.

أما "مصطفى" النائم، الذى كان يهز رأسه أمام المهازل التى أحكيها فقد فقدنا واحداً تلو الآخر. البعض شعر بالملل من الانتظار، وقلة باقية أبدت تجاهه اللامبالاة. لم يشعر بالياس، وبدأ يحاول بعث الحياة فى قوة تأثيره على الآخرين. الأذكى لم يستجيبوا لأنهم عرفوا أنه سيلقى بهم على قارعة الطريق فى أية لحظة، أما المخدوعون المتعبون فقد وجدوا لديه قدرة هائلة على الاستماع لألامهم وأحزانهم - التى كانت كثيرة بدون مبرر - أفرغوا كل ما بصدورهم لديه، وهو يؤكد لهم مع كل شكوى أنه الصديق الأول والأخير. وفى اللحظات القليلة التى ظهرت لهم فى النوايا النائمة فقد أدركوا

انه لا تراجع لأنهم تورطوا معه عبر الإدلاء بكل الممنوع، بكل لحظات ضعفهم، واللحظات التي كرهوا انفسهم فيها. لكنهم لم يدركوا أن "مصطفى" لم يحك لهم شيئاً عن نفسه - تلك النفس المصقولة اللامعة وكأنها جاءت من فراغ كبير شفاف - لكنه لا يشف عن أى شيء مضىء. هل نَعْمَدُ الا بحكى أم هم نسوا ان يسألوه؟ كلما أسأله: "عامل إيه يا سى مصطفى؟" يجيب: "زى الفل الأبيض. عمرك شفتينى غير كده؟" وقع الجميع تحت تأثير لغة "مصطفى"، وبعد فترة قصيرة من احتضان هؤلاء المعذبين فى الحب بدا الملل ينتاب "مصطفى"، فالحكى غدا متشابها وحتى الأغبياء يصعب أحيانا إقناعهم بكل مفردات اللغة.

عندما كان من حوله يخالفون قواعده كان ينعتهم بالغباء، أو قلة الخبرة، أو يقول إنهم مزعجون أو تافهون. كان يرى أن صديقاته يخترن أسوأ الرجال، كان دائما ما يشير إلى "سارة" ويقول: "هبله والله بيضحكوا عليك". ينظر إلى أصدقائه ويؤكد أنهم يعانون حالة مستعصية من السذاجة العاطفية، لكنه لم ينس أبداً أن بشيد بعظمة بعض الكتاب الذين نجح أن يعقد معهم صداقة، كتاب كانوا يعتبرون المعارضة سذاجة والمظاهرات سمة من سمات التخلف الحضارى. سقطت أوراق التوت واحدة تلو الأخرى حتى قابلته بالصدفة فى الشارع وأعجبني قصر النظر العظيم الذى أتمتع به. لم يعرف "مصطفى" أبداً أن الاستماع أحيانا ما يتحول ضد المستمع، لم يدرك أن بعض البشر لا يغفرون كشف الضعف أمام الآخر، ربما أدرك هذا عندما

تحوّلت ملامح "كمال" من الامتنان إلى الغل. أما أنا فلم أدرك أن "مصطفى"
مصاب بالاكْتئاب المزمن إلا مؤخراً.

ذاكرة الصوت

لم أفهم حتى اليوم لماذا سرقنى، ليس الوحيد على أية حال. تماماً كما لم أفهم فى طفولتى ما الذى يتوجب على أن أفعله عندما أسمع صوت الغارة، كنت أقف كالتائهة فى فناء المدرسة حتى تجذبنى يد قوية إلى مكان مظلم. كما لم أفهم كيف يبدو "الإسرائيلي"، ولم أفهم كيف تحولت زجاجة الكوكاكولا إلى علبة صفيح يسمونها "كانز" يحولها المصريون إلى كنز أو كنزى. كما لم أفهم أمى ولم أفهم "كمال" ولم أفهم "مصطفى". لازمى عدم الفهم فى برلين. بمجرد وصولى لم أفهم ذاك الهدوء المتحفظ، فقد جئت من بلاد صاخبة، أصوات أهلها عالية وقوية، لا يهمنى أن نستمع بقدر ما نقاتل لكى نتكلم، وتاماماً فى منتصف الجملة يقول لنا الشخص الذى نحاول أن ندفعه إلى الاستماع إلينا: "مش قصدى أقاطعك بس عايز أقول لك رأيى". دائماً ما يحبطنى كل من لا يتقنون فن الاستماع. الاستماع فن صعب.

فى آخر أيامى فى القاهرة تدهورت درجة احتمالى، فقد كانت كلمة "مؤتمر" أو "ورشة" - رغم أن الشخص يتكلم فينا لكنها أفة الترجمة الحرفية - تنتزع منى ابتسامة قاهرية مقهورة عاجزة عن التعليق. حاصرته إحدى هذه الورش قبل أن أغادر وكان لابد أن أذهب حفاظاً على صورة

يشكلها لنا الآخرون ونتورط نحن فى الحفاظ عليها. ارتديت ملابسى بتكاسل وغادرت المنزل مرغمة ووضعيت نفسى أمام مقود السيارة وأنا أفكر فى حقبة السفر التى لم اضع فيها أى شىء بعد. وصلت شارع "عبد الخالق ثروت" حيث نقابة الصحفيين، وبظرة سريعة مدربة على شوارع القاهرة أدركت أنه لا يوجد مكان لترك السيارة، تقدمت قليلاً ثم اضطررت أن أنحرف يمينا فى شارع "طلعت حرب"، وصلت إلى نهايته فلم أجد مكانا واحداً، حتى وجدت نفسى أمام جراج شارع قصر النيل. وبذلك سرت من قصر النيل حتى عبد الخالق ثروت. لست أدري ما الذى جعلنى أتجاوز نقابة الصحفيين لأدخل نقابة المحامين. ثم... وبمنتهى البساطة خرجت من هذه لأدخل تلك. المسافة بسيطة على أية حال. عندما دخلت المبنى كدت أفقد توازنى لأن قدمى انزلقت على الرخام المصقول. نظرات فضول من الآخرين... أنتظر المصعد... أنا المدربة على فن الانتظار. المفترض أن تبدأ الورشة فى السادسة ولسبب غير معلوم لم تبدأ إلا فى السابعة والنصف. جلست أستمع إلى أهمية المجتمع المدنى والشفافية والتنسيق والتدريب والتشبيك... كنت أعرف معظم الحاضرين والحاضرات، أعرف من يهاند ومن يقايض ومن يواجه بشدة غير عابئ بما يقال وبما سوف يقال عنه. رحمك الله يا "زينب" عندما اتصلت بى من أسوان وسألتنى: "هو يعنى إيه التشبيك ده؟ يعنى نقعد ونتعرف على بعض؟" وكان لديك كل الحق

فى السؤال. إذا كنا لا نشتبك مع أنفسنا ولا نعرفها فكيف بنا مع الآخر الذى لا نستمع له؟

سرحت وبدأت أجول بنظري فى الحضور ومن بعيد لمحت "كريمة المرشدى" مستغرقة فى حوار مع أخرى لا يبدو أنها مصرية. "كريمة" نموذج متكرر، عرفتُها فى فترة من حياتى ونجحت أن تستدعى أسوأ ما فى، فكرت نفسى معها وكرهتها أيضاً. كل حياتها تدور باللغة الفرنسية والإنجليزية، قلما تتكلم العربية، تستخدمها عندما تحتاج إلى ألفاظ بذيئة فقط. وبين كل ضحكة وضحكة تحشر ضحكة أخرى بصوت عال وبذى، فى محاولة للدفاع عن نفسها ضد العالم بأكمله. ضحكاتها مستفزة ولا تنقل عبر الأثير سوى كم من الغل والعوانية والكرهية. كرست فترة من حياتها لمناهضة الختان على الورق فى أبحاث ومحاضرات باللغة الإنجليزية، وأنجزت كتاباً على ورق مصقول ولامع تكلفت طباعته عدة آلاف، وحمل غلافه صورة فلاحه تضع على رأسها طرحة سوداء مكتوب أسفلها باللغة الإنجليزية "لا تقتلوني". تقضى "كريمة" معظم السنة فى الخارج وكلما تعود تلقى بأفكار جديدة لمناهضة الختان، أفكار تبهر السامعين ويسيل لها لعاب بعض الممولين. أدير وجهى لأنفص "كريمة" عن رأسى.

الكلام ينهمر على رأسى كالمطارق حتى لمحت "سارة" تجلس أمامى، أرسلت لها رسالة من كلمة واحدة على هاتفها المحمول "للا؟" وبدون كلمة واحدة قامت من مكانها والتقىنا خارج القاعة، وبدون أى تعليق غادرنا النقابة معاً. وكان عدوى التجهم انتقلت لى. لست أدري لماذا يتحول التجهم مع قليل من العبوس والكثير من العدوانية والأبوية والقدرة الفائقة على تصنيف البشر وتقييمهم والمبادرة إلى تلذيبهم أحياناً إلى صفات ملازمة لكل من يدافع عن حقوق الإنسان. كنت وأنا بينهم أشعر بالذنب عندما أضحك أو أبدى البهجة أو حتى أبدا علاقة ما، ورغم أنهم جميعاً ينادون بالحقوق ويضحون من أجلها إلا أنهم لا يترددون فى انتهاك حق الآخر طالما أنه لا يؤكد انتماءه للجيتو. فهذه غيبة وتلك نافهة والأخرى انتهازية، وبعد أشهر أو أعوام أجد المغضوب عليهم قد أصبح جزءاً من الجيتو. كم سمعت محاضرات عن الشفافية وكما اكتشفت أحوالاً خلف الشفافية. وحتى اليوم لم أفهم كيف تعقد التحالفات ومتى يلتئم الشمل؟ من الصديق ومن اللاصديق؟ من المرضى عليه ومن المغضوب عليه؟ متى يظهر الود ومتى تكسر العدوانية عن أنيابها؟ أين يجب أن يقف من يريد اليسار؟ كلما يقف يجد نفسه متحالفاً مع اليمين، لأن اليسار خذله أو طرده أو رفضه أو وصمه. أسأل "سارة": "هى الكأبة والعدوانية دى سببها إيه يا سارة؟ مالهم مبوزين كلهم؟"، تتنهد وتقول "يعنى يا عيشة عايزاهم يرقصوا وهما بيوتقوا التعذيب. وبعدين ما تنسيش إن اليسار كله أحزان وهزايمه مش هينة. ده كفاية

الخناقات والحسابات الشنيعة التي بين التيارات المختلفة". أصمت، ربما
سارة على حق.

القاهرة مدينة الكلام. وأهل القاهرة لا يملون الكلام، كلام قديم يشبه
قطعة الخبز التي نسيناها في ركن مطبخ ليس نظيفاً تماماً فظهرت على
وجهها بقع خضراء. غادرت القاهرة وحبوب الأسبرين لا تكفيني. وعندما
هبطت بي الطائرة في مطار تيجل ببرلين ولم أسمع صخباً ظللت أتلفت
حولى لأتأكد من وجود بشر. لماذا لا يصرخون مثلنا ويفقدون أعصابهم في
ثانية؟ لماذا لا أسمع كلمات نابية؟ هل هو حاجز اللغة أم هي ثقافة دخلتها
دون أن أستعد كما ينبغي؟ في برلين يتكلمون قليلاً ويعملون كثيراً. وأنا أريد
أن أتكلم. تمر على أيام وأنا صامتة، وعندما أسمع صوتي أرتعد. بعد أن
طال الصمت بدأت أحداث نفسي بصوت عال حتى احتفظ بنغم الكلام،
فأقول مثلاً: "يلاً بقي دلوقت ناكل" أو: "هه إيه الأخبار يا جميل؟" وفجأة
أتذكر تعليقاً ما فاضحك كأنني أسمعه للمرة الأولى وهكذا حتى أصبح
الصمت جزءاً من حياتي. أخرج، لأمشي ربما تتبخر الوحدة بالمشي. أحتار
هل أتجه يمينا أم يسارا. إذا اتجهت يمينا في شارع جرونفالد ووصلت حتى
نهايته حيث يتقاطع مع شارع هوبت ساجد بلداً كاملاً من الأتراك الذين
يبتسمون لي ويصرون على تبادل بضع كلمات معي اعتقاداً منهم أنني
تركية. شارع مليء بمحال البقالة التي تباع كل ما يمكن استيراده من تركيا.
شارع لغته كله تركية.

إذا اتجهت يساراً ساجد برلين الألمانية، مطاعم هندية مليئة بالألمان، محال تباع أحجار كريمة ونصف كريمة. مقاهى عديدة. يمينا أو يساراً لا يهم كثيراً مادمت أننى لن أتوقف أمام المنزل مباشرة حيث منزل الكاتب المسرحى "هنريش فون كلايست" الذى تحول إلى مدرسة للموسيقى والفن. بمجرد أن رأيت ذلك المنزل عندما وصلت برلين، وضعت اسم "كلايست" على الإنترنت لأعرف من هو. علمت أنه مات منتحراً، الفكرة تسبب لى ضيقاً وكآبة شديدة، فكنت أصل أمام المبنى وأبدأ فى المشى بشكل سريع لافت للنظر، ورغم كل الموسيقى الرائعة المنبعثة منه دائماً لم أجرو ولو مرة واحدة على الدخول.

كان ظهور "حنان" إعلاناً عن كسر الصمت قليلاً. التقينا أنا و"حنان" لنبدأ معاً من أول السطر، من الصفحة الأولى وكأنها بداية بعد نهاية. فبدأنا نتكلم عن الجليد الذى يكسو برلين وعن الملابس الملائمة لهذه البرودة الشديدة وعن النظرية النقدية وعن فلسطين والمقاومة وعن الزواج والأطفال والأفلام وفوائد الطماطم وكيفية طهى المبانخ. قضت "حنان" معظم حياتها فى أمريكا فكرهت أمريكا، حسها السياسى متقد فى كل لحظة ورغم أنها قد تتسى الأسماء العربية لبعض الأشياء إلا أنها مصرية حتى النخاع، تؤمن بالمقاومة وتؤمنى إن تهاونت فى حق أو تعاطفت مع باطل، لكننى أمنت من قبل بـ "حنان" وقاومت حتى لم أعد أرى ما الذى أقاومه

أو من الذى أقاومه، فبدأت أقاوم الانصهار والزيف والكذب والازدواجية وفساد الجو العام، كما يحلو لأحد أصدقائى أن يسميه، قاومت حتى تحولت إلى أضحوكة فى نظر البعض وسانجة فى نظر البعض الآخر ولنيمة لدى البعض فقررت أن أحفظ عقلى من الفساد وحملت حقبتى وغادرت.

غادرت القاهرة الأسرة ولم تغادرنى ولا زالت دموعى حبيسة لم تعلن عن نفسها حتى الآن. غادرت القاهرة الهادرة إلى مدينة كانت منشطرة إلى نصفين فى وقت ما ثم التحمت فى وقت آخر. مدينة لا زالت تحتفظ على الأسفلت بخط يحدد مكان الجدار الذى كان يفصل نصفها الشرقى عن نصفها الغربى. كلما أذهب إلى ميدان بوتسدامر أقف على ذلك الخط لأقلد تلك اللعبة التى كنا نلعبها ونحن أطفال. كنا نسير على خط وهمى مستقيم، كل واحد منا فى مواجهة الآخر ونردد على التوالى: "مصر.. سوريا.. مصر.. سوريا". لم أفهم مطلقاً ما الذى كان يجب أن نصل إليه فى النهاية ولذلك كانت اللعبة مملة قليلاً. فى سن متقدمة فهمت أن تأثير الوحدة بين البلدين كان مازال راسخاً، لكن هل كانت اللعبة حينئذٍ لتلك الوحدة أم تشفياً فى انتهائها؟ فى كل الأحوال قررنا أن الذى يضع الخطوة الأخيرة ويقول "مصر" لابد أن يكون قد كسب شيئاً ما. أول درس فى الشوفينية. الآن أسير على خط القسمة فى برلين فى وسط المدينة، وأرد "عبرت.. لم أعبر.. عبرت.. لم أعبر". ربما مازلت على الحدود. تقفز إلى ذهنى فكرة الباب الدوار، فى أول مرة شاهدته كانت المرة الأولى التى أذوق فيها لبنان

"ميكلس"، كان بضاعة مستوردة وقتها، اشترته لى أمى كمكافأة على شىء ما. تدفعنى أمى فى الباب وتقول: "يا بنتى مالك، ادخلى بللا". كيف يكون الباب مفتوحا ومغلقا فى نفس الوقت؟ الباب حاجز، فاصل، كيف يكون معبرا فى الوقت نفسه. لم أفهم فقد كانت أقصى الأحلام هى معجزة مسلسل "وليد ورندة فى الفضاء"، "وليد" و"رندة" وصلا إلى الفضاء على شاشة التلفزيون، وكنت أدعو سرا أن أحصل على سعادة "وليد" و"رندة".. الآن أقصى الأحلام هى العبور... عبور الحدود الفاصلة بين الواقع الذى حتما لا أراه والواقع الموجود، عبور الحدود بين ذات كانت لا واعية، نائمة، مغلقة، سانجة ونفس أخرى أجرت عملية ليزر فى عينيها فأصبحت ترى بوضوح مؤلم. كم مرة توهمت أننى عبرت، كم مرة رددت بمنتهى الثقة: "ما لا يكسرنى يقوينى"، كم مرة ظننت أنها صفحة جديدة واطر ينتظرنى، سرقات صغيرة تراكمت حتى صنعت سرقة كبيرة، ومازال سؤال "غادة" يتراقص فى أننى: "مين اللى سرق العمود؟"

ذاكرة الدهشة الاعتيادية

كنت اظن ان القاهرة فقط هي التى تمنحنا دهشة تثير الفزع الذى يتحول مع الوقت إلى اعتياد. ثم أدركت أن برلين لها وجه مماثل. اتصلت بـ "هافين" صديقتى الكردية - التى تحمل الجنسية الأسترالية لكنها عاشت فى تركيا - لم أرها منذ مدة طويلة ولم أعرف أنها انتقلت للعيش فى ألمانيا. منغمسة "هافين" حتى النخاع فى السياسة. قاتلت فى الجبال فى شمال العراق فترة طويلة ثم دخلت المكتب السياسى لحزب العمال الكردستانى حيث أثبتت جدارة فأصبحت المترجمة الأولى لـ "عبدالله عجلان". بعد إلقاء القبض عليه انتقلت إلى هولندا لتدعم فرع المنظمة هناك ثم استقرت فى شمال ألمانيا. كرست "هافين" حياتها لترى دولة كردية، وعندما أصبح للأكراد وجود فى شمال العراق كادت أن تضرب رأسها فى الحائط، كانت تهاتفنى وتقول: 'يحصلون على رؤسا مقابل مرور المخدرات'.

اتفقنا على ميعاد عند نقطة محددة فى محطة القطار ببرلين. وصلت مبكرة عن موعدى لأمنح نفسى فرصة تصفح الصحف والمجلات فى المكتبة التى تستقبل القادمين والمغادرين المتعجلين دائما، أحيانا فرحين وأحيانا متجهمين وغالبا مترقبين وفى أغلب الأحوال مسرعين. فى تلك المسافة الفاصلة بين المدخل الرئيسى للمحطة وبين المحطة تتراس محلات الأكل والعصير والقهوة والمخبوزات، كنت أهول تقريبا لأهرب من

الروائح المتداخلة حتى كدت أتعثر بكومة بشرية ملقاة على الأرض.. امرأة في حوالى الثلاثينيات ملقاة على الأرض لا يمكنها التحكم بجسدها ولا يمنعها من التمدد التام سوى ركبة العسكرى التى صنعت لها حاجزا تستند عليه، كلما يميل رأسها يسارع العسكرى إلى رفعها ويواصل كلامه مع زميله. توقفت عن السير تماماً وانتابنى شعور بالغثيان. أردت أن أستفسر عما يحدث لكن اللغة لم تسعفنى والوجوه أجبرتني على التراجع. كان الجميع منهمكاً فى الأكل والشرب، لم تحن التفاتة واحدة من أيهم، بل إن العابرين اعتبروني عثرة فى طريقهم، وكانوا شبه يدفعوننى. تخيلت هذا المشهد بكل تفاصيله فى محطة مصر ثم نظرت إليها وتمنيت أن تلتقى نظراتنا، لكنها لم تكن تنظر إلى. كان جفناها متدليين إلى الأسفل ومتورمين، تدور مقلتنا عينيها فى مكان آخر وزمان آخر. هل تضاهى وحدتى وحدتها أم أننى أبحث عن تضامن وهمى. اشتد شعورى بالغثيان ونخرت القسوة عظامى منافسة البرودة الشديدة. عندما التقيت صديقتى قضيت نصف ساعة أقص عليها ما حدث لأتغلب على رغبتى فى البكاء. استمعت لى باهتمام ظهر فى إيماءة منتظمة برأسها، ثم أخرجت لى جملة معلبة من رأسها: "إنها راسمالية الغرب. هذا هو ما يناضل ضده الرفيق عجلان".

القاهرة تفعل بى نفس الشيء. بدأت أتخيل أننى أجلس على مقهى فى وسط المدينة وأقول لمن حولى بمنتهى الثقة "إنها راسمالية القاهرة". فى طريقى المعتاد إلى الجامعة لابد أن أمر من أمام مبنى كنيب تعلوه لافتة تعلن عن نفسها بفخر شديد "مديرية أمن الجيزة". ولست أدري هل هو سوء حظى المعتاد أم عثرأتى التى لا تنتهى هى التى تجعل "الباشا" يدخل المبنى فى نفس اللحظة. الغريب فى الأمر أننى أذهب إلى الجامعة فى أوقات مختلفة طبقا للجدول، وهذا يعنى أن الباشا يذهب طبقا لمزاجه الخاص. فى كل مرة يهرول العسكرى - الذى يلعب حظه أيضا - ليقف كل السيارات المارة فى الشارع، ويبدو أن وجودنا فى الشارع هو ذنب اقترفناه لأن العسكرى يرمقنا بعدها بنظرات لا تخلو من اللوم. فى الفترة الزمنية الفاصلة بين دخول الباشا وتوقف السيارات فى الشارع يحدث الكثير. هناك دائما فى العالم بأسره هؤلاء النساء اللواتى تتحول حياتهن إلى نضال دائم بمفهوم خاص ومعايير مختلفة عن معايير النضال البطولى الذى عرفناه: أم تسعى لرؤية ابنها المحتجز فى تهمة نسل، أو زوجة تريد أن تتأكد من وصول الطعمية لزوجها بالداخل.. نساء يعرفن كيف يبدأن مشاجرة ومتى يجب أن تنتهى، يعرفن الأرصفة والأزقة فى القاهرة، يعرفن متى يرتفع الصوت ومتى ينخفض، نساء لا يتحدثن عن الكرامة الشخصية ولا عن الرؤية المستقبلية، نساء لا يرغبن سوى فى تحويل الحاضر إلى واقع حى وملمس ومعاش... يعرفن قواعد التعامل مع العساكر، الاسترحام أولا ثم الإلحاح ثم فقدان الأعصاب ثم الدعاء عليه ثم "إنت زى ابنى"، ربنا ما يوقعك فى

ضيقه، "ريح قلبي يا بنى"، "دانا ولية شقيانة وباجرى على ينامى". والعسكرى الذى يريد أن ينافس الضابط فى القسوة يتركها تسترحمه وتغريه بقدر ما فى جيبها "هاشوفك بالشاى والخان"، وعند اللحظة التى يوشك فيها العسكرى على القبول لأن قلبه رق بالفعل أو لأنه استرد بعض رجولته المهذرة دائما أمام الضابط الكبير، عند هذه اللحظة يقرر الباشا أن يصل المبنى. يدفعها العسكرى بعنف: "وسعى يا ست، ما تجيبيش لى الكلام". هنا تنهار كل جهودها ويتوجب عليها أن تبدأ من جديد. الماهرة هى التى تغافل العسكرى وتفلت من الحصار لترتمى عند قدمى الباشا: "والنبى يا باشا، أبوس رجلك يا باشا، جوزى يا باشا". الباشا الذى يرى فى سلوكها خرقا لهيبة النظام يرميها بنظرة استكار ويقول بحسم: "لمى نفسك ياولية بدل ما المك"، تعود المرأة محبطة وتتمتم بصوت مسموع لكل العساكر: "يورينى فيك يوم يا ظالم"، ومن باب التواطؤ يتظاهر العسكرى أنه لم يسمع شيئا ويبدأ فى مواساتها.

أصل إلى الإشارة التالية حيث تكون كلية الفنون التطبيقية على يمينى بجموع الطلبة التى تعبر الشارع وحديقة الأورمان على يسارى حيث يتهدى قلة من المحبين، أوشكوا على الانقراض، وهم يتلفتون حولهم بحذر خوفا من النظرات وتحسبا للنتائج. إشارة طويلة، أتسلى بفنح حقيبتي أو تصفح كتاب ملقى بإهمال على المقعد بجانبى أو إغلاق نوافذ السيارة لأوفر بضع ثوان عندما أصل. فى كل مرة يلحننى "محمد" فيأتى من بعيد مسرعا، "صباح الخير يا ست الكل"، "صباح الخير يا محمد، متشكرة مش عايزة

النهاردة"، لا يمكن أن أشتري علبة مناديل ورقية فى كل مرة أراه فيها. فى فترة سابقة وجدت حوالى عشر علبة متشابهة فى أنحاء المنزل. عندما سألنى "محمد" أول مرة: "المهم إنت عاملة إيه؟" بهت من السؤال، ثم فاجأنى أكثر عندما أنهى الحوار بسؤال حميمى للغاية: "مش عايزة أى حاجة؟ بجد والله". مر عامان و"محمد" لا يغير السؤال فأصبحت أبحث عنه كلما يختفى. فى خلفية حوارى مع "محمد" مشهد مربع لكنه أصبح معنادا (لمن؟). عسكرى وشخص ارتبط مصيرهما بالأصفاد الحديدية، سيران تحت لهيب شمس القاهرة، لا أميز من فيهما الذى يقود الآخر، البؤس يعلو وجهيهما، الإرهاق باد على خطواتهما، والأرض لا تكاد تحمل ثقل قلوبيهما. يتوقف العسكرى مع الشخص الذى يرحله عند كشك قابع فى الزاوية ويتنازع علبة سجانر. يتبادلان بعض الضحكات مع البائع الذى لا يدهشه المشهد. مشهد يجعلنى أتشبث بمقود السيارة أكثر، و"محمد" لا يزال منحنياً ليكلمنى عبر النافذة والمشهد بأكمله يدور خلف ظهره، "شكرا يا محمد مش عايزة حاجة. عايزة سلامتك".

عندما مرضت والدته "تهى" كنت أخرج من الجامعة لأتوجه إلى شارع قصر العينى وأبدأ البحث حوالى ساعة عن مكان أضع فيه السيارة، وعندما أجد مكاناً فى النهاية يكون ميعاد الزيارة قد انتهى وهكذا إلى آخره من مصاعب القاهرة. أثناء رحلة البحث عن أى مكان أرى من عجائب القاهرة ما لا يوصف.. ثلاثة أو أربعة أفراد يدفعون تروللى عليه مريض وشابة

تحمل بيدها حامل الجولوكوز الذى لا زالت إبرته مفروزة فى نراع المريض. فى الدورة الثانية حول المستشفى يتكرر نفس المشهد مع اختلاف الأشخاص، واختلاف آخر بسيط، كانت العائلة بأكملها - بصحبة الترولى- تشتري ساندوتشات فول وطعمية من أحد المحال المنتشرة على جانبي شارع قصر العيني. كان البائع يواسي المريض.

هل هذه هى الراسمالية؟ أم القسوة القاهرية التى لا تبالى لأحد؟ القسوة التى تجعل قلوبنا غلفاً وعقولنا باهتة. القسوة التى تحمل فى ظاهرها دهشة مروعة ما إن يقع بصرنا عليها حتى تهوى قلوبنا بدون صوت. دهشة أصبحت معتادة ففقدت صفتها الأصلية ثم أصبحنا ندهش من عاديته.

ذاكرة الوحدة

أهل القاهرة نحن... أهل الكلام، لا نمل من إعادة الحكاية عشرين مرة وفى كل مرة يحول خيالنا الحكاية القديمة إلى حكاية جديدة لنجعلها حدوداً شائقة، ليس للمستمع، بل لأنفسنا. نحن أمهر رواة بالصوت والصورة ولذلك مع نهاية اليوم نردد جميعاً جملة واحدة: "راسى ثقيلة، عايز أنام"، فقد تقمصنا عدة أدوار على مدار اليوم، كنا رواة ومستمعين، وغالباً ما تلبسنا روح الحكيم الذى يحل كل المشاكل العويصة، الحكيم الذى غالباً ما يسدى نصيحة واحدة مملّة لا تتغير: "كل ده كلام فاضى، انسى الموضوع كأنه ما حصلش"، رغم أن كل الأشياء حدثت. نحن أمهر مستمعين، دور نعشق تقمصه لأنه يشعرنا بالتفوق على الآخر المنغمس فى التفاصيل الصغيرة. وفى اللحظة التى نقول فيها تلك الجملة يكون خيالنا مشغولاً بإضافة كل عناصر التشويق التى تحول الموقف إلى حكاية مشبعة لمن كان غائباً، ثم... "طيب، نتكلم بكرة". عندما نبدأ التفكير فى يومنا الطويل وأدوارنا المتعددة يغافلنا النوم ويسرقنا على الوسادة. تراكمت الحكايات فى رؤوسنا، فاختلطت مشاعرنا تجاه بعضنا البعض، تزايدت الإشاعات وتضاربت فتتحالف ثم نتعادى ثم نتصادق ثم نفرقنا القاهرة، تماماً كالمح والسكر عندما يضافان للطعام بنفس القدر. ليس من الغريب أن يشيع مطلب عام فى القاهرة

"لازم أقعد مع نفسى شوية". مطلب يتحول بعد قليل إلى اكتاب عام مزمن مختبئ غير معلن.

كانت "سمر" أول من بدأ هذا التقليد فقررت أن يوم الاثنين من كل أسبوع هو يوم خاص بها. نجحت فى اقتناص اليوم فى أول أسبوع ثم توالى الفشل حتى مضى عامان الآن. تضاعلت طموحاتها، وفى ذات ليلة وكلنا مجتمعون بمنزلها فى عمارات العبور، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، انطلق جرس الهاتف، بعد الرنين المتصل نبهتها فقالت: "لا، أصل أنا باحاول أعود الناس إن الوقت ده على الأقل بتاعى أنا"... نظرنا إليها جميعا بدهشة وكانت هى أول من انفجر فى الضحك عندما أدركت المفارقة. ولا تتغير لازمة "سمر" عندما نعلق على اختفائها: "مطحونة والله يا حبيبى، الشغل والبيت والعيال، ده أنا نفسى أقعد مع نفسى شوية ومش عارفة". يكره "كمال" البقاء فى المنزل ولكنه يؤكد: "أنا بعدت عن الناس خالص، باقعد مع نفسى ومش باشوف حد". يتشابه معه "عماد": "أنا بطلت إشوف الناس، قصص وكلام فارغ. الواحد يقعد فى البيت يسمع موسيقى ويتفرج على فيلم حلو، كفاية اللي باسمعه من العيانيين فى العيادة طول النهار". تتوق "غادة" إلى الاختلاء بنفسها لكنها تهرب من الفكرة دائماً بحجة المشاوير والمهام التى يجب أن تنجزها. "مصطفى" كعادته لا يبالى بالعالم وتدرجياً توقف العالم عن المبالاة به، لكنه بالطبع يعشق الاستماع لقصصنا جميعاً ويقول: "علشان كده الواحد يقعد فى البيت أحسن". "سارة" كانت تحقق كل هذه

المعادلات بشكل غريب. تنتهى من عملها بالمركز الحقوى فى وسط المدينة ثم تعود إلى منزلها فى المعادى وتختفى بضع ساعات لتعاود الظهور ليلاً، وتتعمد ألا تجلس إلا فى وسط مجموعة كبيرة، فكان "مصطفى" دائماً ما يسألها: "مين المظاهرة اللى معاكى النهارده؟" عندما تتقارب المواعيد تضطر "سارة" أن تلغى بند العودة إلى المنزل وتقضى عندى هذه السويكات القليلة. تاكل سريعاً ثم تخلع ملابسها وتجلس على السرير شبه صامتة وكأنها فى عالم آخر. عايزة شاي؟ طيب أعمل لك قهوة؟ حاجة حلوة؟ أشغلك التكيف؟ التلفزيون؟ أسئلة تجيب عليها "سارة" باقتضاب وكلها نَصَب فى سكة الرفض حتى تزمجر: "بس بقى يا عيشة، هو أنا غريبة، بفعمل زى أمى اللى بتعزم على وأنا قاعدة باكل معاها". لا أهتم بما تقوله وأسألها: "هو حد مزعلك فى الشغل؟" تجيب بنفاد صبر: "يا ستى لأ، مافيش حاجة. أنا كده لازم أفضى دماغى شوية علشان أقدر أكمل اليوم".

أما أنا فلم أقل فى أى مرة لنفى أريد الاختلاء بنفسى، فأنا أعرفنى، كلما كنت أجلس مع نفسى تهاجمنى الأفكار والوساوس هجوماً شرساً عشوائياً، أو تعود السنوات المنصرمة بدون سابق إنذار، دون أن أعرف كيف أدفع عن نفسى وحشتها وأثارها التى لتظاهر بنسيانها، تظاهر يكلفنى الكثير من الابتسامات وغصة دائمة فى حلقى، غصة تعتقد أمى أنها بسبب التدخين،

أوافقها الرأي واتعهد أن أحاول التقليل من التدخين. عندما كنت أغاظ من أمي وأنا صغيرة لأنها تمنعني من شيء أو تنهرني أو تعاقبني كنت ككل الأطفال أشعر برغبة في الانتقام عبر إغاظتها أو استفزازها، ما كنت أتخيل أن قلبي سيدمى عندما أراها حزينة من أجل، ويبدو أنني أحزنتها طوال السنوات التي مرت. أصبحت القاعدة أنني دائماً على ما يرام من أجلها، أضحك وأبالغ من أجلها، أؤكد أنني بخير، وعندما تهاجمني الدموع أبحث عن مكان غير البيت لأبكي فيه أو أنتظر أن تنام لكي أبكي أو أنظاها بالنوم لأصق أنفي بالوسادة وأبكي، وعندما فكرت أن أستقل في السكن كنت أفكر في الحصول على مكان أبكي فيه كما أشاء، أعبر عن غضبي، مكان أعلن فيه لنفسى أنني لست بخير ولست على ما يرام وأنى أريد أن أختفى من العالم الآن. حتى هذا الاستقلال الجزئي لم أتمكن من القيام به، فكنت كلما أنظر في عينيها أتأكد من عدم قدرتي على المغادرة.

بارعة أمي في بث الرعب في قلبي. دائماً ما تلوح لي بعُجب الوحدة المحتومة إذا لم أتخذ ملاذاً في ظل رجل، لم تكن المسألة بالنسبة لها "أى رجل". كانت دائماً المهنة هي ما يحكم رؤيتها للرجال. حتى تنازلت مؤخراً عن أى شيء مقابل أن تتأكد من وجود رجل ما يعلن وصايته بورقة. كانت ترى الجروح بوضوح وتفهمها ولكنها تتعمد تجاهلها لصالح الوصاية. لم تفقد الأمل مطلقاً فتحاصرني بنظرات الشفقة والدعاء المسموع في الفجر: "اللهم اهد بنتي يا رب واستر عليها وارزقها بابن الحلال". تؤمن أمي بالستر

وتتجاهل كل إمكانيات تحوله إلى عرى وتتمنى ابن الحلال الذى غالباً ما يكون حلاله مغروراً فى تاريخ طويل سابق ملئ بالترغبة فى الوجود القسرى السخيف.

لم أتمكن يوماً من فهم الأمهات، تختار كل واحدة منهن إحدى بناتها وتقرر أن تعيد تشكيل الحياة بدبوس إبرة فى رأسها. حتى جدتى كانت تحاول فعل ذلك مع أمى، فما كان منها إلا أن مالت بكل ثقلها العاطفى على أبيها، جدى. فانتقلت جدتى لى لتمارس نفس الخبرة معى. كنت أخشاها قليلاً ولكننى كنت أفضلها على جدى العنيد الذى كنت كلما أرفض له طلباً يقول لى: "أنا كنت مفتش نيايات الأحوال الشخصية، ما ترديش على يا بنت كوثر". بالفعل لا ارد عليه وأتسل لجدتى وأجلس بجانبها وهى تخرط الملوخية بهمة شديدة. أراقب ورق الملوخية الذى يتضاعل إلى قطع صغيرة مع حركة المخرطة ذهاباً وإياباً، أبداً اللعب مع نفسى فأغمض عيني وأراهن أنه عندما أعد لعشرة ثم أفتحهما ستكون المخرطة فى طريق العودة. تقطع على جدتى اللعبة وتسال: "كنت بتعلمى إيه عند زينب مع جدك؟" أرتبك لوهلة، وأسأل: "زينب مين يا نانا؟"، "زينب اللى كنتم عندها الصبح". اسمها "زينب" إذن. اصطحبنى جدى فى الصباح معه لمنزل هذه السيدة وجلس قبالتها وكان يناديها: "زينب هانم"، وأعطاه أوراقاً وقعت عليها ثم

اعادتها له وشكرته وكانت تتاديه: "حسين بك". كانت زيارة ممة بالنسبة لى
وقررت بعدها أن أتمرد على تلك الصحبة التى يغصبنى جدى عليها. حكيت
لجدتى كل ما حدث فنهرتنى قائلة: "طيب مش عايزاكى تروحي للسبت دى
تانى خالص.. خفت كثيراً ولم أفهم شيئاً إلا عندما ظهر جدى فى الأفق
واتضح أن جدتى تغار عليه من تلك السيدة وأخذت تؤنبه بشدة وهو يدارى
الضحك، ويقول لها: "غير لائق، عندك خمسة وسبعون سنة وتتصرفين
كفتاة غير راشدة". كانت هذه الجملة هى التى أشعلت الفتيل، انطلقت جدتى
فى وصلة صياح تركية كدت أموت رعباً منها لأنها كانت محملة بالوعيد
والتهديد، وكانت تتهل من تاريخ الأتراك والألبان والسلاجقة و"محمد على".
كلما أتذكر هذه المشاجرة الآن أضحك كثيراً، كانت مشاجرة تاريخية عرقية.
كانت جدتى تصر أن تعلمنى اللغة التركية فيحاول جدى أن يدمر لها
مجهودها ليعلمنى الفرق بين التركية والألبانية. فقررت أمى أن تعلمنى
الفرنسية حتى تمردت عليهم جميعاً وتعلمت الإنجليزية. لم أنس أبداً تركية
جدتى ولم أتخلص من عادة أكل الحلو والمالح معاً. كنت كلما أذهب لها
نضع لى رغيف بلدى طازجاً وطبقاً به قطعة جبن أبيض وطبقاً آخر به
عسل أسود. كنت أكل دون أسئلة معتقدة أن هذا طبيعى حتى جاءت خالتى
فى يوم وقالت لى: "إيه يا عيشة ده، حد ياكل حلو على حادق؟" أسكتتها
جدتى بنظرة وقالت: "لازم تتعود تاكلهم مع بعض. الحلو والحادق زى الدنيا

تمام". ونجحت جدتي أن تشكلى بدبوس إبرة. وبتلقائية كنت فى أمريكا
أغمس البطاطس المقلية فى العسل الأبيض!

لم نياس جدتي ولم تتوقف عند الجبنة والعسل، كانت تلاحقنى بكلمة
"سفتشى" كلما أصر على البيات عند خالتي "سعدية". "سعدية" ليست خالتي
ولكنها زوجة الأخ الأصغر لجدتي. رآها "محمد ارناؤطى" أثناء زرع
الحوض الشرقى بقرية ههيا فأحبها وأصر على الزواج منها رغم المعارضة
العائلية الشديدة، فهى بالنسبة لعائلة جدتي لم تكن سوى "سفتشى" أى فلاحه
بالتركى. عاملها الجميع بازدراء فى البداية وخالتي "سعدية" تصمت وتخبز
مزيذا من الفطير المشلتت وتطهو الحمام المحشى وتحرص على لف ورق
العنب حتى يكون بحجم البنصر، ثم تحمل الأوانى المكسدة بالطعام لمنزل
جدتي، تضع الأكل فى صمت، وتتظاهر أنها لم تسمع التعليقات ولم تلاحظ
النظرات. بعد سنين تحول موقف العائلة فأصبحوا يصفون خالتي "سعدية"
أنها "غلبانة" و"مالهاش حس" وف "حالتها". لم تكن هذه الأوصاف تحمل
معنى القبول بقدر ما كانت تعبر عن قبول الأمر الواقع المتدنى. لكن لم
يتوقف أحد عن استخدام اللغة التركية فى حضورها - عدا التعليقات على
ملبسها ولون بشرتها - لكى لا تنسى أبدا الفرق بينها وبينهم.. بيننا. كان
جدى يواجه كل هذا التعصب بمزيد من الأوراق التى يكتبها عن تاريخ
الأرناؤوط ويعلقها فى كل أنحاء المنزل، نقرأ جدتي ما يكتبه خلسة ثم

تقول له: "حفظنا تاريخ الأرنأوطلك" فيجيب: "اسمهم أرنأود يا أفرنجية".
وتبدأ مرة أخرى مشاجرة الألبانى والتركية. وأهرب أنا إلى خالتي "سعدية"،
كلما تجيء لزيارة جدتي أحضر نفسي لوصلة بكاء طويلة حتى تقبل جدتي
أن أأغار معها لأقضى فى منزلها المجاور يومين. كنت أعرف دائما أن
قلب جدتي سيرق فى النهاية وأنها ستوافق. يحسم الأمر بمجىء شقيق جدتي
لبصطحب خالتي "سعدية" فاتعلق بيده وأقول: "أنا أنا عايزة أروح معاه".
يربت على كتفى ويتوجه لأخته قائلا: "عائشة معانا فى الحفظ والصون يا
عزيزة هاتم". بمجرد أن ينطق اسمى صحيحا توافق جدتي وتتفرج
أسارى. أسير فى الشارع متعلقة بيد خالتي "سعدية" وأنا أكاد أطير فرحا.
الإحساس بالانتصار، أحلام الحرية تتراقص أمامى.. نوم بدون مواعيد،
مشاهدة التلفزيون، صخب وضحك ولعب، جلوس على الأرض، ونساء
يهمسن ليلا بأسرار لا أفهمها، وبابور جاز تخرج من فوقه أجمل الأطعمة.
أقضى يومين كاملين فى اللعب مع "أحمد" و"علاء" ابني خالتي "سعدية"،
يصطحبني "أحمد" فى الصباح المتأخر لشراء الإفطار، فول وطعمية
وباننجان من عربة تقف أمام المنزل مباشرة، أراقب حلقات الباننجان التى
تتغير حجمها فى ثانية بعد هبوطها فى الزيت المغلى، وفى المقلاة المجاورة
تخرج كرات العجينة من يد البائع لتهبط فى الزيت فيتغير لونها فورا
وتتماسك، لو علمت جدتي أننى أقف فى الشارع أمام الزيت! ثم ننعطف
يمينا لشراء الخبز البلدى من الفرن، نحمل الأرغفة، وفى طريق العودة
أقول لـ "أحمد": "عايزة حلاوة شععر".

يبتسم وينظر لى نظرة ذات مغزى فقد كان يعرف أن كل ما أطلبه هو
 خروج عن تعليمات جدتى. نذهب للبقال الذى يعرفنى ويقول "أزيك يا
 أمورة؟" لا أجيب، قالت جدتى ألا نكلم الغرباء ولا نرد عليهم. يبتاع لى
 "أحمد" حلاوة شعر بقرشين، كان ذلك أقصى أحلامى، فقد كنت أشتري سرا
 حلاوة بتعريفه لأتمكن من التهامها سريعا قبل أن تراها جدتى. يناولنى البائع
 قرطاسا ضخما تتدلى منه الحلاوة أبدا فورا فى التهامها. ونحن على وشك
 المغادرة يقول لى البائع: "سلمى على ستك". أرتعد وأرتبك فلم أفهم معنى
 الكلمة، أفهمنى "أحمد" أنه يقصد جدتى، أسأله: "هو يعرفها منين؟" فيجيب:
 "ما يعرفهاش، هو عارف كل بيت كده، بس مين اللى فيه، من بعيد لبعيد".
 أعاود السؤال: "يعنى حيقول لنانا إبنى أكلت حلاوة؟" يضحك "أحمد" ولا
 يجيب. أنسى الموضوع وأقرر أن أستمع بالحلاوة فتنساقط الأرغفة من يدى
 لانشغالى بالقرطاس، يسارع "أحمد" لرفع الأرغفة التى سقطت منى، يقبل
 كل رغيف ثم يضعه على جبهته، يفعل ذلك ثلاث مرات مع كل رغيف.
 أسأله عما يفعله، استلثى لا تتوقف و"أحمد" صبره وبشاشته يكفيان الدنيا:
 "حرام نعمة ربنا تقع على الأرض". كشفتنى جدتى بعد ذلك عندما سقطت
 منها قطعة لحم فى المطبخ فسارعت إلى التقاطها وتقبيلها كما فعل "أحمد"،
 صرخت فى وجهى بالتركية وحملتنى إلى الحمام وصارت تصب على مياه
 ساخنة وأنا أصرخ من الفزع وهى تصرخ فى نفس الوقت "عايزة اللحمه
 الذية تسممك يا شفتشى".

نعود أنا و"أحمد" محملين بالغنائم فيتحلق الجميع حول الطبلية، "أحمد" و"علاء" وخالتي "سعدية" وابنتها الكبرى "سهير" ورجل مسن لا يتكلم ويأكل قليلا ودائما ما تقول له خالتي "سعدية": "كل يا حاج مبروك، مد إيدك ما تتكسفش" والحاج يهز رأسه ويقول: "الحمد لله على نعمة ربنا"، ثم يغادر وهو يتمم بكلمات لا أفهمها. ويظهر مرة أخرى على طبلية الغداء. أسأل خالتي: "مين ده؟" تجيب: "ده جارنا من زمان، وحداني ومالوش حد، راجل مبروك بصحيح". لا أفهم نصف الكلام وأستمر: "بس ليه واحد مش عارفينه يقعد كده؟" تنهرني بحنان بالغ: "لا يا عيشة، الناس لبعض يا حبيبتي، دي لقمة هنية تكفى مية وإننت من بيت أصول وكرم، ما يصحش تقولى كده". أسرح فيما تفعله خالتي، أجلس كل يوم أمامها والبابور بيننا، أراقبها وهى تخرط البصلة مباشرة فى الإناء، تتحرك يديها بخفة ومهارة وسرعة، حاولت على مدار الزمن أن أقلدها فى تخریط البصل ولم أفلح، تتساقط قطع البصل فى السمن المقدوح وتفوح الروائح. حتى اليوم كلما اشتاق لخالتي "سعدية" أبتاع علبة سمن خصيصا لأقذح بصلة، وتعود خالتي "سعدية" مع الرائحة. بعد تخریط البصلة أفقد اهتمامى بالمراحل التالية المتضمنة تسبيك الصلصة وتقطيع الخضروات. أقوم لألعب أمام المنزل لعبة الأولى المبهرة وبدلا من استخدام طوبة أعطيتى "سهير" علبة كريم "تيفيا" صغيرة وملأتها لى بالرمل. أدعو علاء ليلعب معى فيرفض ويقول "دى لعبة بنات"، أشكوه لخالتي "سعدية" فنقول له: "العب مع عيشة يا علاء، فيها

إيه؟" يشاركني "علاء" اللعب على مضض ثم ينسى ويندمج تماما. أنتعب من اللعب فاعود للداخل وأقول: "تعالى العبي معايا يا خالتي"، نضحك من قلبها، كنت أحب ضحككتها الرائقة: "يا عيب الشوم يا عيشة، ألعب ازاي، يا ريت، تعالى إنت زغطي معايا البط". تمسك خالتي بالبطة وتزغطها حبة فول وعندما أرى رقبتي تنفخ أصرخ: "حاسبي يا خالتي، حتموت". "ما تخافيش، هو البط لازم يتزغط كده". أنام ليلا على صوت هديل الحمام، وبعض الأصوات القادمة من بعيد وأفكر فيما ستقوله لى جدتى عندما أعود. خرجت إلى العالم بتعاليم جدتى التى خرقتها كلها بتعاليم خالتي "سعدية"، فتأتى أفعالى متناقضة بشكل صارخ.

فى طريقى لمقابلة "هاجر" مررت على محل لبيع الطيور، وقفت أبحث عن صوت يشبه هديل الحمام فلم أسمع سوى أصوات عصافير وبيغاء مزعج. كنت قد انتقت مع "هاجر" أن نجلس فى إحدى تلك المقاهى الحديثة التى نميزها عن القهوة المتعارف عليها ونسميها "كافيه". كوب القهوة بثمانية جنيهات. كانت "هاجر" تحكى الكثير عما تقابله فى مهنتها كمدرسة أطفال وأنا أستمع ثم سرحت فى غلاف مجلة ملقاة أمامى تتصدرها امرأة رائعة الجمال، لا أثر لأى هالات سوداء تحت عينيها ولا أثر لهم واحد على وجهها ولا تشى ملامحها بأية فكرة، ظللت أنظر إليها فى محاولة منى لفهم ما كان يدور برأسها حين التقطت لها تلك الصورة. ويبدو أن "هاجر" انتبهت لغيابى عنها فصاحت: "يا عيشة يا جميلة رحى فين، اللي واخد عقلك".

ضحكت من هذا التعليق الذي طالما سمعته على مدار السنوات والذي دائماً ما سألته لنفسى ولم أعرف أبدا أين كنت، ضحكت وأشرت لغلاف المجلة وسألتها: "هم مين دول يا هاجر؟ يعنى بيحصلهم كده ازاي؟" وبسرعة شديدة انطلقت "هاجر": "إنت شربات يا عيشة، دول عرايس بلاستيك، بس عموماً دى ممثلة أمها روسية ومتربية كويس قوى". أعجبتى كلمة "متربية"، كلما أسمعها أشعر أننى عديمة التربية ثم أكتشف أننى لا أعرف كيف أكون "متربية"، هل أتبع جدتى أم خالتى "سعدية"؟ بلا مبالاة أقول لـ"هاجر" وأنا أحتسى آخر رشفة فى كوب القهوة الضخم: "واضح إن أنا مش متربية خالص، أمى غالباً شايفة إن أنا ماليش لازمة فى الدنيا، ما عملتھامش ولا تفصيلة من الصورة اللى كانت رسماها فى دماغها". أحكى لـ"هاجر" عن دعاء أمى المسموع عند الفجر فتضحك وتضحك، وتقول "تيجى نبذل". تخبرنى "هاجر" عن أمها التى تحذرها دائماً "خلاص يا هاجر" انسى موضوع الحب والجواز ده خالص، المهم شغلك وبس". يصيبينى الذهول من حكاية "هاجر" ومن أمها ومن رعب أمها أن تقع ابنتها فى الحب. الأمهات والملكية، العالم والملكية، نحن والملكية، وهم الملكية التى لا نملكها. نحن لا نملك شيئاً.

ذاكرة أشباح

لم أستغرب كثيراً عندما كانت الدموع هي ما استقبلت به برلين. بعد غفوة قصيرة استيقظت وجلست على السرير، نظرت حولي ببلاهة وتحسست ظهري الذي ألمني من المرتبة اللينة وبدأت أبكي، كنت أفكر في سريري في القاهرة وحجرتي وتفاصيلي. هاجمتني الوحشة دفعة واحدة، كان العالم تركني وحيدة وغادر، كنت أبكي وأنا أفكر في المرتبة القاهرية المزعجة ذات السطح غير المتساوي، ثم فجأة تذكرت أمي وبكاءها وأنا أودعها، وتذكرت تقلصات وجهها التي تسبق البكاء، فبدأت أبكي من أجلها، ثم بدأت أبكي لأنني أبكي، وكأنني جئت برلين لأجد مكاناً أبكي فيه. ثم انتبهت إلى كل هذا الرثاء للذات فيزداد البكاء. أقوم فجأة من على السرير بعد أن تنهكني الدموع وأقول بصوت عالٍ: "إيه المناحة دي؟" ثم أبتسم لنفسى باعتباري قلت نكتة. أدركت فجأة أن المواجهة قد حانت وأن ما هربت منه دائماً قد حان الآن قسراً. لم أنم طوال الليل من ذعر المواجهة، ليال وليال لم أنم. كنت أغمض عيني ثم تبدأ كل المشاهد التي أردتها أن تختفي. مشاهد قلت فيها كل ما لم أقله من قبل، مشاهد وهمية من الجدل والنقاش. ثم تطور الأمر وبدأت أدفع عن نفسي الأشباح التي كانت تهاجمني ليلاً وأصبحت تأتيني نهاراً، تحولت برلين إلى مدينة الأشباح، أشباح أنا فقط

التي تراها، أشباح أطلت برأسها بعد سنوات لتؤكد قوة وجودها، أشباح
تجىء فى أرواح أحببته ووجوه كرهتها. هاجمتى القاهرة بكل حكاياتها
ونسائها. تضخمت حكايات القاهرة وتحولت برلين إلى عدسة مكبرة، ولكن
برلين لا تضخم إلا الأحزان، وكأنها تلتقط من الروح كل خيوط الألم
لتجدها حول القلب، لتعصر بها القلب، لتهدده بالتوقف عن العمل فى أى
لحظة إن لم يستجب ويخضع لسياط الأشباح. أتذكر أمى مرة أخرى فأنفع
قلبي إلى التحمل رغم كل إغراءات الاختفاء والتلاشى.

أحاور أشباحاً لا أراها إلا فى منامى، أعتذر وأحاور وأجادل لكن
الحساب معقد فكلما ننتهى من قصة يواجهوننى بقصة أخرى، قصة ظننتها
انتهت وطواها النسيان... هؤلاء الأشباح لا ينسون صغيرة ولا كبيرة، فقط
القاهرة هى التى تنسى ويبقى أشباحها مسلحين بذاكرة تجلدا فى أية لحظة.
تنام القاهرة ولا تنام الأشباح. كيف أهرب من عيون تلك الأشباح؟ هربت
من نفسى وهربت من القاهرة ولا أستطيع الهروب من أشباح مزعجة.
أحاول الهروب فى البرودة. أضع معطفى وأتمشى فى الطرقات ليلاً.
البرودة تجمد أطرافى والألم يلهب روحي والهدوء يقتلنى، أعود منكسرة
الروح وقد أعيانى البكاء بدون سبب، أرتمى على السرير وأقول: "غدا
أتصل بالقاهرة".

ويأتى الغد لتترك لى الأشباح الصباح وتعود فى المساء، ولا أعرف ماذا
أفعل بيومى، فأتصرف وكأننى فى مشوار مؤقت سينتهى قريباً، وأننى

سأعود سريعا لأحكي لأهل القاهرة عن المتحف المصرى فى برلين وعن جمال نفرتيتى. تقفز إلى ذهنى صورة عم "أحمد" وهو يحتسى بتلذذ كوبا ثالثا من الشاي ويحدق فى سقف الغرفة رغم جلوسى معه ويقول بصوت مبسوط: "الناس وحشة قوى"، "ليه بس يا عم أحمد، دول زى الفل"، "بكره نعرفى". ويبدو أننى عرفت أكثر مما يجب، تجاوزت الخطوط الحمراء فى المعرفة، لكن القاهرة تمحو كل الخطوط والحدود حتى لا نكاد نعرف أين نقف. والقاهرة لا تقبل الأعذار، القاهرة الصارمة.

يقرصنى الجوع وأشعر بوخزة حادة فى معدتى، فإذهب إلى السوبر ماركت المجاور وأحاول عبثا أن أبتاع شيئا أفهمه. تنتهى محاولتى بنجاح صغير وفشل كبير. اضطر مرة أخرى إلى اللجوء للمطعم الأمريكى الكائن أسفل البناية. أجلس وحيدة إلى مائدة تكفى أربعة أشخاص، أطلب ما تمكنت من فهمه، فالنادل يصر على محادثتى بالألمانية، ثم أأخذ بضع سجائر وأصعد إلى غرفتى، والقاهرة تملأنى تماما. أتمسك أمام شاشة الكمبيوتر، أنصت كل خبر عن القاهرة، أقرأ أخبارا لم أهتم بها من قبل، أتابع تفاصيل كنت أراها سخيصة ومملة، أتصفح كل الصحف على الإنترنت وعندما يعيننى الصمت أأكل الكمبيوتر بصوت عال أو أأكل صورتي المنعكسة فى زجاج النافذة أمامى، فاستنكر أحيانا: "معقولة اللي بيحصل ده؟" أو أندبش: "إيه ده... إيه ده؟ لا حرام بجد"، وكثيرا: "ولاد الذين... الحرامية، سرقوا البلد

خلاص". اضغط على زر البريد الإلكتروني لأقرأ الرسائل بمنتهى التانى وأعيد قراءتها مرة واثنين. أجيب على الرسائل بعناية، أصف الطقس وبرودته التى لم أر مثلها من قبل، أتحدث عن انطباعاتى الأولية، وأحكى كثيراً عن كنيسة سانت مارى الواقعة فى الجزء الشرقى من المدينة التى يعود تاريخها إلى القرن الثالث عشر، ولا أحكى أننى أوقدت فيها شمعة ووضعت مقابلها يورو فى العلبة المعدنية، ولا أذكر شيئاً عن الأشباح. أصف تفصيلاً جدارية "رقصة الموت" التى يصل عرضها إلى اثنين وعشرين متراً وطولها متران. ولا أذكر شيئاً عن رقصة الموت التى أشارك فيها الأشباح كل ليلة. يأتينى الرد أو لا يأتى، رسائل القاهرة قصيرة ولاهثة ومتعجلة ومنهكة مثل أصحابها. كل جملة تحمل مشكلة وكل مشكلة معادة وقديمة، بعض الرسائل تحمل شكاوى من الدنيا والمشغوليات والوقت الضيق. وهناك رسائل متناقلة تكتب بحكم الاعتياد وضرورة المجاملة. ورسائل مليئة بالدفع والود، وهناك رسائل تمنيت ألا أقرأها لأنها مفرقة فى العادية والجفاف من قبيل: "الشغل كثير وأنا لوحدي" أو: "آلام ضهرى فظيعة" أو: "كنت عيانة بقالى أسبوعين" أو: "كنت عايزة أكتب من زمان بس مش فاضية خالص".

أتشبث بالقاهرة وأحاول بعث لياليها الدافئة، أطهو لـ"حنان" سجق ابتعته من سوهر ماركت تركى اكتشفته بالصدفة وأوقد شموعاً واضع أغنية

"هجرتك" لـ"أم كلثوم" فى جهاز التسجيل، وأندفق فى الحكى عن القاهرة
لأستحضرها. وأسبق كل حكاية بـ"عندنا هناك فى القاهرة...."، تستمع إلى
"حنان" باهتمام وتسالنى عن التفاصيل وتقول: "بجد، فىن الحاجات دى ما
شفناهاش"، فأجيب: "لا أنا هاوريكى القاهرة اللي على أصلها"، أندفق فى
الحكى عن اهل القاهرة، أمجدهم وأعظمهم وأعيد رسم صورهم وأفتخر
بهم، أقص حواراتهم ونكاتهم وأبالغ فى التمسك بروح المكان. كنت خائفة
الا أعود كما ذهبت، كنت أدافع عن قاهرتى حتى النهاية، كنت أصارع
الأسباح بسبب القاهرة ومن أجلها.

أبحث عن قمر القاهرة فى سماء برلين فلا أجد إلا السحب والغيوم
والمقاهى التركية التى تقدم الشيشة والتى يعشقها الألمان ويعتقدون أننا نعيش
فيها. يؤمن الألمان أننا كلنا مثل "شهاب" لا نغادر الشيشة مطلقاً ونقضى
ليالينا فى المقاهى. وغالباً ما تكتمل الصورة لديهم عندما يرون قرطاً فضياً
يتدلى من أنفى. فى النهاية كلنا بالنسبة لهم لسنا إلا أترাকা. أتوجه إلى مطعم
مصرى فى ميدان سافينى فأكشف أنه يقدم أكلاً مغربياً رغم أنه يسمى نفسه
"الفرعون المصرى"، تضحكنى "ال" التعريف لأن كل من حكمونا كانوا
فراعنة بامتياز، فمن هو المقصود بالضبط؟ ينتابنى الملل والاختناق من
التنقل تحت الأرض بمترو الأنفاق، فاستقل الأوتوبيس بدون هدف وأصعد
إلى الطابق الثانى لأرتفع عن الأرض بقدر الإمكان، أتأمل البشر من فوق

فأجدهم بعيدين وملاحهم غير واضحة. تبدو القاهرة الآن بعيدة للغاية...
هناك في مكان ما... في صفحة روى تبثت ملامحها وتخفت أصواتها
ويهدأ صخبها، هل هي التي تخرج مني أم أنا التي أخرج منها؟ تملكني
الإحساس باليتم، ولم أستطع أن أتخيلني خارج رحم القاهرة.

ذاكرة العودة الأولى

هكذا ارتيميت في أحضانهم دفعة واحدة في محاولة لاستعادة رائحتهم وملمس جلدهم، ورغم وجوههم الباهتة وأصواتهم المتحشجة لم يهدأ صخبى، ورغم الملوحة التي ظلت مستقرة في حلقى لعدة أيام بفعل التلوث الجبار لم أتوقف عن الاستمتاع بالتدخين في القاهرة. لم تستقر عيناي في مكان واحد ولم تهدأ روحى في أعنى شوارع القاهرة، كنت اختصر ساعات النوم وساعات التنفس وضربت عرض الحائط بكل طقوسى الصباحية والمسانية، لأدخر القاهرة داخلى، درت ألثهم الشوارع والوجوه، أضحك لكل قفشة حتى السخيف منها، أنصت لكل حكاية حتى الكاذبة منها، أذهب كل الأماكن حتى التى لم أكن أطيّقها، وأتغزل في الجو المليء بالغبار.

أشاق لنهار القاهرة في ميدان السيدة نفيسة. أضع سيارتى في المكان المخصص للانتظار وأتوجه إلى الباب الخلفى المخصص للنساء. أمر عبر حارة ضيقة جلست النسوة على أحد جوانبها يبعن الورد والبخور "لست" وعلى الناحية المقابلة كراسى متهالكة تشكل مقهى يقدم مشروبات وفول نابت. نساء يخرجن من الجامع ويطلقن الزغاريد فأتساعل عن فرحى الناقص دائما... ربما هو الطريق نحو الاكتمال، نساء أخريات يرتدين الأسود ويبكين فأتعجب من وجعى المستمر. أخلع حذائى وأمر عبر الباب المفتوح بهدوء على مصراعيه. باب يستقبلك بالأحضان الدافئة، ثم باب آخر

بفضى لمقامها. كأنها كانت تنتظرك أنت بالتحديد، تشعر بأهميتك وتبدأ فى تشكيل خصوصية المناجاة. قبل أن أغادر إلى برلين قلت لها فى مشهد مماثل: "أنا تعبانة يا ست نفيسة" ثم شعرت بالحرَج من إلقاء همومى هكذا دون حتى إلقاء السلام والتحية. سلمت عليها وتمنيت لها الخير ثم حاولت تَمَيِّق بعض الجمل التى تليق بمقامها: "الحقيقة جنتك فى موضوع سخيف بعض الشيء أحذف كلمة "سخيف" لأنها كلمة سخيفة، لماذا أتى لها بالسخف؟ أريد أن أحدثك فى شىء يؤرقنى ويحيرنى" أترجع، لابد أن أحدد مطلباً فلن نسمع منى كل هذه المقدمات. أذكر الدعاء وأقول ثمانى عشرة مرة:

كم حاربتى شدة بجيشها فضاقت صدرى من لقاءها وانزعج
حتى إذا أيست من زوالها جاعتنى الألفاظ تسعى بالفرج

أنتهى من الدعاء وأنا ألهث ثم أنظر حولى فأرى الرجاء على الوجوه وأسرح فيها. أفيق على صوت حاد لامرأة مقعدة مسئولة عن المقام: "حرام اللى بتعمليه ده، صلى بعيد عن المقام".

تنهمر دموعى وأقول: "أنا تعبانة قوى يا ست نفيسة". أستند بظهري على الباب فى محاولة لتمالك نفسى أمام "نفيسة بنت الحسن"، لكن النساء لا

بمهلتنى فكل واحدة كانت تريد أن تستند إلى الباب حيث لا سند إلا هو .
نعلمت فى العودة الأولى أن ادس بضعة جنيهاً فى يد تلك المرأة ثم أشفعها
بالكلمة السحرية: "كل سنة وإنت طيبة"، وكان أن تفاضت المرأة عنى
تماماً.

فى كل مرة وأنا أغادر السيدة نفيسة أودعها بحرارة وكاننى لن ألقاها
مجدداً. سألنى صديق خسرته منذ مدة، ومازلت اشتاق لرؤيته: "اشمعنى
السيدة نفيسة؟" بهت من السؤال وتلعثمت وأخرجت كلمات غير مفهومة، ما
تسمينه أنت يا "روضة" "حروف زيادة". لا أذكر التظير الذى تطوعت به
فى تلك الليلة، لكننى لن أنسى أننى أردت أن أقول: "كده وخلص". جملة
حاسمة تمجد الفردية والمشاعر الجوانية التى لا بد أن تمنع خصوصيتها إبداء
أية مبررات. لكن القاهرة لا تعترف بالخصوصية. الحياة فى القاهرة كلها
فى العام والمكشوف والمعلن والمبرر والشائع والمقبول والمفهوم، لتكون
الحياة بأكملها على وزن "مفعول".

أغادر الست وأنا منتشية، شعور بالإنجاز يكاد يصل إلى شعور بالتحقق،
ثم يصل إلى إحساس التطهر من كل حكايات القاهرة التى أسمعها مرغمة
أحياناً ومقبلة أحياناً أخرى، ربما هو شعور بالخفة اللانهائية، استغناء عن
الكل فيما عدا الست. انتقال فى المكان يشبه التعثر المفاجئ فى ثلاث
درجات سلم يتبعه خمس ثوان من الانقطاع عن الحياة بفعل الصدمة. ربما

يكون الأمر كله ليس إلا "كينتش" بلغة أهل برلين حين يوصمون شيئاً لا يعجبهم.

فى عودتى الأولى كنت مازلت مغروسة فى القاهرة، معجونة بغضبها وغبارها وحكاياتها، لم أستطع إقامة تلك المسافة التى تتغنى بها "سمر". كنت اغادر مقام الست لأتفحص هاتفى المحمول ثم أرمى بعض قذائف الغضب تجاه "مصطفى"، ذاك النائم الأبدى، فأجد مبتغى فى "كمال" و"نهى" و"سارة". "مصطفى" و"كمال" وجهان لعملة واحدة. ورغم اختلافهما الظاهر لكل عين إلا أنهما متشابهان خاصة حين يقيمان علاقات عابرة مع نساء، ويؤكدان: "والله ما فى حاجة، عادى، إحنا أصحاب". المشكلة أن هؤلاء النساء يتطوعن بالحكى عن هذه العلاقات. وفى كل مرة نضحك ونقول: "رجالة عبيطة بشكل". وتضحك "سميرة" وتقول: "هما بيخبوا ليه؟ يمكن متجوزينا واحنا مش واخدين بالناس؟" وتمد "سارة" يدها فى مخزون حكاياتها وتبدأ: "مرة عرفت "مصطفى" على واحدة صاحبتى، يعنى ما كانتش صاحبتى قولى. بعد أسبوعين يا حبيبتى أبقي قاعدة مع "مصطفى" الأقيها بنكلمه على الموبايل وبتتفق معاه على ميعاد. يصادف إن فى نفس اليوم أكون متفقة معاه وتعتذر وتقولى: "أصل المود بتاعى مش كويس". مرة على مرة، ابنتت يا حرام تحكى له مشاكلها العاطفية، وآخر مرة كانت موجودة فى عيد ميلاد "نهى"، كنت إنت فى ألمانيا يا "عيشة"،

احتقلنا فى مكان كده فى المهندسين مثل فاكهة اسمه، اتعاملت معانا كأننا أشباح وقعدت جنب "مصطفى" وبدأت تتأمل فى الفراغ رغم إن الموسيقى كانت تصحى الميتين. أصل "مصطفى" كان ابتدى يدخل فى النوم فهى يا عينى افكرت إنه فى حالة تأمل، قوم إيه.. قعدت تتأمل معاه من باب الإبهار يعنى. طبعا "مصطفى" بعد كام شهر كان نسي الموضوع بعد ما خلاص فقد دهشته، وحياتك وهى كمان. بس الطف حاجة فى الحكاية إنهم مش عارفين لحد دلوقت إن كلنا عارفين. باعتبارنا أغبيا يعنى، لو بس الناس يتعاملوا معانا على إننا بنفهم".

"مصطفى" ينام طوال اليوم، أما "كمال" فيقضى يومه فى الشارع. "مصطفى" مؤد بارع بينما لا يفهم "كمال" فنون الأداء، فيما عدا الكذب الساذج غير المبرر الذى أتقنه مؤخرا وبدأ يختفى بعده. يترك "مصطفى" العنان لشعره حتى يبدأ فى مناداته بإنسان الغاب أما "كمال" فهو حليق دائما حتى الثمالة، والاثنان مولعان بالمجاملات الفارغة من كل مضمون التى توحى بالثقة للآخر وتشعره أنه أقرب صديق. أما الشيء الحقيقى الذى يجمعهما - دون أن يعرفا بالتأكيد - هو أن كليهما لا يعرف أى شىء عن أى شىء. كل ما فى الأمر أنهما ينتظران شيئا مجهولا لا يأتى، وربما لن يأتى مطلقا. كلاهما مستعد للفعل وراغب فيه إلى حد اللافعل. وكلاهما تحول فمه إلى ما يشبه مغارة على بابا وهما يرفضان معا الذهاب إلى طبيب الأسنان.

فى العودة الأولى حمدت الله أن "غادة" بشرتها داكنة نوعاً ما فلا يظهر الشحوب على وجهها بوضوح وإلا كانت ستبدو كتمثال يقف بأناقة فى متحف الشمع. اجلس أمامها وأستمع إلى قصة غياب كما الموت تماماً، ولا أملك سوى الصمت لأننى خبرت الموت من قبل فى أشكال مختلفة، لكننا نفهم الموت الذى يعبر فيه الأحياء إلى الشاطئ الآخر، أو هكذا نقنع أنفسنا لنتمكن من مواصلة الحياة فى ظل غياب مفاجئ. كل أصدقائى يسمون الموت المفاجئ "عبث" ويؤكدون على الكلمة فيخفضون صوتهم حين نطق الحروف الثلاثة وتكنسى وجوههم بتعبير محايد فى محاولة لإضفاء قدسية على ما تبعث. أما الموت دون انتقال للشاطئ الآخر فلا مبرر له. يقرر هذا الميت المفترض أن يلعب فى لحظة يختارها هو دور الحى المبتهج الذى لا يكف الهاتف عن نقل صوته وبث أشواقه، ثم يقرر فى لحظة أخرى مباغته ضعيفة أن يتحول إلى الميت الذى يريد أن يطمئن على مسيرة حياتنا بدونه. لم أملك أى شىء أقدمه لـ "غادة" سوى بعض اللقاءات وافتعال ضحكات فائضة عن حاجة الحزن والشعور بالغياب.

كانت "سميرة" تدخر القنبلة لتفجرها فى الوقت المناسب. فى ليلة فى منزلى انتهزت "سميرة" لحظة صمت بيننا جميعاً وقالت "عايزة أقول لكم على حاجة. جوز أختى بعث لى عرض كويس علشان أروح أم للقوين فى الإمارات". لسان "سارة" كالمبرد: "ايه؟! أم قويق؟" أضحك رغماً عنى وبدأ "سميرة" فى محاضرة ظاهرها تأديب "سارة" وباطنها دفاع عن نفسها: "بطلى جهل. إنت بتدافعى عن الناس إزاي، تلاقىكى بتقضى تقولى يا حضرات القضاة إنى أطالب بإعدام موكلى. لو عندك شغل تانى غير التأمين الصحى اللى بيطلع عينى فيه علشان سبعميت جنبه آخر الشهر يبقى أهلاً بيبك. بقى لى عشر سنين دلوقتى باسدد أقساط الشقة العوجر اللى اشتريتها من النقابة. عارفة الشقة دى على بعض بكام؟ بخمسين ألف جنبه. فاضل على خمستاشر ألف لسه. طهقت من ركوب الميكروباص رايح جاى كل يوم. طهقت من الشرايط اللى كلها شئيمة فى السنوات، طهقت من الراجل اللى بيتلرزق فى، برضه كل يوم. وبعدين أوصل الشغل فى شارع الجلاء وأشم كل العادم وأسمع شوية كلام متتقى وشوية شتايم، أخرة المنة الأقى واحد عيل بيقول لى: "عندك تاخير عشر دقائق يا استاذة". هه.. عندكم حل لإنسانيتى اللى بتنتهك كل يوم؟ أنا مستعدة لأى حل. اتفضلوا بللا". صمت رهيب. تتشاغل "سارة" بجمع الأكواب. أسأل بصوت خفيض: "هتعملى إيه هناك يا "سميرة"؟" تصمت. أكرر سؤالى. "هاقول لكم بس مش عايزة حد يقول لى حاجة خالص. ده قرار. فندق جديد هيفتح

وهاشغل أوبريتور، يعنى أرد وأقول: "جود مورننج، السمكة الخضرا
أوتيل، كان أى هلب يو؟" تعود "سارة" من المطبخ: "يا نهار أسود هو فيه
سمكة خضرا؟ اسمه كده بجد؟ أم قويق وسمكة خضرا؟!" تقذفها "سميرة"
بوسادة كانت تحتضنها. أغوص فى مقعدى وأدارى دمعته. قاهرة بدون
"سميرة"؟ كيف؟ قاومت "سميرة" كثيرا حتى اضطرت للرضوخ.

ظل "كمال" ينتقل من اجتماع لآخر ويجيئنا بوجه من مر عليه القطار
دون أن يصيبه بضرر، فقط الذهول، أسأله عن جدوى الاجتماعات اليومية
ولا أجد إجابة، ابتعدت اجتماعاته كثيرا عن فلسطين واقتربت من القاهرة.
كنت أراه كالقطة المحبوسة فى حجرة ولم تعرف لها مخرجاً، كان
كالعصفور الذى يندفع بأقصى سرعة محاولاً الهرب فيصطدم بأول جدار.
وقبل أن اغادر أوصيته ألا يغفل عن "غادة" ونهى، إذ رغم كل سخفه
وكأبته مؤخراً يبقى هو السند الأوحدهما. طوال أيامى بالقاهرة كانت
"غادة" تحترق بالغياب ونهى "تغرق فى بحر دماء تمرد على سكرى جسدها.

طالبة غير صامتة

لم ينقش صمت الطالبة الصامتة المذعورة تدريجياً كما يحدث فى كل الحالات المشابهة، بل بشكل مفاجئ وبدون سابق إنذار. جاء مساؤك وأنت صامتة وفى الصباح بدأت الكلام الذى لم ينته حتى الآن.. وكانك تعوضين الصمت منذ الولادة. تأملت ذلك الكائن الجديد الذى ظهر من خلف حجاب الصمت وانبهرت. كلام وحكايات وكلام وحكايات كانت كلها تليق بطفولتك الكامنة داخلك وتتساؤلاتك عن العالم. كان صمتك لم يكن سوى مرحلة تحضيرية للعديد من الأسئلة. حتى أركنا جميعاً المشكلة، كنت تتكلمين وتراقبين الجميع. لم تتورطى فى حكاياتنا فلم تكونى أبداً طرفاً فيها لكنك كنت تتألمين لألامنا وتضحكين فى أفراسنا وتحملين عنا بعض أعبائنا. ورغم كل هذا الانغماس كنت واعية أنك تقفين على الحدود. كنت واعية أنك لم تعبرى بعد، أنت هناك، يمكنك المغادرة فى أى وقت، لا يربطك بنا سوى أننا كنا التربة التى انقش صمتك فيها. وكما انقش الصمت انقش مع الزهد فى الأكل، فأصبحت تأكلين بشكل ملحوظ، تأكلين كل شئ وأى شئ وفى أى وقت. كان كل حياتك كانت مربوطة بهلب فى مكان ما وكان الهلب انفلت من مكانه ليطلقك حرة تماماً. لابد من هلب آخر يعيد ربطك هنا والآن، لابد من رمى هلب لتتورطى فى العديد من السياقات التى

تتعاملين معها كمشاهد تمر أمامك على شاشة. كانت تساورني مخاوف من قبيل أن تتحولى إلى متفرجة مثل "مصطفى"، متفرجة صفيقة مثله تماما. لاحظت أنك هدأت قليلا مع أمك ولكن ليس بالقدر المطلوب. كانت "سميرة" تطمئننى وتقول: "بكره تكبر وتحب زى بقية البنات". لكن الآخرين لم يتوقفوا عن السؤال: "الم تحب بعد؟" وكأننى مسئولة عن الإتيان بالحب. بل كأن الحب يقبع هناك ينتظر إشارة منا لياتى فوراً.

طالبة غير صامئة تتكلم وتقول: "لما أكبر عايزة أكون مخرجة"، نضحك ونضحك وأقول: "إنتِ كبرتِ خلاص، هنتخرجى السنة الجاية". نصرين: "لا.. لا.. أنا لسه صغيرة". كان وضعك وسطنا كفتاة مدللة يصدر لك شحنات من الأمان. كنا نستعجل كبرك وكنت تستمهلين طفولتك. كنت تراقبين حتى اصطفت "غادة" صديقة. لكن "غادة" تصر على أنك مازلت طفلة فى كل مشاجرة تفتعلها بسبب هواجسها القاتلة. تنسى "غادة" ما قالته وتعود صديقتك. فى عامك الأخير بالجامعة توقفت عن قول: "لما أكبر" ولكنك لم تتوقفى عن الكلام ولا الأكل.

ذاكرة جديدة

ولأنك توقفت عن أمنيات "لما أكبر عايزة أكون" فقد احتفلنا بالعام الجديد سوياً قبل مغادرة القاهرة، وكنت تفكرين فيما سترتدينه. كان لابد أن أخوض تلك الليلة لتختلف العودة الأولى عن العودة الثانية. اجتمعنا عند "مصطفى" بكل تعاليه عن العالم، وبكل قسوته في التعامل مع ضعفنا وبؤسنا ودموعنا وبلاهتنا وسذاجتنا أحياناً. لم اهتم كثيراً بصفاقة "مصطفى" التي تربكنسى أحياناً إلى حد مساعلة جدوى معرفته، فانا أعشق الاحتفال بالعام الجديد واستقبله بكل الطفولة المتاحة لدى، فستان جديد وصخب شديد وصوت جديد وروح جديدة كأنها جاءت لتوها لتبدأ من جديد. كل عام كنت أكرر نفس المشهد دون ملل أو تكرار، كل عام كنت أشارك في الجملة المعتادة: "السنة الجاية تبقى أحلى من اللي فاتت". كل منا يوجه رسالة للآخر في هذه التهنئة السخيفة، لكن كلنا نوافق ونهز رأسنا بحكمة وحب: "يا رب، إن شاء الله"، ولا نعلق. لدينا جميعاً ما نريد أن نمحوه من حياتنا لكي نبدأ عاماً جديداً بدونه وبدون أدنى شبهة أنه تواجد من الأصل. تاهبت لتلك الليلة بفكرة أن بضع ساعات ستمحو ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً. لكن تلك الساعات أعادت سنوات وسنوات. ساعات أضاعت فجأة كما لمبة قوية احترقت لعدم توافقها مع التيار الكهربائي، في تلك اللحظات

المعدودة التى أضاعت فيها تشكل السؤال وبقي معلقا فى الهواء المعتم. هواء القاهرة المراوغ المخادع الذى لا يدع لك فرصة الإفلات من الزمن وأنت جالس على الكنبه فى منزل "مصطفى" والموسيقى الهابطة تصدح تمهيدا لـ "شادية" ثم "نجاه" ثم "أم كلثوم". وعندما مرت ساعتان وبدأت أنزوى فى نفسى استشعرت الخطر الآتى، فهذا الانزواء يعنى أن هناك ولادة وشيكة لمعرفة ما تحت الجلد وداخل خلايا العقل، معرفة مضفرة بدقات القلب. أنزويت فى تلك الكنبه المريحة بابتسامة عريضة على وجهى وتمدد وتنكمش طبقا للموقف وللشخص (أتى كثيرون فى تلك الليلة). فكنت أتهلل لمن آمن إليه وأنزوى لرؤيتى من أعرف أنه قاهرى أصيل. أغادر مكاني تحت إلحاح لأرقص كيفما اتفق وأعود سريعا كمن أدى الواجب المطلوب. اقتربت الثانية عشرة ولم يتنازل "كمال" عن التقليد الذى كان قد ابتدعه منذ عدة سنوات، وبدأ "محمد منير" يصدح بأغنيته الشهيرة التى يشعر كل قاهرى أنها ملكه، بل كتبت ولحنت خصيصا له لأن القاهرى بالطبع معبأ بالهزائم ولذلك كنا جميعا نصرخ: "ولا انهزام ولا انكسار"، وكأننا نؤكد لأحد ما هناك يراقبنا، وليست سوى أنفسنا هى التى تراقب. قمت إلى الدائرة مرغمة، أمسكت يدك يا "روضة" من جهة اليمين ولا أنكر يد من من جهة اليسار، كانت "سمر" بكل فرحها تتمايل قبالتى وتشدو بالأغنية وكأنها أول مرة تسمعها، وكنت أنا أتابع المشهد بأكمله وبكل ادعاءات الفرحة والابتهاج وتداعيات السنوات. كم مرة أعدنا هذا المشهد من قبل، كم مرة

لنبتلناه؟ ولم لا؟ وكيف يمكن من موقعي على الكنبه أن ادين الآخر البانس الذى يفعل الفرع المبذل وأنا لا أقل بؤسا عنه؟ هل أجرو أن لدينه؟ هل أجرو؟ هل أجرو؟ لن ادعى بطولات متوهمة. هل أجرو؟ وهل أقبل أن أتغاضى عن كل القلوب المجتمعة الآن التى لا تصدر دقة واحدة دون حسابات؟ كل العقول التى أدانت فى لحظة بعضها البعض؟ كل من اختار لعب دور المتفرج لأنه خاف الخسارة؟ خاف أن تتلغم حساباته؟ هذا الوعي الشديد الضاغط لو يرحل ويتركنى أرفل فى سلام وأمان لكى أصم الآخرين بضمير مستريح وصورة رائعة عن الذات، هذا الوعي الذى يزداد حدة مع الزمن... هذا الخوف الذى يتحول إلى عبء أحاول التخلص منه لأنعم بلحظة نوم عميقة تلقى على الآخر كل ما يقدمه لى وعى مراوغ. أه لو أنطلق هكذا فى عالم الحكايات المحسوبة دون خوف من حساب عسير. كم من العداوات فى تلك الليلة تحولت إلى أشواق ستعود غدا فى الصباح إلى سالف عهدها من البغضاء. تعالى الافتعال حتى شعرت أن المكان أوشك على الانفجار. فى دائرة واحدة كان هناك الطيب والشرير والجميل والقبيح والبؤس يطل من أعينهم جميعا بشكل متساو. تمنيت لو كانت أرض الصالة التى نجلس فيها كهربائية تفتح تلقائيا فتهبط الكنبه إلى اللاقرار وأهبط معها بسلام، وهناك أمحو هذه الليلة من شريط الزمن. الكشف يزداد والمعرفة قاسية والحجاب ينحسر وينحسر حتى بدأ الضوء يتحول إلى نقاط بيضاء تتراقص أمام بصرى، لحظة شبيهة بتلك التى تسبق الإغماء، لحظة منفلة

من الزمن وهاربة من قواعده. وعندما عاد الضوء والصخب فجأة كدت أنتفض ذعرا لتلك العودة المباغتة، أدركت أنني لعب دور المتفرج، وأنا التي تكره المتفرجين. المتفرج شخص متعال بطبيعته، يشاهد المباراة والفيلم ليقيم ما رآه وليبدى غضبه من البشرية التي لم تستثمره منذ البداية، وهو متفرج لديه دائما بلاغة مطلقة تسمح له أن يسقط على الآخرين ما يمثقه في نفسه، يكشف ضعف من أمامه ليبقى هو هناك مع الأقوياء المنزهين عن كل خطأ. لكن المتفرج لا يعرف أنه جزء من المشهد، بل هو ربما أسوأ ما في المشهد، وأن وجوده هو الذي يحول الحدث إلى مشهد. المتفرج شخصية رئيسية وليست ثانوية، كل ما في الأمر أن تعاليه الفج يعميه عن هذه الحقيقة. كل متفرج مشارك بالضرورة، وكل أهل القاهرة متفرجون. ولكي أنفض عن نفسي شبهة الفرجة انتفضت من على الكنبه وشاركت في الصخب بكل قوى. كنت أفكر في "مهاب". أين كان؟ غالبا ما التقى بأصدقاء المقهى هؤلاء الذين يتعثر فيهم بالصدفة البحتة. صدفة لا تحمل أى شبهة قصدية في الاختيار.

لم يغادرني الوعي بموقعي كمتفرجة، لم أستطع الفصل بين البصر والبصيرة. كان الإدراك يقبع بحمله الثقيل على رأسي، ضوء قوى يكاد يعميني، جلبه لا يمكن تجاهلها، كصوت المنبه الذي ينطلق في الصباح وتجاهله لنسرق بضع دقائق أخرى فيوقفنا المنبه الداخلي. والسؤال يلح

حتى الصباح التالي: هل كنت داخل المشهد أم خارجه؟ لكن المتفرج يحتل الموقعين بمنتهى الفجاجة. محظوظ هو ذاك المتفرج الذي يغادر القاعة وضميره مغسول كندى الصباح على زجاج سيارة تقف وحيدة أسفل منزل أليق به بعض اللوحات الثمينة ومجلدات يكسوها الغبار وأرواح ثقيلة، وبمجرد إدارة محرك السيارة تجف قطرات الندى ويبقى الضمير مغسولا لا يورقه شيء. من أين كل هذا الحظ؟ ولأن حظي عثر دائما حتى في الأشياء الهامشية التي لا يرغبها أحد فقد ظل الحمل فوق رأسي والضوء أمامي والجلبة في سمعي.

استيقظت في العاشرة صباحا، نمت ثلاث ساعات فقط. لا ملاذ سوى الهاتف اللعين. أطرح نفس السؤال: "إيه رأيك في امبارح؟" كنت أبحث عن أى وسيلة لإسكات الطنين، الإجابة متكررة: "حلوة قوى، اتبسطنا قوى... قوى... قوى، كانت ليلة تحفة". أما "مصطفى" - وبعد نفس عميق من السجارة - فكانت إجابته مختلفة قليلا نظرا لكونه صاحب البيت: "أعتقد إن الناس اتبسطن"، أكبر متفرج ولقي ضمير مغسول. لا تهمه التفاصيل كثيرا، ربما لا تهمه مطلقا، يتصرف في تلك الليالي وكأنه مخرج يريد للفيلم أن يخرج في أحسن صورة ليحقق أعلى إيرادات، كل ما يأتى بعد ذلك أو قبله لا يهم. المهم هو الصورة الجيدة من كل الزوايا، كانت الألوان نقية والصوت واضحا والأداء محترفا. استخف "مصطفى" بنظريتي عن

التفاف البشرى وعن التواطؤ ولم يبد أى سبب لدعوته كل من كرههم وكل من "تأمروا" عليه، لم يهتم كثيراً بكل هذه التفاصيل التى أصررت عليها. لم أدرك حسابات "مصطفى" إلا فيما بعد. حسابات تسعى لتحويل الاكتئاب إلى انتهازية على سبيل الاستفادة من كل ما هو متاح. أمقت المتفرجين. أمقت مشاهدى الأفلام الذين يبدأون فوراً فى كتابة سيناريو جديد من وجهة نظرهم العارفة لكل الأمور، هم أنفسهم هؤلاء المشاهدون الذين يتطوعون بإعطاء التفسيرات التفصيلية لكل مظاهرة تحدث فى القاهرة ولكل جريدة جديدة تصدر ولكل زواج جديد، والقاهرة تموج بالمظاهرات والصحف والزواج والحب المجهض دائماً وأبداً. الفرجة فن أتقنه أهل القاهرة فى قدرتهم على غسل ضمائرهم ونفض أيديهم من كل شيء. المتفرج يقف مع كل الأطراف ويتفوق فى مادة الحساب ويضع رأسه على الوسادة ليلاً وهو مقتنع أنه تثبت بالفضيلة فى مواجهة كل الأشرار وأنه تعالى على كل الصغائر وأنه لم يتغير رغم سقوط كل ضعفاء النفوس أمامه. المتفرج هو الذى ينسج عداوات بالأمس وينساها فى الصباح. المتفرج هو الذى يؤمن أن الحياة تسير بدون اشتباكات. المتفرج. كم هو صفيق. لم يبق سوى أمل أخير. أهاتف "سميرة" وأسألها عن السفر تجيب بسلاسة: "الأسبوع الجاى هاقدم على أجازة بدون مرتب". لعنة السفر، لعنة تلك الآلة المسماة طائرة النسي تحمل أرواحاً إلى أماكن بعيدة.

أيام قليلة بقيت لى فى القاهرة ولم يعد هناك الكثير من الفرص لسفّض
شبهة الفرجة، والقاهرة مجنونة إن لم تشارك بكل قوتك تنفضك بكل قوة،
علينا ان نثبت دائما أننا أقوى من القاهرة وأقوى من حكاياتها المليئة
بالدروب والمفتقدة لكل بوصلة، البوصلة هى القرار... أن تأخذ قرارا فى
القاهرة فهذا يعنى انتحارا مدويا، ولم لا؟ على مر السنوات نسجت القاهرة
قرارات كل حواراتنا وألوان ملابسنا وأماكن جلوسنا ومساحة ابتساماتنا،
كانت تنسج القرار وتسربه عبر المتفرج، صاحب الفضيلة، الذكى البارع فى
الحسابات، اللطيف بدون أى تورط، الظريف، حكاء القفشات الجنسية،
العارف بكل حكاياتنا، وما لا نعرفه منها يقوم هو بتفصيله ليلائم مساراتنا،
صاحب اللاشئ الذى يلقي بنفسه فى كل شئ ليدعى فى النهاية معرفة
كل شئ وهو لا شئ. أستطيع الآن بكل هذه الجلبة التى تطن فى أننى أن
أنسج قرارا أقوى من قرارات القاهرة، سأبدو كذباة نصارع "شمشون"
ولكن لا مفر، الاختيارات محدودة إن لم تكن معدومة. أنا أو حكايات
القاهرة. من كل الغضب الذى اختزنه سأنسج قرارا أقوى من قرار القاهرة
المنسوج من حكايات واهية غير مكتملة، حكايات المتفرج الصفيق، حكايات
تحولت إلى قطعة قماش مهترئة مليئة ببقع الروح. حكايات تدفعنى للبحث
عن "شهاب" الذى لم ينج من حكايات القاهرة فكان أحيانا ينسجها ثم يتفرج
عليها أو يهملها ليذهب فى عالم آخر. وفى لحظة اشتعال الحكايات القديمة
التي نسيها ينظر للسقف أو يغمس فى حكي بدون بداية أو نهاية،

حكى ملء بالشروحات والتفسيرات والمرادفات والوقفات والوصلات، حكى
يحاول أن يكون حكياً. يعيد "شهاب" صياغة الجملة الواحدة عشر مرات
وكانه يحاول صياغة فكرة تبقى دائماً غير مكتملة.

ذاكرة إفلان

بدأت بقع الغضب تتشع على روعي، تبدأ صغيرة ثم تتسرب إلى النسيج فيزداد اتساع قطرها. في هذه اللحظات دائما يحدث أن أتعثر في أحد هؤلاء الرجال الذين يطرحون أنفسهم كمخلصي نساء البشرية من الأحران، كفاتحي مغارة الدفء والحنان. وسريعا أدركت أن المغارة لا ترى سوى أكوام من اليأس والضعف والازدواجية التي تعذب صاحبها. كانت المغارة خاوية يكاد يختنق من يدخلها من غبار الإفلاس العاطفي - ناهيك عن الفكري - كان جسدا بلا روح، جسدا ينتظر عودة الروح التي خرجت نقتات فضلت طريقها ولم تعد حتى اليوم، جسدا يعمل ويأكل ويتكلم ويضحك ويجمع المال وهو يبحث بعينه عن الروح الهائمة، جسدا إن لم يجد مبعثاه عند المرأة التي يتعثر فيها يوصمها بأنها "شخصية صعبة قوى". ولم أسقط في هذا الفخ، فقد كنت أعرف تماما أنني صعبة المراس ولا يرضيني إلا ما هو غير متوقع. ودائما ما انتهت حواراتي مع معظم الرجال بكم لا بأس به من السخف. فكل رجل يقترب من المرأة على أساس صورة في خياله. ليس ذنبي إذن، بل ذنب الصور المصنوعة. نموذج مكرر لا يستدعي حتى التعليق، غريب أن نتعثر في هذه النماذج رغم أننا لا نشبهها. هي الازدواجية التي تجعلهم يربطون بين صدفة وجونا في أماكنهم وبين إمكانية التمتع بنا قليلا، وعندما نسال عن

أى ضمان نسمع أقوالاً من قبيل: "حبي ليك هو الضمان" وتكون هذه آخر محاولة للحصول على تلك المرأة بأى ثمن. أما صاحب المغارة الخاوية فقد قرر أن يتمسح فى الفلسفة ويقول: "الحياة ما فيهاش ضمانات". صحيح، الحياة بها نساء بلهاء فقط ينتظرن هذه الفلسفة بشوق. وعندما سقطت عنه الورقة الأخيرة قال: "إنت شخصية صعبة قوى" وكدت أنفجر من الضحك، لأن السيناريو المرسوم كان يفترض أن أجزع وأرتبك من هول الصراحة وأنبهر من قدرته على فهمى. أجبت بهدوء: "عندك حق، بس عايزة أقول لك إن إنت أكبر ساذج قابلته فى حياتى، لأنك حافظ مش فاهم، وعلشان كده بتتسى كل الإسطوانات اللى بتقولها عن الأخلاقيات والحياة". واستمررت هكذا حوالى نصف ساعة، أقول له رأى فيه وودعته بمنتهى البشاشة، وفى المصعد قلت لنفسى: "دارت عجلة الغضب". نمت نوما عميقا فى تلك الليلة.

ذاكرة أمك

والعجلة عندما تبدأ فى دورانها لا تتوقف. أصبحت فى صراع محموم مع الزمن وكشف الحساب طويل، والغضب متشعب ومثلون، ينتظر أن أفك محبسه منذ زمن. تأتمنى أمك عليك يا "روضة" لكنها كانت غاضبة وكنت أنا غاضبة من غضبها. كان غضبها مرتبطاً بعدم فهمها لما يحدث. لم تفهم لماذا تركت كل هؤلاء النساء المرشحات أن يكن أمهات لك واخترت واحدة ليست منهن. هى لا تعرفنى ولم تعرف كيف تعرفنى. وكان الأمر كان يستدعى التجاهل مثلاً. لمدة عامين ظللنا أنا وهى ندور فى صولات غضب حذر محاذر وترقب يوشك طوال الوقت أن ينفجر ولكنه يصمد وكأنه يبذل نفسه، وكنت أنت يا "روضة" مركز الحلبة. كان اقترابك المفاجئ منى سبباً لنسج العديد من الحكايات التى لم نخضع لها، ربما لم تكن على دراية بوجودها. ربما قامت هى بطرح الأسئلة الخاطئة، ربما كانت تخشى أن تغادريها خلسة فى ظلام القاهرة، لماذا ترتعد الأم عندما تتكلم طفلتها رغم أنها انتظرت سنوات هذه اللحظة؟ لماذا ارتعدت عندما بدأت الحبو - الذى تحول إلى مشى - فى الحياة ومزقت من حولك جدران الغرفة وأغلفة الكتب اللامعة المصقولة؟ قلت لك لم أكن أبداً أما ولم أعرف كيف تشعر الأم. كل ما أقدمه ليس سوى ارتجال عشوائى. بالتأكيد كان لديها حكايات الأم،

حكايات تجعلها تقترب منى مسافة ثم تتراجع فوراً. اشتد المد والجزر وأنا باقية فى مكانى أحاول أن أهدئ من روعها غير المعلن فكنت أيضاً أقترب ثم أترجع. حتى الآن لا أفهم لماذا كنت تمرضين يوماً بعد يوم؟ تصيبك أعراض نادرة لا تليق بفتاة فى العشرين وهو ما كان يغضبنى بشدة. بعد مرور الكثير من الوقت أدركت أن لديك مواهب درامية مخبئة خلف وجه برىء.

فى إحدى الليالى التى كان ميعاد رحيلى قد اقترب معها أصابك أحد تلك الأعراض وهرب الهواء منك فكان المشهد مناسباً لفيلم أبيض وأسود حيث تموت البطلة فى النهاية وهى تنتظر بحب لكل من حولها. هنا تغيرت النهاية وانتهى بنا الأمر فى دهاليز مستشفى قصر العينى. كان والداك غاضبين، الاثنان معاً.... هى وهو. ربما الغضب من غدر الحياة الذى صنع هذا المشهد. فى تلك الليلة خرج الغضب، كان غضب والدك مكتوماً ومخنوقاً وكان غضبها صريحاً وعنيفاً. تمالكت أعصابى بقدر وكان السر فى هذا القدر، فلم أحاول مثلاً أن أهدئ الغضب أو أن أبث رسائل مطمئنة... كنت أنا بقدر أيضاً. كانت المرة الوحيدة التى اتفقا فيها أنا و"مصطفى" على رأى. وفى اليوم التالى ازداد صمتى وفى اليوم الرابع لم أعر اهتماماً لآى حكايات قد يثيرها ذهابى إلى المطبخ لأطهو لك. قررت أن أواجهها بكل حكايات القاهرة التى سقطت هى فى شباكها، أما أنا فلن أكون متفرجة، أنا

مشاركة بكل وجودى المزعج، كان هذا هو قرارى، هدم مخابئ الغضب والمغادرة. تعرفين؟ لا يسأل عنى أحد الآن سوى هى.

قطعنا رحلة طويلة من الشكوك ثم الحذر المستند على بعض التنظير حتى وصلنا إلى كم من المجاملات المكشوفة. كنت أسمع جملا من قبيل: "مرسى قوى يا عيشة. والله تعبناك معنا". كان الأمر بالنسبة لى مزعجا وكان بالنسبة لها مخيفا. لم أفهم سبب كل هذا ولم تفهم هى أيضا. وكما كان متوقعا قمت أنت بتعقيد الأمر أكثر، أعلنت ملكيتك المطلقة لمنطقة غير مسموح للآخرين بدخولها. لم تكونى لطيفة بالمرة، وامتزج سخفك الطفولى بكل هواجسك اللامعقولة ودراميتك الزائدة، وكان على أن اتساءل أحيانا عن جدوى كل هذا. لم يحل كل هذه التشابكات التى كانت موشكة على الانفجار سوى هى، فلقنتنا درسا ضمينا صامتا. كنت أنا متشبثة بتفاصيل لا معنى لها وكانت هى خارجها. معها بدأت أرى مساحات جديدة قابضة فى روحى، مساحات كانت معطلة بفعل النظر القصير. تتعطل نفوسنا أحيانا بسبب أوهام خوف وريبة، بسبب قصص لا تتوافر سوى فى عقولنا فقط، ويساهم الآخرون بكرم فى تغذيتها. نسيء الفهم لأننا فقدنا الأمل فى ذرة تفهم واحدة، يملكنا اليقين أن الدنيا ليس بها سوى أشرار ونحن فقط الأخيار. ينهار اليقين عندما ندرك حجم سخفنا المزعج بدون مقدمات. معها واجهت كل غبائى الذى دفعنى لإهدار مدى اتساع روحها... لديها مساحات رحبة لا

يمكن للأخريين مواجهتها، وكنت أنا أول الفاشلين في إدراكها. يبدو أنني
انجرفت في دراميتك كثيراً وصدقت روايتك.

ذاكرة الأربعين

بكل ذلك الاتساع المكتشف عدت لأجد برلين صحراء متسعة من جليد، مساحة من الأبيض ليس سواها. اختفت كل المعالم تحت الجليد وتلاشت كل الأصوات، كان حاجزا من الصوت يمنع عنى العالم بأسره... اللون الأبيض يخلق سقف الاختلاف ويوحده ويصنع منه شيئا واحدا متجانسا مملا. هبطت درجة الحرارة إلى ما تحت الصفر بكثير وهبط معها قلبي، كما نسمع طريقة قوية عندما نبدأ الدخول في النوم فيهبط القلب دون إنذار، كمطب هوائى شديد فى طائرة مازال أمامها عدة ساعات فلا يمكن التكهّن بالنهاية... مم يخاف القلب وقد تجلت له لحظة إدراك - مؤلمة - وشظية معرفة - قاسية -؟ مم يخاف القلب وقد وصل إلى أعتاب المكاشفة؟ ربما يخاف من الفقد، الفقد الذى سيخلف فراغا، سيخلف ساعات لن نقضيها كما قضيناها من قبل، أسئلة لن نحاول التملص منها كما كنا نفعل، وبشرا لن نتغاضى عن وجودهم الأثم كما توأطنا دائما، كلمات لن نمررها ومعرفة لن نؤدها. الخوف كل الخوف أننا لن نعود كما ذهبنا، وكيف نتعامل مع العتبة الجديدة؟ ماذا نعرف عنها؟ عتبة جديدة تشبه شارعاً فى القاهرة لا يمكن أن تتشابه بدايته مع نهايته وأحيانا ما تغيب نهايته، فقط يقرر أن يفضى لشارع آخر بدون أية مقدمات. ما الذى يقع خلف العتبة،

ما شكل الابتسامة وكيف هو ملح الدمعة؟ كنا نعرف القديم ونتحمل ملوحة دموعه وقهره وقمعه لكل ما فينا. تعلمنا المشى بجوع أبدى وغصة دائمة. ماذا نفعل الآن فى عتبة جديدة أثارها مختلف لم نعتده العين ولم يفهمه القلب؟ كيف وصلنا إلى تلك اللحظة التى وقفنا فيها خارج أنفسنا لننتفج على نفس جديدة، مازالت تقف متلذذة على عتبة تحجب وتكشف؟ عتبة مختفية مثل ما يسمونه فى البنايات "الطابق المسحور"، أقف على عتبة بين عالمين، بين مدينتين، بين طبقتين، بين لغتين، بين بينين. تنقلت منى دائما أدلة تثبت لا انتمائى، أدلة تشهد على تورطى فى جرائم لم أخطئ لها، فأطلب شوكة لأكل الأرز بدلا من الملاعق المتاحة، وأقول "مايكرو باس" بدلا من "مكرو باس" وأستخدم كلمة "اصغر" بدلا من "أقل"، و"مرسى" بدل "شكرا" و"دوريان" بدل "عفوا"، وأفكر فى شراء دراجة لأستخدمها فى شوارع القاهرة ولا أتقوه بلقطة بذينة رغم الغيظ الذى يملكنى ساعات طويلة ولا الحظ أى شىء مما يدور حولى فأدرك الأشياء عندما تكون قد انتهت تماما. أقول لسائق التاكسى "صباح الخير" وأنا أظهر العجلة لكى أختصر بعض الحروف فلا تبدو الصاد وكأنها سين، وأقول لجارتى التى دائما ما أقابلها فى المصعد بصحبة كلبها "بونجور" وأنا أضغط على كل حرف. نتأرجح لغتى فى القاهرة بين الانكماش والتمدد، حتى وقعت أول كارثة ووقفت أمام شباك التذاكر فى محطة مترو الأنفاق وقلت للرجل الجالس خلف الزجاج "عائزة نيكثايا من فضلك". أدركت من ابتسامته فوراً

اننى ارتكبت خطأ ما، دفعت بجنيته من تحت الزجاج واختطففت التذكرة وجريت وهو ينادى: "يا أنسة" وتطوع كل الطابور أن ينادى: "يا أنسة". والأنسة تجرى نحو رصيف القطار الذى تراه يدخل المحطة ويهدئ من سرعته فتشعر بالأمان وإذا بشاب يلهث ويقول: "ليكى ربع جنيه، ده أنا جريت وراكى من هناك"، فى هذه اللحظة بالتحديد فكرت فى الهروب مرة أخرى ولم أجد أى مخرج فقلت: "ممتكرة خالص". ابتسم لى نفس ابتسامه بانع التذاكر. هل كان يقصد؟

أربعون يوما والجليد يتساقط من السماء، كان ماكينة قطن مهولة لا تتوقف عن العمل، أصحو على الأبيض وأنام على الأبيض، لا أسمع صوتا إلا صوت زفيرى الذى لا يعلن عن نفسه إلا فى الشارع، كل يوم أخرج إلى الشارع أملا أن يضيف لون الأسفلت الأسود تغييرا على بصرى الذى بدأ ينمأهى مع الأبيض، حتى الأسفلت أبيض، أسمع زفيرى بوضوح ولا أسمع دقة كعب حذائى الذى أدب به بقوة على الأرض... فقط الزفير الذى يطرد كل المخلفات، كل الرطانة والعطن والتكدس الذى بدأ من سنوات، من قبل مجيئى... (وبأى حال جئت؟) اشتد الطرد ولم أحاول إيقافه، أقف فى وسط الجليد وأنظر إلى أعلى وأفتح فمى وأقول فى قلبى: "انصرف... انصرف... انصرف" هناك سر فى رقم ثلاثة، نستغفر ثلاث مرات والعيد ثلاثة أيام والطلاق ثلاث مرات والثالثة ثابتة. لكن الأربعين أيضا لا تقل

سحراء، ولذلك نرتدى الأسود حدادا أربعين يوماً (أو أربعين سنة) والحامل تبقى فى النفاس أربعين يوماً، والطفل يبقى لنا أربعين يوماً، و"موسى" ضل طريقه فى الصحراء أربعين سنة، وأنا سأكمل الأربعين، والروح تبقى هائمة فى الدنيا أربعين يوماً حتى تعتاد على مكانها الجديد وتسام أهل الدنيا وتمل بكاءهم ونواحهم فتقنع بعتبة جديدة وتترك كل ما لها وكل ما عليها، تتحول إلى ذكرى، موجعة أو مدهشة أو مبهمة، الكثيرون يغادرون لندرك أنه لم يكن هناك وقت لنعرفهم... لم يكن هناك وقت للكثير من الأشياء، لم يكن أبداً هناك وقت... مطلقاً كل ماملكه هو أن تثبت الروح ونمنعها من المغادرة فلا نكف عن تذكر ما قالته قبل أن تغادر وجرعة الماء التى شربتها والنكته التى أضحكتنا بها، نتحدث عنها كالجمال المطلق ونتنافى فى إثبات علاقتنا الوثيقة بها ومعرفتنا لها وشعورنا بغيابها، رغم أننا عندما نكون بمفردين قد لا نتذكر حرفاً واحداً، شحن الذاكرة لا يبدأ إلا كطقس جماعى اجتماعى يحاول إثبات وجود عبر الكلام عن الغياب. الكل يتصارع لتملك الغياب والبلدة تتوهج مع النحيب والعديد، هل تحزن الروح عندما تغادر؟

عندما غادر فجأة (هكذا تمرّد وغادر) توجهت للمشايخ أطلب منهم أن يعلمونى الاتصال بالأرواح، تقلبت على العديد من الدجالين حتى قابلت مسناً قال لى: "سببى الأرواح تستريح يا بنتى... ما ترعجيش عيشتهم هناك"، إلى هذا الحد كنت متمسكة بالروح التى غادرت. فى أول يوم كنت أنوح

أصرخ ثم أبكي، لأعيد الكرة من جديد. كنت أراهن أنني لو قتلت نفسي
 ، صراخاً سأغادر هذا العالم والحق به. ثم بدأت أتوجه للجالسين
 ، أسألهم: "هو مات ليه؟" اختلفت ردود الأفعال. البعض كان مضطرب أو
 ربما كان الخجل من السؤال، البعض قابلني بعاصفة استغفار، والبعض كان
 ينفجر في البكاء، والبعض غضب من السؤال بشدة وكأنها إهانة موجهة له
 بالتحديد. لا فائدة أعود لمكانى على الكرسي وأقرر أن أتجاهل الجميع لأنهم
 عاجزون عن فعل أى شىء. كانت تغضبنى محاولات وضع الأكل فى فمى
 حلسة. وكان يغضبنى كلام أمى التى كانت تتحب من أجلى وكان يغضبنى
 الصديق الذى تملك البعض فجأة: "خدى بالك الموضوع مش سهل. الحزن
 اللى بجدة لسة جاي". تمر الأيام واحتفظ بكلمة "ارملة" فى خانة الحالة
 الاجتماعية بالبطاقة. كل وظيفة أقدم لها تظهر التحفز والتثمر والترقب
 وحالما يقع نظرها على تلك الكلمة تتغير تماماً وتظهر تعاطفاً وتُشعر
 بالاطمئنان أنني لم أستول على نصيب من السعادة أكثر من ذاك الذى
 حصلت هى عليه. إلى هذا الحد كنت متشبثة بالتفاصيل، وحتى الآن أشعر
 أن أى تغيير فى خانة الحالة الاجتماعية هو بمثابة خيانة. لست متمسكة الآن
 بروحى الهائلة لكننى خائفة أن أتركها تذهب فلا أعود أعرف كيف كنت
 قبلها، أو أفقد طريقي فى القاهرة فلا يعرفنى أحد أو أسأل فلا أجد إجابة أو
 أبكى فلا أجد ملجأ فى دموعى أو أضحك فلا أجد صدى.

يتساقط الجليد ويهبط بطيئاً إلى الأرض وكأنه يتحاشى إزعاجاً أو مباغتة، أتتبع قطعة الجليد في هبوطها حتى تحط على الأرض فلا أميزها من المساحات البيضاء الشاسعة، أبحث عن تلك للروح الهائمة أملاً أن تكون قد أعادت النظر في قرار المغادرة وتكون راقدة هناك لتصنع لى مفاجأة وأوهم نفسي أن هذا كابوس، كل شيء على ما يرام، لم يحدث شيء، لا شيء تغير، الشتاء القارص يسبب انكماشاً للقلب... ولا فائدة. أوهم تعذب الروح التى تتوسل أن أطلق سراحها. بعد أربعين يوماً أدعها تتطلق وأطلق زفرة قوية يخرج معها دخان أبيض كثيف يصل حتى القاهرة ومازال صداها مسموعاً حتى الآن. انغمس فى العمل وفى شوارع برلين البيضاء لأحول عقلى إلى صفحة بيضاء.

لكن الصور لا تغادر، الصور أصلها ثابت وفرعها فى العقل والقلب. صورة أمى التى تحاول أن تضع الإبرة فى مكانها فى كم الفستان لتثبت أنها قادرة، صورة أختى التى تحاول استرجاع يوم واحد من الزمن الراحل، صورة "عادة" التى لا تمل من التعلق بالأوهام ولا تتخلص من هواجسها، صورة "نهى" التى تصر على مواصلة الحياة بنزيف لا يتوقف، وصورة "جميلة" التى تسعى للإمساك بفراشة فى خلية نحل. صورة أصدقاء ينعثون أصدقاء آخرين بكل ما لذ وطاب، صورة سنوات أخلصنا فيها لنتساءل الآن هل كان الإخلاص لقضية أم لبشر، صورة رجال صالوا وجالوا فى

مفردات اللغة ليبقى كذبهم المفضوح نهمة لا نعرف كيف نعتذر عنها، صور نساء لم تتلاش ابتسامتهن وهن لا يحملن سوى موت القلب، صور قصص كانت حبا رائعا ربما لم يخلدها سوى أنها كانت مستحيلة، صور إسقاط الرذيلة عليهم لنحظى بالفضيلة، صور الفرجة والمراوغة، صور الهروب من كلمة "أكرهك" أو "أنا أرفض"، صور محاولات أن نكون محبوبين دائما، دبلوماسيين إلى الأبد، ونحن لا نعرف أننا منافقون، صور الحقد الذي نحمله عبثا لنكتشف أن قانون الطبيعة أقوى من كل حقد، أسير في الشوارع بصور لأضيف إليها مزيدا من الصور، الحياة هنا والآن صورة كبيرة. صورة تتحشر في برواز عند الأربعين، فقط عند الأربعين الذي يسبقه فقد كبير يماثل حجم البرواز.

لماذا يفترض أن نعرف بالتحديد في اللحظة التي لا نعرف فيها أننا لا نعرف؟ ولماذا يتعامل معنا الآخر دائما وكأننا نعرف؟ هذا اليقين يجعلنا نتوهم أننا نعرف... نتوهم أننا نميز الصدق من الكذب، أننا نرى الطريق الذي لم يبدأ بعد، أننا نتقن المراوغة والكلمة بكلمة والهمزة بلمزة، أننا نفهم التحالفات وبالتالي نراعى الحسابات... كيف يمكن أن نعرف دون أن نشعر بنار النظرات اللائمة تتوجه نحونا، والوجوه السوداء تحوم حول حكاية، والسنة منطلقة في القسم تذكر أنها قالت... كيف نعرف. حتى الاعتراف بعدم المعرفة خطيئة لا تقبلها القاهرة:

- ما كنتش عارفة
- معقولة يا عيشة؟ كل الخبرة دى وما كنتش تعرفى.
- ما كنتش فاهمة.
- ازاي؟ ده كان واضح زى الشمس، كلنا كنا فاهمين!
- ما كنتش اعرف.
- واحدة زيك برضه ما تبقاش عارفة.
- والله ما كنت اعرف.
- ده كل الناس عارفة.

تَجبرنا القاهرة أن نحول إثبات مصداقية جهلنا إلى جهاد أصغر، ويبقى الجهاد الأكبر مع النفس لا ينتهى، اليمس هو الأصعب؟ فى لحظة غير معلومة تفقد القاهرة اهتمامها بجهلنا فلسنا الجهلة الوحيدين وهى لا تكثرث أيضاً بتصديقنا أو تكذيبنا، كنا صحابة عابرة فى سمائها الملوثة، والسحب كثيرة. أما نحن فنتشبث بكل صور جهلنا لنثبتها فى الذاكرة، تأبى أن تغادر، وفى تلك اللحظات التى تغضب فيها القاهرة تتجسد الصور وتتراص على جدران الغرف الخالية لتحاصرنا وتذكرنا فى حال النسيان. ولإكمال الجهل كنت اعتقد أن الصور ترتبط بالمكان، كنت أجهل أن الصور تسافر إلى آخر الدنيا وتتجول فى شوارع برلين البيضاء.

فى اليوم الأربعين غادرت الروح وبقيت الصور. ما الذى سيغادر عندما
أكمل الأربعين؟

بالرغم من...

صراع مستميت بين الصور، تحاول كل واحدة منها أن توجد لنفسها مساحة معترفاً بها، لكن الروح التي كانت تربت على كل هذه الصور غادرت ولم يبق سوى عقل شرس لا يفهم من اللغات سوى المنطق.. كلمة سخيفة لا بد من حذفها. منطق من؟ من الذى يضع قواعده؟ ولين كانت الدنيا قبل المنطق؟ يبدو أن "الناس كلها عارفة" دائماً، متى عرفوا؟ كيف كان حالهم قبل أن يعرفوا؟ والعقل لا يرضى بكل هذه الأعذار، يشن حملاته فى الأحلام وفى الكلمات المفاجئة التى أنفوه بها دون قصد وفى الشراسة التى تراكمت داخلي. فقدت كل "الطيبة" التى كنت أبعدها، أو ألقيت بها فى سوارع برلين، حيث لا يكثر أحد بما نلقيه، حتى لو ألقيت نفسى تحت عجلات مترو الأنفاق، لن يتحرك أحد مطلقاً. لن يبدي ركاب المترو الذين يحملون آلة موسيقية أو ينغمسون فى كتاب أى اهتمام بطيبة يتم التخلص منها بمنتهى القسوة أو بصور تلقى أمام القطار الذى لا يكثر هو الآخر، لن يهتم أى راكب إن كنت أكلم نفسى أحياناً، أو أذرف كما لا بأس به من الدموع، أو أبدو كمن سقطت على رأسها بنائية كاملة... لن يكثر أحد، ربما يكمن سحر برلين بالتحديد فى شدة عدم الاكتراث، فى أنها تدبر ظهرها للقاهرة وتتصرف عكسها تماماً... كل مدينة تتوق للاختلاف.

لكن برلين تختلف ليس لأنها تكرم الوحدة بل لأنها بعد أن تكرسها تتوق لكسرها.

يصيبني الملل من الأكل الإيطالي الذي تموج به شوارع برلين، أما رائحة الشاورما التركي فهي كافية أن تجعلني أسير في الاتجاه المعاكس. لست متأكدة إن كانت رائحة اللحم أو نوع من البهار الذي يضاف لها هو الذي ينفرنى. أشاهد الألمان يأكلون تلك السندوتشات الضخمة بشهية فاجرب حظى مرة أخرى ولا أنجح. أقرر أن أتوجه للأكل الآسيوى، مطعم صينى يقبع بهدوء على الطريق. أسير فى ممر صغير مزين بالورود والمراوح الحمراء على الجانبين، تقابلنى النادلة الصينية وتخطبني بالألمانية، أتجاهل ما قالتها وأتبع إشارة يدها وأجلس على الطاولة لأشارك رجلا كان يجلس إلى نفس الطاولة. تقليد متبع فى برلين، أن يتشارك البشر فى الجلوس إلى نفس الطاولات فى حالات الزحام الشديد. ورغم هذا التشارك تبقى الخصوصية. فى القاهرة لا نفعل ذلك ولكننا لا نؤمن بالخصوصية، لأننا نعتبرها تعاليا وانعزالا وجفاء. أطلب من النادلة ما فهمته ويأتيني الأكل بعد بضع دقائق. نتشارك أنا وجارى فى نفس مطفأة السجائر. أقربها منه فيعود بعد قليل ويقربها منى. انتهى من الأكل والتدخين وأخرج كتابى وأبدأ فى القراءة. كان جارى قد بدأ فى القراءة أيضا. بعد ثلث ساعة تجسء النادلة وتفهمنى أن هناك طاولة شاغرة يمكننى أن أنتقل إليها. نتبادل النظرات أنا والألماني وكأننا أدركنا أن الوحدة التى كسرناها بإيهام الصحبة قد انقضت.

بمجرد انتقالى يطلب الرجل حسابه ويستعد للمغادرة، أهم بفعل نفس الشيء. نواطت بصمت مع رجل لا أعرفه، حصلت منه على بعض الونس بمجرد الجلوس فى نفس المكان. هل كان هذا مقصده أيضا؟

حتى الروح غادرت وبقيت بلا صحبة، كانت تلك الروح تجذبني بعنف إلى القاهرة بأسرها متغاضية عن كل سخافاتا وحاضنة لكل عشوائيتها. الآن أنا وحيدة تماما بالمعنى الحرفى.. رغم كل الصور التى بقيت تمكنت منى الوحدة... يزيدها تلك الصور التى حاولت فيها مرارا أن أكون صحبة، صور كانت تشبه فى البداية صور كتب الأطفال: أم وأب وطفل تلفهم سعادة كاملة ومفاجئة، مجتمعين حول طبق يتصاعد منه البخار، ونظرات الحب والامتنان تفيض على جوانب الصورة. صورة اثينا التى خرجت كاملة من رأس زيوس، سعادة أسطورية، صورة... استعيرها من طبقات زمن تراكمت وتاديب مستمر ومواضيع إنشاء كتبتها فى المدرسة... صورة استعرتها من مكان ما... من أقلام... من أغان... من روايات... صورة تتحول فى النهاية إلى كابوس... صورة كانت تتوقع الكثير فخابت كل التوقعات. صور صنعها العقل ولا يغفرها الآن.

بالرغم من وهم رحيل الشتاء الذى يعيش فيه أهل برلين والاحتفالات التى يقيمونها للإعلان عن بقعة صغيرة غير مرئية من الشمس تبقى لسعة البرد باردة.. قاسية.. موجعة. وعندما أنسى أن ارتدى البلوفر الصوف الرابع أقول لنفسى إن هذا عقاب أناله وأستحقه. وكلما يتوغل البرد فى جسدى يزداد شعورى بالاطمئنان، ها هو العقاب ينهال على وهذا يعنى قرب الفرج.. الانفراج... القبول... المحبة... المغادرة... رحيل الصور. يلفنى الإحساس بالوحدة كإبرة تنغرز فى الجلد بدون مخدر... تمزق الخلايا فى رحلتها، أقول ربما ترحل الصور هربا من الألم.

ضجيج الصور يزداد والصراع يشتد والقاهرة تنذر بمخاض جديد.. القاهرة تولد من القاهرة، القاهرة تغير جلدها، القاهرة يعلو صوتها، القاهرة بدأت تنفض الغبار وتعلن عن مجيء مولود جديد، أخبار القاهرة لا تنقطع... تغيير ما يتولد، اختلفت لغة القاهرة، اختلفت ألوانها من على البعد، وبالرغم من كل غضبى أعود إلى القاهرة التى مازالت أمى تجذبني إليها مهما انقطعت عنها. عائدة إلى أمى أملا أن أجد الشجاعة الكافية لألقى بنفسى فى حضنها، كنت خائفة أن يظهر ضعفى أمامها لكيلا تبدأ فى البكاء. عندما تتضامن معى أمى تؤكد لى دائما أنها حزينة من أجلى وأن قلبها يتقطع حزنا على. ولا تصيبنى هذه الجمل إلا بمزيد من الحيرة، - والأهم - بمزيد من الإحساس بالذنب أننى

خبيث كل توقعاتها. ذاك الحصن إذن الذى أتوق إليه. حصن أمى التى تسكن
القاهرة.

عود على بدء

وكاننى لم أغادر، ولو للحظة واحدة. القاهرة كما هى تحاول جاهدة أن تتفرض الشيب من شعرها. أهل اللغة الإنجليزية لديهم استعارة أراها سخيفة، "تبيذ قديم فى زجاجات جديدة". استعارة اكتسبت سخافتها عندما ترجمت إلى العربية، تبدو كصوتى النشاز عندما أغنى لـ"أم كلثوم" أو أسخف قليلا. ولكن ماذا عن "تبيذ جديد فى زجاجات قديمة" من باب التمويه؟

جنين معارض بنمو وعملق متمترس يخبو فى أنظارنا.. "صحيفة الفيجارو تشيد بسياسة مصر الحكيمة"، "كوريا تشيد بعلاقتها مع مصر"، "توفير ٤٥٠ ألف فرصة عمل للشباب"، "اتفاقية الكويز تنعش السوق المصرية"، "تعديل دستورى فى المادة ٧٦"... يملكنى الملل من الصحف وشاشة التلفزيون. اعتدت على متابعة كل هذه الأخبار على شاشة الإنترنت، فلم أعد أعرف كيف أتعامل مع صحيفة فى يدي! أحاول أن أقرأ حرفا واحدا وأفضل، أحاول أن لنام كثيرا لأفضل بيراعة، أحاول أن ألتقى بـ"عادة" فأجدها قد عادت إلى طبيعتها وتحكى لى عن شخص جديد تريدنى أن أقابله. أهاتف "سمر" فتخبرنى أنها مرتبطة بميعاد برنامج فى فضائية ما، برنامج يتحدث عن الأمهات الوحيدات. أغضب من "جميلة" لسبب تافه

فيفشل غضبى ولا تصل رسالتى، أحاول أن أعيد وصل العلاقة مع "مصطفى" ليفشل هو من باب التّغيير وأقطع من الصفحة تماماً بعد مقابلة واحدة كنت قد مارست فيها ما تعلمته من القسوة... قسوة عدم البوح، أن تأخذ القرار دون أن تبوح به، أن تفهم دون أن تعلن فهمك كالساذج، أن تكشف الآخر دون أن تخبره. هذا هو أقصى عقاب جاد به عقلى. وما الجدوى أن نخبر الآخرين أنهم سقطوا؟ ربما أكون قد سقطت لدى البعض ولم يخبرونى. ربما.. ربما.. كل الاحتمالات مفتوحة وكل الخيارات ممكنة.

تفتح أمى الباب وتنقلص كل معالم وجهها استعداداً للبكاء الذى هو إعلان عن السعادة (هكذا نحن أهل القاهرة، نبكى عندما نفرح)، احتضنها وأربت عليها كثيراً، أتحمس كنتفيها وظهرها وأنشم رائحتها، لم تتغير، لم تزرها رائحة الشيخوخة بعد، تفوح منها رائحة البصل المقلّى والثوم ومزيج العرق الذى تضعه فى الصباح المختلطة رائحته بالعطر الفرنسى الذى تاتى به أختى من أسواق الخليج، لم تتغير. أربت لكل شىء فى القاهرة أن يتغير - بما فى ذلك أنت يا روضة - إلا أمى. أمى ورائحتها. تغيرت فقط أشياء بسيطة، تقلص حجم كنتفيها فأصبحت المسافة الفاصلة بينهما ضيقة للغاية، خف وزنها بشكل غير عادى، أما الأغرب فقد كان قصر قامتها بشكل مفرع. أمى التى كانت دائماً فى طولى أصبحت أقصر منى لدرجة أنه يجب أن انحنى لأطبع قبلة على وجهها. تلقى أمى نفسها بين ذراعى كطفل صغير

اطمان أخيراً على سلامة لعبته، أقبل كل ما أطولته: شعرها، جبهتها،
احتضنها بقوة لأؤكد لها وجودي، واررد لأمي - الأقصر مني -:
"وحشتيني... وحشتيني... وحشتيني قوي...." أدرك انكماش أمي ليتأكد
إحساس الوحدة.

يصيبني الفزع أن استيقظ في أي لحظة على غياب أمي، كيف يمكن أن
أعيش بلا أم ولو من على بعد؟ نتحائل دائماً على غياب الأب ولكن الأم...؟
أعرف أنها موجودة دائماً ولذلك أوجل الكثير من الأشياء، الكثير من
الأسئلة، والعديد من الأحضان، ربما يكون غيابها هو القطام الحقيقي، ربما
يكون هذا إعلان الخروج إلى الحياة عارية تماماً من كل حماية، ربما تكون
بداية الحياة. كانت كلما تغضب مني بشدة تقول: "اللي من غير أم حاله يغم".
أعرف هذا أو لا أعرف. لا أعرف إن كنت أعرف أو لا أعرف. كل ما
أعرفه هو أنني لم أرسم مساحة غيابها أبداً، أتصرف دائماً وكأنها متعيش
أبداً. الآن أعرف أنها ستغادر في أية لحظة دون إحم ولا دستور. لماذا
نحبهم عندما يكون الوقت متأخراً، عندما نكون قد أحبطنا كل آمالهم فينا،
عندما تكون قوتهم قد ذهبت تماماً. كأننا نعيش حياتين واحدة حالية والأخرى
مؤجلة دائماً. أين كنا عندما كانوا في أشد الاحتياج لنا؟

وعند ذلك...

قابلت "مصطفى" المقابلة القاضية والتامة والكاملة. المرة التي لا بعدها
أبداً مرة. "مصطفى" لا يغلى مع القاهرة، كما هو، لا يغير حتى موقع
جلسته، لا يغير حتى بداية كلامه: "إيه الأخبار؟" "مصطفى" الغارق في
الاعتيادية والاكنتاب. علاقتي بـ"مصطفى" لا تختلف عن علاقتي باللغة
الفرنسية. قررت عائلتي البورجوازية قلباً وقالبا أن تضعني في مدرسة
الليسيه الفرنسيه بالزمالك، فكنت أخرج من بوابة العمارة التي نسينا فيها
لأدلف من بوابة المدرسة إلى فناء واسع! (أحد أسباب التمرد فيما بعد)،
مدرسة كل ما فيها صارم، وجوه المدرسات، حتى الفسحة عبء على القلب،
المناهج صعبة، أصارع لأصل (صراع مبكر؟). كنت في الخامسة من
عمرى أصارع لألتزم بالكتابة على السطر لأفشل بالطبع، ويلازمني
الإحساس بالفشل، كان من المستحيل أن أكتب على أفقية السطر، لأنني كنت
صغيرة أم لأن التمرد كان مزروعاً؟ بذور التمرد تزداد ولا أعرف كيف
أسيطر عليها، حتى إنني لا أتذكر كيف تنفجر هذه البذور لتورق طريقاً
ضبابياً طويلاً من عدم الفهم.

لماذا عاقبتى مدرسة العلوم؟ أجاهد لأتذكر وعيًّا. كل ما أذكره أنها قررت أن تعاقبنى، أمرتني أن أجلس القرفصاء ووجهي مقابل الجدارين اللذين يشكلان أحد أركان الفصل، استمر العقاب لمدة حصتين متتاليتين كان يليهما ما نسميه "المرواح" الذي أجبرت فيه أن أتخذ نفس الوضع إمعانا فى المذلة، والعقاب والمهانة والتأديب... بالفعل تأديت، بطريقتي، لم أنس الألم فى ساقى ولم أنس الشعور بالإهانة ولكننى نسيت اللغة الفرنسية تماما إلى الأبد. بعد سنوات طويلة تجرى الفرنسية على لسانى مرة أخرى فى باريس. تظهر اللغة وتختفى تبعا لمركزية الشعور بالإهانة. فجأة تبدو الإهانة وكأنها كانت بالأمس وفى سياق آخر تبدو الإهانة بعيدة فى أزمنة مانت. ويتراوح الإحساس بها كما صعود وخفوت النغمات فى مقطوعة طائر النار لـ "سترافينسكى"، تصعد فجأة عالياً وتهبط لتكاد تكون غير مسموعة. عند هذا الخفوت الشديد أتوجه تلقائيا لأزيد درجة الصوت فى جهاز التسجيل، ليرتفع فجأة صارخا فى وجهي، حتى أدرك أنه من الحكمة عدم الاقتراب منه مطلقا، ليعلو ويخفت كما يشاء. وظل "مصطفى" يعلو حتى السماء ويأخذنى معه ثم يهبط فجأة على الأرض ويقول: "أنا كده". حتى جاء اليوم الذى قلت فيه بملء فمى: "وأنا بقى كده". هدوئى وابتسامتى الدائمة لا توحى لمن أمامى مطلقا بأى انفجار وشيك، كل انفجاراتى كانت كاملة ونهائية ومفرغة من أى إمكانية هدوء، تماما مثل كيس البين المفرغ من الهواء، ورغم إحكام غلقه تفوح رائحته فى السيارة فكل من يدخل يقول: "الله ريحـــــة الـــــبن حلـــــوة قـــــوى"

ولا يشاهدون آثارا لآى بن. وهكذا تبقى آثار انفجاراى صادمة على الوجوه.

كيف نتمرد فجأة على سنوات من الاعتياد؟ لماذا تفاجنتنا كلمة "لا" ونحن الذين كنا نقول "نعم"، من آى بنر فى تلك النفس العجيبة ينطلق التمرد والرفض واللاعودة؟ كيف تثبت الوداعة ومحاولات الحصول على صكوك الرضا من الآخرين كل هذه العدوانية الكاشفة الواضحة التى تتباهى بتقديم نفسها لعلاقة طالما كانت خافتة وبطيئة لم تختر لنفسها آى لون؟ ما الذى يحدث ليقرب شكلها وبضفى عليها ألوانا نارية؟ ربما عدة أشياء وليس شيئا واحدا. ربما عدة أيام، أو عدة سنوات، أو عدة حكايات، أو عدة حفلات، أو عدة جمل، أو عدة مكالمات، أو عدة ضحكات، أو عدة نظريات، أو حفنة من الادعاءات.

لا يمكننى أن احدد، كل ما أستطع أن افعله هو أن اصف لنفسى كيف انقلبت الأمور، كيف كان شكل الألوان بعد الرؤية الأولى. معرفة "مصطفى" كانت دائما كالعيش بنظارة نظر، قصر النظر هو ما كنت أعانى منه لالتصاقى بشاشة التلفزيون ولاستمتاعى بالقراءة وأنا مستلقية على ظهرى. قصر النظر الذى نعانى منه فى البصر ينتقل بشكل ما إلى كل علاقاتنا لتكون حياتنا بأكملها قصيرة النظر وقصيرة الأمد، فيتحول عذر "ما

كنتش أعرف" إلى "ما كنتش شايقة". والقاهرة لا تصدق كليهما. يخترع الطب ما يسمى عدسات لاصقة فكانى أرى القاهرة عبر شاشة، ومع السنوات تتماهى العداوة بين العدسات وبين غبار القاهرة، تعود النظارة بزجاجها الثقيل فرضاً ثقيلاً سخيلاً لمن لم ينجز الفرض من الصغر. أشعة ليزر تعيد النظر كما كان، حقاً؟ لا أذكر كيف كان. لم أعرف كيف كان، لم أر القاهرة مطلقاً دون وسيط، لم أرها أبداً وجهاً لوجه، لم نتواجه قط. هل أنا مستعدة لهذا اللقاء المفاجئ؟

وهل هناك معنى لجملة قديمة مثل "زمن قديم متراكم"؟ لغة كيتش، إعادة إنتاج للكيتش، للسخف، لبورجوازية متعفنة متراكمة متوطنة منذ زمن فى نظر قصير، نظر دأب على قبول الآخر لمجرد بضعة ادعاءات أمام الذات، من أجل حفنة فضائل أملتها كتيبات مهترئة تشجعنا على ضمان رضاهم عنا، من أجل هياكل فارغة أدركنا أهمية شكلها ولم نهتم كثيراً بمضمونها، من أجل مقولات رددنا مفرداتها مع صحافة تطنطن وتكرر ولم نع معناها لأنه بعيد عنا، من أجل كلام... كلام... كلام. من أجل جمل منمقة. صديق يعرفنى عن قرب يقول "إنت لسة خايقة لازم تقطعى كل الحاجات الللى بتشدك لورا". الأمر أبسط: القاهرة واضحة بدون نظارة.

بكل هذه المبالغته والمفاجأة رأيت "مصطفى" أيضاً، دون أدنى استعداد. من المستحيل أن نستعد لرؤية الآخر، خاصة إذا كان هذا الآخر كامناً في كل أركان حياتنا كاللغة تماماً. لم يكن غريباً إذن أن أدرك بصفاء نظر أن "مصطفى" لا يعيش إلا في قلب اللغة. اللغة تشكله فيعيد تشكيلها فلا يمكن أن نميز "مصطفى" من الحروف والسجع والصور والتشبيهات والممنوع من الصرف. يدور بك "مصطفى" في مناهات اللغة ليشكل الفكرة ويشكلك معها، فيتشكل الموقف كله ويتحول إلى مجرد كلمات. لا شيء يحدث. لا أحد يمر، فقط اللغة تدفعك ثم تجذبك صعوداً وهبوطاً، فقط اللغة. بعد سنوات ننسى اللغة وبالتالي ننسى "مصطفى" لأن كلماته كلها مستعارة من قاموس "زمن قديم متراكم". كلنا عند "مصطفى" صور وتشبيهات يحرص أن يضع نفسه خارج حدودها، يتيقظ لنلا يصيبه حرف متحرك أو حرف جر. في لحظة ما أدركت أن "مصطفى" ليس سوى مضاف، أما المضاف إليه فهو المكان بكل صخبه، لا بد أن يضاف "مصطفى" إلى المكان فيتحول إلى جزء من الانتهازية اليومية الصارخة التي تتحالف مع الشيطان في سبيل الحصول على أشياء، مجرد أشياء، لا ندركها إلا حين نجد تاريخاً للمكان القاهري. هو "مصطفى" الذي يريد أن يفعل كل شيء ليحافظ على كل شيء دون أن يفعل شيئاً، استهوته دائماً فكرة صنع تاريخ البشر وهو خارجه. لذلك كنت أرتعد كلما لاحظ غرقك التام في اللغة يا "روضة". لغة دواوين "درويش" التي تحفظينها عن ظهر قلب وحكايات

"إيزابيلا اللندي" التى عشت فيها زمناً. كنت أرعد لمجرد التفكير أنك لن تكسري قشرة اللغة لتخرجي إلى العالم بكل جملة المفككة. كنت على وشك الاستغناء عن الحياة والاستعاضة عنها بحياة الآخرين حتى لو كانت شخصيات فى كتب. "مصطفى" استهوته اللغة فكانت كالنداهة التى استدرجته ولم يعد، مضاف فى أعقد خريطة لغوية لا يمكن فك شفرتها إلا بإلقائها فى سلة مهملات ضخمة امتلأت بالكثير من مفردات القاهرة.

وعند ذلك كسرت أول حلقة فى قيد القاهرة: المضاف ليس سوى مزيد من الطنطنة.

عند ذلك... عند ذلك رأيت "مصطفى" بوضوح بسيط وغير مؤلم، "مصطفى" الذى جاء من قرية صغيرة فى يوم ما أصبح ابناً باراً للقاهرة بكل وحشيتها التى ترتدى قفازات حريرية. الوحشية التى تنقض ثم تتراجع تاركة للضحية فرصة لا تعنى أى شيء لتتنقض مرة أخرى وقد نسيت ماضيها، وحشية تبدأ من فراغ مهول ليس له بداية فى زمان أو مكان، وحشية محلية تزار فى وجه العالم وتسخر بالعالم كله لتنفرد بالضحية. وحشية تمتلك لغة، ولا شيء سوى اللغة.

ذاكرة عودة ثانية

الطقس معتدل كثيرا مع العديد من بقاع الشمس، بقاع كانت تدفع أهل
» ابن للتهليل وربما كانت أن تدفع بهم إلى البسملة والحوقة... الشمس التي
» منع المعجزات في أوروبا، لم يروا شمسنا من قبل، ولم يسمعهم لهيبتها.
» ابن هادئة تموج تحت بقاع الشمس المتوهمة، تموج بأحلام المستقبل
» حاول التخلص من ماض يؤرقها، ماض لن يمحي أبدا. قوة المحو لن
...أهـى أبدا قوة ذاكرتى!!

ساعات النوم كثيرة بل وتتكاثر. النوم والأحلام، كيف أتخلص منهما؟ لا
هروب من هذه القاهرة سوى في النوم فقط لتأتى مرة أخرى بمنتهى
السلاسة واليسر وكان لم يكن شيئا بيننا، لا عكارة، لا رواسب، استيقظ لنبدأ
معا صفحة جديدة.

برلين وشمسها وحفلاتها. أو ما يسمونه حفلات. الكل مشغول بالكلام،
الكلام، الكلام، كلما أجد كتلة تتكلم أبعد، أصبحت أخشى الكلام، وهل هناك
بعد كلام القاهرة كلام؟ يتكلمون عن الأبحاث وعن آرائهم في شكل برلين
بعد أن توحدت، وعن عصر النهضة والحداثة، يتكلمون عن حداثة

القاهرة وحداثة دمشق وحداثة بيروت، يتكلمون عن الحداثات، وينظرون لى. هل لأؤكد لم أنفى؟ غالبا ما أصمت وأنظر لهم بإعجاب، تبهرنى هذه الثقة التى تقدم نفسها فى شكل جمل مترابطة محكمة لم أنجح مطلقا أن أشكل واحدة تشبهها. ربما كانت جملى مفككة منذ كنت أخشى تفكك جسدى، جسدى الذى حاولت أن أجعله متوافقا مع متطلبات نظرة ما، نظرة أختى وأمى وزملائى. نظرة قاهريين لم يمنعهم الحياء أن يقولوا: "تخانة شوية مش كده؟" أو: "إيه ده ابرافو عليك خسيت". فى كل الأحوال كانت جملى مفككة ومازلت على يقين أننى محتفظة بهذا التفكك حتى اليوم، رغم أنه تحسن قليلا وتحول إلى جمل قصيرة مبتورة. الكل مغرم بالكلام عن الحداثة، وتؤرقهم دائما الحداثات الأخرى. أية حداثات والشوارع تغلى ولا قطرة ماء تنقذها، أية حداثة والكلام الجارح لا يتورع عن الخدش والتشويه فى شوارع القاهرة، أية حداثة تلك التى تجعل الشك والتشكيك هما مصدر الحياة، أية حداثة فى بلاد تضرب فيها الحمير والبشر بشكل متساو، أى حداثة فى بلاد احترفت حكومتها الكذب المستمر تكلمت بالنيابة عنا وأبدت خوفها من "السماح" لنا بالديموقراطية جرعة واحدة... لدى دائما مشكلة مع هؤلاء الذين ينظرون لأماكن بعيدة، لأماكن لم يعيشوا فيها، لم يتفلسوا هواءها، أماكن لم يعرفوا لهجتها ونكاتتها وشعورها بالمرارة، أماكن لم يقرأوا كتبها ولم يتهجوا نغماتها، أماكن أرانتهم دائما ولم يريدوها، أماكن انتظرت دائما أن تحصل على الشرعية من مكان ما، أماكن شكلت صورا

عن نفسها وصدرتها ولم يستقبلها الآخر، أماكن تحولت إلى أماكن لأننا موجودون فيها. هذا هو كل شيء.

في حفلات القاهرة مسموح لنا أن نصمت قليلاً، أن نظهر بعض الحزن، وكثيراً من الشجن، مسموح لنا أن نغيب في عوالم أخرى. نتشغل أحياناً بالمحمول أو باختيار الموسيقى الملائمة لمزاجنا أو قد نقضى الوقت كله في تنظيف طفايات السجائر كما تفعل "سمر". في حفلات برلين الصمت غير مسموح، الصمت يستدعي العديد من التعليقات والتفسيرات والتأويلات. الحفلة في برلين تقام من أجل الكلام. في برلين يتكلمون، يلتقون من أجل النقاش، من أجل المعرفة، في القاهرة نقيم حفلة لننتخلص من توتراتنا وأحزاننا المتراكمة. في برلين ينخفض صوت الموسيقى تماماً وفي القاهرة نستأذن الجيران لأن الموسيقى ستصيح عالياً. يقيم البرلينيون الحفلات لأسباب تختلف عن القاهريين. حياتهم تسير على وتيرة منتظمة قاسية، عمل من الصباح حتى السادسة أو السابعة، عشاء ثم نوم، ليبدأ اليوم التالي. الكلام قليل والإنجاز كبير. الحفلات للبرلينيين فرصة للتواصل، ليعرفوا كيف يفكر الآخر، ماذا يفعل، يناقشون كل شيء حتى آخر قطرة، يناقشون ولا يغضبون مثلنا من النقاش، يناقشون وفي اليوم التالي لا ينسون ما قيل، فيعيدون توظيف كل ما سمعوه في أفكارهم. في القاهرة يغضبنا النقاش إذا طال عن الأمد المقرر له، نشعر بالتوتر والقلق ونتساءل

عما يعنيه. تغضبنا الصراحة المباشرة ونبني موافقنا على أرائنا فى آراء الآخر. رأى على الرأى لننتهى بأكبر شبكة علاقات معقدة. فى حفلات القاهرة نتقنا دائماً الموسيقى بصوتها العالى من النقاش، فبنتهى الأمر أننا بعد سنوات ندرك أننا لم نستمع كما يجب.

فى إحدى الحفلات البرلينية المنمقة أتعرف على "سوزانا" الألمانية التى تبهرنى ببشاشة لم أعدها لدى الألمان. تتكلم "سوزانا" العربية بطلاقة ولا يمكن ملاحظة اللكنة إلا فى بعض الضمائر وحرف الكاف. تبادرنى بالتعليق المعتاد: "يقولون إنك مصرية"، أجيب بالعربية: "الحمد لله". تطلق ضحكة مججلة فادرك أنها تفهم العربية بحق. أبادر أنا بسؤالها: "إين تعلمت العربية؟" وكأنها كانت تنتظر السؤال: "زوجى مصرى، رجل رائع، تزوجنا منذ سبع سنوات لكن أهله يعاملوننى بجفاء لأننى لا أنجب، لذلك توقفت عن الذهاب معه إلى مصر". يبدو أن ملامح التعاطف ظهرت على وجهى مما شجعها أن تكمل: "هذا الأمر متغلغل فى ثقافتكم، المرأة لديكم ليست سوى بقرة". أسحب كل التعاطف، أنظر إلى عينيها مباشرة وأتخيل الاختيارات المطروحة أمامى. إما أن أنطلق فى محاضرة طويلة مكررة، أو أضع أعصابى فى ثلاجة وأبدأ نقاشاً عقيماً، أو أغادرها فى التو واللحظة. اخترت الحل الأخير. سئمت من الدفاع عن صور ومحاولة خلق صور بديلة، فكان أن قلت لها بمنتهى الهدوء: "وكيف أحببت رجلاً ينتمى لثقافة البقر، اطلبى

ينجحون فى إيجاد هذا الترتيب الواضح المتسلسل بنعومة ومهارة مدعمة بأسماء وتواريخ. أحاول أن أتذكر سبباً واحداً دفعنى حينها إلى الزواج من ذاك الرجل وأفضل فى إيجاد حتى ربيع سبب. فى الندوات والمؤتمرات أنقل إلى الإنجليزية فأناضل مرة أخرى لأنقل "حدثتى" العربية إلى ثوب آخر، لكن الحديث بلغة أخرى يجعلنا بالتالى آخرين، لا نكون نفس الشخص كما اللغة الأولى. حتى النكات والقصاصات تختلف، نبرة الضحكة تتخفص، ويزداد الاهتمام والتركيز ويظهر الجانب العملى فى حياتنا. كل كلمة فى الإنجليزية تحمل خطوة فى المعنى أما عربيتنا فقد أصبحت شبيهة لتصرّيات الحكومة، خاوية وصاخبة دون معنى. ألهذا يتكلم أهل القاهرة كثير؟ ألهذا لم أعد أجد الكثير لأقوله؟ ألهذا أصبحت مقتضبة بعض الشيء؟ أخرج إلى الشارع فتحيطنى الألمانية من كل جانب، لغة لا أفهمها لكننى حفظت أصواتها وألفت إيقاعها على أذنى. كدت أتعلم الألمانية ثم تراجعتم لكى لا تزداد الأنا وتتكاثر فاضل طريقى بينها. فقد بدأت فعليا أضل الطريق إلى لغة قاهرته. لا يشدنى لها الآن إلا "حنان" وعشقها لكل ما هو شعبى، تحب شعبان عبد الرحيم" وتغرينى بمشاهدة فيلم اللبى وتبحث فى أرشيف الأدب الذى يشبه روايات عبير والألغاز، وتلهث بلغتها العربية فى وسط القصاصات والمصطلحات. لغة "حنان" العربية تشبه القهوة السادة بدون "وش"، أتخيل "حنان" بلغتها فى مواجهة "مصطفى" بلغته. تحول "حنان" الإنجليزية إلى عربية، ولذلك فهى ككل الذين يتعلمون لغة جديدة

..نستخدم الألفاظ البديئة بسهولة ولا نحاول مثلنا أن نوحى بها أو ندور حولها أو نصفها أو نقولها بالإنجليزية مثلا كما نفعل دائما، فتشير إلى الحذاء بكلمة "نوز" وإلى المومس (التي لم نرها قط، لكنها صفة نطلقها على كل من لا نحبها سلوكها) بكلمة "بروستيتيوت"، ونتجنب وصف الرجال بالصفة المقابلة لمومس فنقول "زبالة". نحتاج إلى الكثير والكثير لنصل إلى الهدف، نالبا ما نفقد نصف عمرنا في محاولة قول أشياء نخفيها أو شرح قصة غير معهومة أو حتى في التعبير عن أنفسنا كما نحن دون موارد أو محاولة قول إزاء لا تزعج الآخرين - وهو مستحيل - . ولأننا نفشل دائما نلجأ إلى أسهل وأقصر الطرق التي نستطيع فيها الكلام كما نشاء: بدلا من أن نتكلم عنا ..نكلم عن الآخر بمنتهى الطلاقة والسلاسة والوضوح!

اتأرجح بين الإنجليزية والعربية، بين عربيتي وعربية "حنان"، بين إنجليزية الألمان والمانيتهم، ولا أعود أركز كثيرا في تثبيت المكان. كان المكان معتما سميكا كالشراب المركز فعملت للغات على تخفيفه حتى شف لونه وخف حضوره. إحساس مماثل لكسر شبكة "مصطفى" اللغوية.

أين ذهب الحنين والاشتياق؟ التعلق بكل التفاصيل؟ متابعة كل الأمور الصغيرة؟ حتى لغة القاهرة انزاحت مفسحة مكانها لأخرى لا أعرف مصدرها. عدت من القاهرة إلى برلين بفقدان ذاكرة تام. أتذكر عودتي الأولى إلى برلين حين وجدتني قد نسيت كيف تعمل غسالة الملابس وإن

كان يجب أن أضع الصابون في اليمين أم اليسار. وعندها استعنت بجارى الروسى وأخذت اعتذر فطمأننى قائلا: "لا عليك، عاد أصدقائى من روسيا وقد نسوا تماما مكان محطة الأوتوبيس". الكل إذن يعود مشبعاً وممئلناً بالمكان. هذه المرة عدت خاوية من المكان، احتجت عدة أيام لأعيد رمى هلب الحواس فى برلين، عدة أيام لم أفعل فيها شيئاً سوى النوم حتى استيقظت بفقدان ذاكرة تام. كلما أحكى حكاية تعاتبنى "حنان": "إزاي ما قتلش على الحكاية دى قبل كده؟" "نسيت والله يا حنان، ما انت عارفة، أنا بانسى بشكل فظيع"، وكنت أقول الحقيقة فأنا من أشهر فاقدى ذاكرة العصر، حتى إن رقم تليفونى المحمول مسجل فى شكل رسالة على التليفون نفسه، وهو ما لا يمنعنى من إعطاء الرقم الخاطئ لمن يطلبه لأننى أنسى أنه مسجل. لكن لم أنس مطلقاً نبض القاهرة، فقد كان زادى الأوحى فى الأشهر الستة الأولى فى برلين. كيف تمكن هذا النبض من الإفلات؟ وكأننى معلقة بين سماء بعيدة وأرض أبعد، وكان الحدود أصبحت حقيقة، ليست مجرد خطوط وهمية.

نقل اتصالاتى بالقاهرة وتبقى مكالمة يوم الجمعة لأمى ميعاداً مقدساً، مكالمة لا أجد ما أقوله فيها سوى "كله تمام"، "الحمد لله"، "كويسة والله"، "لا، مافيش أخبار خالص"، "أه، كويسين معاً قوى".... ثم اخترعت صيغة

أخرى لبرلين، فبعد إلحاح الأسئلة أقول "مافيش أى أخبار فى برلين، مافيش حاجة بتحصل هنا خالص". وبشكل ما لم أقل سوى الحقيقة، فبرلين ليس بها قصص أو حكايات سوى تلك التى نصنعها فتخرج كطفل الولادة القيصرية. ارس لدى فى برلين سوى إعادة صياغة لأخرج بمسودة أولى، ثم إعادة صياغة لأخرج بمسودة ثانية، فتتحول الحياة إلى مجموعة من المسودات التى لا يعرف عنها أهل القاهرة شيئاً، فى إحدى المسودات كنت خارج نفسى أنفجج عليها، وفى مسودة أخرى كنت فى أمستردام تنن أعصابى تحت ضغط صور للحرب العالمية الثانية فى المتحف اليهودى، وفى مسودة أخرى كنت أسير مع "حنان" ليلاً بعد خروجنا من المسرح وكل منا تمسك بكبس فشار بيدها وأقول لها: "دى لحظة رائعة، مش هتكرر أبداً"، فى تلك المسودة كنت قد أدركت سحر اللحظات التى تفلت ولا تعود، وفى نفس المسودة أجد مقهى على ناصية الشارع اسمه: "تابيولا رازا"، أتساءل هل لو دخلت ذاك المكان سأنجح أن أحول عقلى إلى صفحة بيضاء أخط عليها مسودات جديدة؟ مسودات كثيرة والصياغات تتكاثر ولا أحد يسألنى فى القاهرة عنها، لا أحد يهتم أن يعرف مسوداتى ولا إعادة الصياغة، نقل مكالماتى للقاهرة وتتلعثم الحوارات، فهم لا يسألوننى ولم أنجح فى إعطائهم صيغة السؤال. لكن "حنان" أيضاً لا تعرف ما الذى صاغنى ولا تعرف كم حقارة مارسيتها وكم بطولة افتعلتها وكم مرارة اختزلتها، ربما أنا أيضاً لا أعرف مسوداتها. كأننا نعيش زمناً مقطّعا من الزمان، وضعناه فى مكان وتظاهرنّا أنه البداية. ابتسرنا كل ما مضى ونحاول عيش اللحظة لتتكفى كل

واحدة ليلاً في بيتها وتعيد الصياغة. تحاول "حنان" أن تعالج هذا الابتسار فتهاقني في الصباح وتسالني تفصيلاً عما فعلته وهكذا يصبح لدينا ماضٍ معاً، وعندما تنفقت منا النكات وأقول لها: "فأكرة لما الرجل المتخلف ده قال لنا..." أدرك أننا نجاهد لنحفر مستقبلاً في لحظة أنية مقطوعة عما قبلها وعما بعدها. أما الألمان فلا هم لهم سوى أن يتأكدوا أننا لا ننوى البقاء في بلادهم، وعندما يدركون أنني لا أتكلم الألمانية يطمنون قليلاً فلا بد أنني عائدة من حيث أتيت. مؤخراً بدأت أصرح للألمان أن المعيشة في بلادهم "از ديفيكالت اند ديفرانت". دائماً ما يبدون رد فعل يوحى بالصدمة رغم تقى من ارتياحهم لقرارى.

أجاهد البتر وأتحامل على العرج الروحى لأهاتف "سميرة":

- أبوه يا "سميرة"، وحشتينى.

- "عيشة"، ازيك يا حبيبتي، عاملة إيه؟

- الحمد لله.

- طيب ثانية واحدة والنبي يا "عيشة"، أرد على الخط التانى.

نتكلم "سميرة" مع إحدى صديقاتها وتعدّها أن تتصل بها فور إنهاء "مكالمة من بره". نغادر المكان فنتحول إلى مكالمات من بره! تعود "سميرة" - معاكى يا عيشة.

- أخبار السفر إيه يا "سميرة"؟

- خلاص جوز أختي هيبعت لى الدعوة قريب.

أنهى المكالمة وتسرى فى أطرافى رعدة.

سألنى "مصطفى" ذات مرة فى إحدى رسائله (ليسوا سوى ثلاث): "إذن هل نمت قليلا؟ وهل كان الرحيل بلا وداع أجمل؟ وهل كانت الرحلة بالترانزيت أجمل من الرحلة المباشرة؟ وماذا عنك بين الوصول والرحيل؟"

ربما لابد أن أسأل مرة أخرى، الآن حان ميعاد السؤال. ماذا عنى بين الوصول والرحيل؟

استمتعت ببرلين حتى الثمالة لكننى واقعة أننى مازلت خارجها. أحفظ الطقس وأرقام الأوتوبيس وأشعر بالأمان فى شوارعها المتأخرة وأستخدم بقعة فكاوية المانييتى المتلعثمة القاصرة على بضع كلمات، وتبقى برلين خارج القلب والروح، تتملك جسدى فقط. تقترب منى برلين فى تلك اللحظات التى أنغمس فيها فى صور الحرب العالمية الثانية، أو أقترّب أنا منها. تثير هذه الصور الرعب فى وتمستفر كل أعصابى وتحتل اهتمامى، حتى إننى أتابع صور وأفلام تلك الفترة البائسة بولع شديد. تعظم برلين من بشاعة تلك الصور وتقدم نفسها كضحية مغلوبة على أمرها، وهو ما يفسر نجهم ببرلين فى وجهه أى زائر

جديد. تكاد شوارعها تكون رمادية اللون رغم كل الأشجار والزهور، التاريخ هنا يؤرخ له بقبل الحرب وبعد الحرب. ويطلق أهل برلين على حرصهم الشديد في الشراء "ثقافة حرب" ونسميها نحن "بخل"، فيتناولون كميات طعام هائلة وكأنه آخر يوم دائما ولا يتركون لقمة واحدة في الطبق. ولذلك عندما أترك الكثير في طبقى ينظر لى النادل بدهشة ولوم وعتاب. وعندما توجه أية مؤسسة ثقافية دعوة لحضور ندوة يكتبون في أسفل الدعوة ما سيتم تقديمه وهو غالبا "بريتزل". ضحكت كثيرا عندما قدموه لى فلم يكن سوى السميط الذى يدور به البائع على كورنيش النيل! كل ما فى الأمر انه مرصوص فى صينية بدلا من السلة التى يحملها البائع بفخر. الإحساس بالخجل من ماض أسود والرغبة فى النسيان والمحو يدفعان برلين إلى التظاهر أنها ولدت بعد الحرب وأنها لم تكن موجودة من قبل. وأتظاهر أننى لم أذهب إلى القاهرة قط. أتظاهر أن الحكى كان دائما باردا.

إلا أن...

أخبار القاهرة تتوالى فجأة، تتلاحق، تتسارع... الغضبة الكبرى بدأت من تحت الأرض وبدون سابق إنذار وبدون أى إعلان، نبئت الشرارة دفعة واحدة، هكذا من تحت طبقات صمت لم يشك أى منا أنها ستئن تحت وطأة الإفراط، الإفراط فى كل شيء، فى تعليق أجساد وإطفاء السجائر فى ثناياها، فى تجاهل وجود بشر يقطنون هذه القطعة من العالم، فى سرقة أراض لبست لهم، فى تحويل الجامعة إلى ملزمة، فى تحويل المدارس إلى زفة مستمرة، فى حشو العقول باللغو عبر الأزيز المستمر للتليفزيون، فى غلاء الأسعار وفساد السلع، فى مياه الشرب المختلطة بمياه الصرف الصحى، فى الوسائط والمحسوبيات، فى تجاهل الكفاءات لحساب رجالهم ونسائهم، فى التصارع على مؤتمرات الفنادق، فى قسمة البلد إلى نصفين، نصف لهم نطالعه فى مجلات سياحية براقعة وعلى قناة السى. إن. إن ونصف لنا نتصارع فيه جميعاً على سنتيمتر واحد فننهش فى بعضنا أو حتى أنفسنا. الإفراط المستفز الذى لا يمل التكرار، لنسقط فى فخ أخذهم على محمل الجدية! أتوق أن أعرف كيف يفكرون الآن، أنها "هوجة" وستنتهى، أم أزمة وستمر، أم أننا مازلنا نصدقهم، كيف يفسرون هذه الغضبة بعيون زجاجية، ما عادت ترى ولا تسمع منذ زمن. كيف يصنفوننا فى تاريخهم، فى وعيهم، مجموعة من المجائنين أم مجموعة من الإرهابيين؟ وماذا عن الذين يهاللون لنظام سرت العفونة فى أوصاله حتى شلت حركته؟ أين سيكون هؤلاء حين

الغضب الكبري؟ وأى مبرر سيقدّمون؟ ولماذا ينسون المثل الدارج "آخر خدمة للغز علقه؟"

كان القاهرة تمشى بالمقلوب، كأنها تمشى وهى نائمة، كأنها تسليخ جلدها نهاراً وترتدى حلة أخرى ليلاً. الكل يريد أن يحصل على شرف قلب القاهرة، الكل يقول إنه هو من حرّض وهو من دفع، وكمال يؤكد لى "لا، أنا مش معاهم، بس بياخدوا رأيي وباعملهم اللي هم عايزينه". أوصل دون ياس:

- ليه يا كمال؟ يعنى اللي هم عايزينه مش برضه اللي إنت عايزه؟
- اصل أنا مش واحد عادى، لازم يتعاملوا معايا بشكل مختلف.
- ينتابنى الغضب من كل الذين يعتقدون أنهم مختلفون ويعبرون عن هذا صراحة:
- كلنا مختلفون يا كمال، ولا أنت على راسك ريشة. أنا كمان مختلفة يا أخى.
- لا مش قصدى، فهمتيني غلط .
- أمان قصدك إيه؟

- يعنى مثلا لما باروح مظاهره أبص الأقيهم بيقلوا لى "متشكرين قوى
إيك جيت". طيب يا "كمال" إنت اللى وصلت لهم الإحساس ده. كأنك
تفضل عليهم. برضه ليه مش راضى تمضى على البيان، وفيها إيه يعنى
لما يقلوا متشكرين، على الأقل أحسن من الستات المتوحشين بتوعك اللى
فاكرين إنهم عاملين تنظيم سرى.

أفهم فى النهاية أن "كمال" أراد معاملة خاصة فعليا، وكل أسبابه وجدتها
غير مقنعة رغم تعاطفى التام مع الغليان الذى يعيش فيه، لكنه رغم هذا
يفعل الكثير فى أماكن أخرى. يحب "كمال" أن يكون موجوداً وغير موجود.
يجلس بجانب مريض يحتضر حتى يموت ثم يقول: "مش عارف، أنا عملت
كده وخلص، أنا ما كنتش أعرفه"، يحمل زهور تهنئة لعروس ثم يقول:
"مش عارف، الصراحة أنا ما أعرفهاش كويس"، يقضى ليلالى ساهرا مع
بشر ويؤكد: "أنا ما أعرفهمش كويس، باقعد معاهم بس كده". "كمال"
المضحى دائما! يسافر بسيارته الصغيرة حتى تسوق ليلتقط صورة للأطفال
فى مولد إبراهيم الدسوقي، لا تتوقف صورته عند الأطفال بل تمتد لتسجل
بائعى حلويات غامضة ملونة، بائع ألعاب نارية، بائع أشياء غير
مفهومة.. يعود وينفق كل ما لديه لتحميم الصور ثم يكبرها ثم يعيد تأملها
كلها مع الآخرين. أسأله: "تفسك تبقى مصور يا كمال مش كده؟" يجيب: "لا،

خالص، دى هواية بس". هل كان يعرف أن حلمه السرى سيتحقق يوماً ما.

أما "غادة" فقد كانت تتصرف كالمراقب طوال الوقت، حاولت أن تقوم بدور ولم تجد سوى إحباط فبدأت تخرج كل غضبها، وتقول بحنق: "هم فاكرين إنهم أخذوا الحكم ولا إيه، ده بس عربيتين أمن مركزى يلموا الليلة دى كلها. الواحد أحسن يتجوز ويقعد فى البيت"... هل كانت تعرف أنها تعنى ما نقوله؟ نقول ذلك فيهمس لى "شهاب": "تتجوز؟ نفى على قبرى!".

لكن القاهرة كانت تعرف، وعندما بدأت تحقق لنا ما كنا نحلم به أراد كل واحد فينا أن يلجمها، أن يسيطر على أنفاسها، أن يجعلها تتبع خطواته فقط، كل ما يخرج عن السيطرة مشكوك فيه وغير معترف به، علمتنا القاهرة أن ننبد كل ما نقع خارجه، أن نشوه كل ما ليس فى أيدينا، علمتنا القاهرة كيف ننسج حكايات نلوكها عن الآخرين لنصنع لهم مساحة مماثلة، أن نكذب لنجمل ما نملكه ونقبح ما لدى الآخرين. علمتنا القاهرة كل هذا ولم تعلمنا الاحتفاظ بذاكرة حقيقية فانتهى بنا الأمر إلى طبع عدة نسخ من القاهرة نوزعها طبقاً للسياق ولمزاجنا العام والخاص. لم تعلمنا القاهرة كيف نتعامل معها عندما تقرر فجأة أن تغلى. القاهرة تغلى وتغلى حتى إن قوانين الطبيعة تغيرت فلم تعد درجة مائة هى درجة الغليان بل وصلت إلى الألف

أو ما يزيد. أطل على القاهرة بعين ثابتة عبر شاشة الإنترنت، في هذه اللحظة تحديداً كان يجب أن أكون هناك، في قلبها بكل صخبها، لكن يبدو أن الأماكن لم تعد مهمة بقدر الزمن ودقائقه، فتغير الزمان يعنى بالضرورة تغير المكان. متجاوران ومتلازمان، لا يعنينى سوى أن أمسك بواحد منهم فقط، وإذا كان المكان يتسرب بالضرورة من يدي فلأحاول التثبيت بصيرورة الزمن الآن وهنا. لأحاول أن أشهد ولادة القاهرة هادرة جديدة. هل ستولد حقاً؟

ذاكرة الليمون

المقارنة بين تحولات الذات وتغيرات المكان قديمة ومكررة وتعيد ثقافة الأفلام العربية حين كانت الريح تشد والمطر ينهمر والعواصف تشد لنرى "سادية" تبكي بحرقة وهي تضع إشاربا على رأسها لتعلن عودتها إلى الفضيلة، لتعلن ندمها أو ألمها أو عجزها. هذا هو الدرس المستفاد من الفيلم بالإضافة إلى الدراما الموهلة التي يبعثها في نفوسنا والفرصة التي يوفرها لأمهاتنا كي يقلن "شافين، اتعلموا بقى وخدوا بالكم". المفارقة أن هذه الأفلام هي التي نشأنا عليها والتي غالبا ما ذرفنا أمامها الفانوس من الدموع والعواطف المخزونة التي لا تعرف لها مكانا أكثر أمنا من الشاشة. لكنها كانت المتنفس الوحيد لكل ما هو مختبئ وغير معلن، لكل رغبة ليس معروفا ميعاد ولانتهاء، لكل فكرة تبدو مستحيلة، لكل نزوة تبدو بعيدة. ومن منا لم يبك أمام فيلم؟ عندما كنت في سن المراهقة كانت ابنة خالتي تهمس سرا عن فيلم "قصة حب"، تتحدث عنه ثم تسرح بنظرها بعيدا - متعمدة قليلا - وتقول "أه". وعلينا أن نفهم. ولأننى كنت أصغر منها بكثير فقد كنت أفهم أنه يتوجب على فى تلك اللحظة أن أبدى عدم الفهم وأقاطع قائلة بارتباك: "مش هنروح نجيب لب بقى؟".... مضت السنوات وشاهدت الفيلم فوجدته مملا وكثيرا لكن ملائما بالطبع للمزاج المصرى الذى يعرف أنه هالك ولا محالة فى أية قصة حب. فالفتاة التي تحب "ترخص نفسها" والشاب الذى يقيم علاقة "راجل ما يعيبوش حاجة" أو "طيش شباب" أو "عيل

مش فاهم". ثم يتزوج ويحل بنبرة الواثق حدود العلاقة بين "الولد والبنت"، ويقول: "ده كان زمان بقى، شقاوة قبل الجواز". كل النساء مباحات قبل الزواج وكلهن أدوات بعد الزواج. فى تلك الأزمنة كانت خالتي تتباهى بالخلاط الكهربائى الذى أحضرته معها من ليبيا (عبر الطريق البرى) والذى يخلط الليمون البنزهير بالماء بالسكر فننظر له فى النهاية وكأنه معجزة القرن العشرين. فى القرن الواحد والعشرين أحضر عم "أحمد" فراش القسم فى الكلية خلطاً من مكان ما وانتشرت الجملة ذاتها فى القسم "واحد ليمون والنبي يا عم أحمد، خلى السكر قليل علشان الريجيم". حل الليمون محل القهوة السادة فى القسم (لكن الوقار دائماً ما يستدعى ذاك الفنجان المر، وخاصة عندما تنشب المشاجرات فى الاجتماعات الساخنة) التى كنت أصر دائماً أنها مصنوعة من بن مخلوط بالبسلة والفول السوداني، حتى إننى أقنعت "سمر" فى إحدى زياراتها الخاطفة لى بهذا فأخذت تضحك وتقول: "بسلة إيه بس يا عيشة، ده إنت عاملة دماغ، ياختى احنا لاقيين. أهى قهوة وخلص". تنهى فنجان القهوة فى رشفتين وتغادر مبتسمة: "هاكلمك فى اليومين اللى جايين علشان نعمل حاجة، نتلم شوية على بعض". أومئ موافقة وأكمل الليمون.

فى كل أفلام الأبيض والأسود كان الحبيبان يطلبان: "أتين ليمون من فضلك" وبشكل سحرى تحل المشكلة بعدها فوراً. يتزوجان أو يتصارحان أو نكتشف أنهما أخوان فى الرضاعة. هكذا نشأت على فكرة الليمون السحرى، وفى أول ميعاد غرامى لى طلبت كوباً من الليمون على يدّفع الحبيب المرتقب - آنذاك - أن يعترف بحبه لى ويؤكد أنه لا يستطيع العيش بدونى. لا أذكر من هذا المشهد سوى الليمون، لا أنكر ما الذى حدث بعدها أو قبلها، هل أحببى أم هجرنى أم هجرته، الليمون فقط يسيطر على الذاكرة ويحتل المشهد بأكمله. كان طلب الليمون قراراً مسبقاً ليس وليد اللحظة، هكذا يجب أن نسير الأمور.

تطورت وظائف الليمون وأصبح أهل القاهرة يستخدمونه لتهدئة الأعصاب. فى أى سوء تفاهم أو صوت عال يتطوع أحدهم قائلاً: "خلاص يا جماعة، صلوا عالنبى ووحداوا الله، ليمون بقى يروق دمك"، "لا، مش عايزة حاجة والنبى"، "ده ليمون خلط!" وكان الليمون اكتسب أهمية جديدة بالاحترام مع ظهور الخلط، الخلط، الخلط... جهاز كهربائى تحول إلى أحد أشكال المباهاة والتفاخر ولا تخلو منه قائمة جهاز العروس. حتى إن السؤال فى السبعينيات كان "عنده شقة؟" "عنده خلط؟"، ثم بالطبع أهدرت مكانة الخلط بظهور المكينة الكهربائية والغسالة الفول أوتوماتيك والكيتشن ماشين التى لم أفهم قط فيما تستخدم، كل ما تمكنت من الوصول

إليه هو أنها ماكينة مهولة بها كل أشكال السكاكين التى تدل على الشراء الخليجى. ولفترة طويلة ظللت مقتنعة أن خضروات الخليج لا يمكن تقطيعها بالسكاكين العادية التى نستخدمها.

مع النقطع المهول للذاكرة فقد الخلط مكانته وبقي الليمون فى مكانه. ربما كان له مكان دائما منذ أن جعل "أحمد عبد المعطى حجازى" الولد ينادى عليه "بالصوت المحزون". حتى اليوم مازال الصوت المحزون ينادى على الليمون فى كل إشارات القاهرة "تحت شعاع الشمس المسنون" ولكن بدلا من "بالقرش الواحد عشرون" يقول الصبى الصغير "الشبكتين بجنيه" ويبقى الكثير مما لم يقله حبس عينيه، وحبس صدورنا.

كل الكلام المحبوس يتحول إلى أشكال، تخفى الحروف المنطوقة وتظهر العلل والأوجاع. وعندما أصابت قرحة المعدة كل أهل القاهرة تراجع الليمون إلى الخلفية تماما ولم يبق منه سوى الذاكرة، "مسكين، لا أحد يشمك يا ليمون والشمس تجفف ظلك يا ليمون".

ذاكرة اتجاهات

وكان البرد يشتد كلما نتجه غرباً. برودة الطقس والوجوه تشتد في أقصى غرب برلين. تتغير الشوارع، تزداد اتساعاً، تتراقص الأضواء على الأسفلت، حتى المطر يهطل بشكل أكثر انتظاماً، كله في اتجاه واحد، خطوات السائرين سريعة، وجوههم تحاول اللحاق بفكرة تدور في عقولهم، فكرة حقيقية أو وهمية، يجرون وراءها من التاسعة صباحاً وحتى السادسة مساءً، يتحدثون وهم يلهثون، يضحكون وهم متوترون، يتوقفون لابتئاع بطاطس يأكلونها وهم سائرون، كل الحياة تدور بأسرع إيقاع، حتى سيطر على هاجس أنني لو تباطأت لحظة لن يترددوا في إزاحتي بقوة الدفع. حتى تلك الشعلة في وسط الميدان التي لا تنطفئ أبداً تتصاعد نيرانها وتتراقص سريعاً في الهواء. شعلة تيودور هويس"، أول رئيس لألمانيا، والميدان مسمى على اسمه، والشارع باسمه، ومحطة المترو أيضاً باسمه. كنت أسميه دائماً الميدان "البرد". لكي أعبر الناحية المقابلة من الشارع لأبد أن أمشي بممر حديقة كبيرة لونها أبيض في الشتاء وبها ألوان كثيرة في الصيف. اخترق مساحات بيضاء لأجد نفسي أخيراً في الناحية المقابلة، أتجاوز محل الآيس كريم، ومحل البن، ومحل السجائر والمجلات واليانصيب، وأدلف إلى سوبر ماركت كايزر، أي قيصر. أبتاع أشياء قليلة بأموال كثيرة وأثناء استعدادي للرحيل أرى الجليد يتساقط بهمة ونشاط، وأج : الأسفلت وقد

اكتسى تماماً باللون الأبيض. لا أخفى استيائي وأخرج إلى الشارع ليصطدم
نظري بمشهد سمرنى مكانى. شخص رث الثياب، بنطلونه مقطّع، ونصف
واقف، يحمل لافتة مكتوباً عليها جمل كثيرة، وهو بالتأكيد ليس المانيّا،
أوشكت ركبته أن تختفيا تحت الجليد، ألمح عملات معدنية متناثرة فى القبة
أمامه لأرمى بكل ما معى وانظر له كثيراً ليعرف أننى أدرك وجوده. ما
العلاقة بين هذا الرجل الراكع وبين الميدان البارد؟ ما الذى دعاه إلى ترك
برلين كلها والمجئ هنا؟ لماذا اتجه غرباً بدلاً من الاتجاه شرقاً؟

ذاكرة تحاول

منقطعة ومتشرذمة أصبحت ذاكرتى، لا أستطيع الإمساك بالأفكار. كلما أقبض على الفكرة تتوه منى. بدأت بتعاطف المكان مع الذات وانتهيت إلى الليمون. ما هي تقاطعات الروح والليمون؟ ربما كانت محاولة أخيرة لا واعية للإمساك بالقاهرة، محاولة لتثبيتها في الذاكرة عبر استعادة رائحة ليمونها. أو محاولة الإمساك بخيط يلضم صوراً متفرقة لا معنى لها دون سياق. ربما كان الليمون إحدى الأفكار الهاربة التى تطير منى فى ربيع برلين، أفكار تتطاير وتطير وتهرب كالزئبق. كأننى أسير على قطع زجاج ثم أغوص فى تلال من الرمال لأجد نفسى فى عرض البحر. ليال من الأرق، وقلة ساعات النوم تدفعنى إلى الجنون، فهمت الآن كيف يعذبون المعتقلين بحرمانهم من النوم. أنام أو يغشى على ساعتين أو ثلاث لأستيقظ وكأننى لم أنم.. ساعتين أعيد فيهما تصوير أحداث اليوم وصوره وسخافته. هناك تواطؤ دائم بين الأرق والسخافة. أستقيظ واتحسس رأسى لأتأكد من وجودها. إحساس خرافى بالخفة، رأسى ليست هنا بل هناك، ولكن أين بالتحديد؟ أسبوع كامل بدون نوم، فقط شئ يشبه النوم. مع قلة النوم أو انعدامه يكون الإحساس بالخفة ثم يبدأ الحصار. تضيق دائرة الأفكار تدريجياً حتى تتحول إلى ثقب ليرة فى حجرة معنمة، وتتركز نهاية العالم فى محاولة إجساد كـ_____ارت بـ_____ه رفـ_____م

تليفون صديق في هولندا لم ارسله منذ سنتين. والحقيقة أن المراسلة لم تكن مطلبا ملحا في تلك اللحظة، لكن عقلى لم يرد أن يتزحزح بعيداً عن هذه النقطة. أقلب الحجرة رأساً على عقب والصداع يدق في رأسى كالمطارق، أمنح نفسى استراحة ادخن فيها سيجارة ثم أعاود البحث الهيستيري، أتخلص من أوراق وأنظف الكتب من التراب المتراكم وأنظر فى قصاصات ورق ببلاهة محاولة التعرف على الخط ثم أتذكر فجأة أنه خطى. لا يهم. أين الكارت؟ محاولة يائسة لإعادة ترتيب الأفكار أو ربما الحياة.

اسبوع كامل أسقط بعده من الإرهاق والتعب بفعل حبوب عشبية منومة. وعندما استيقظ أبقى فى السرير وأنظر حولى بتعجب، كأننى عائدة من أطول رحلة مشياً على الأقدام. أسقط نائمة مرة أخرى ولا يوقظنى سوى الشعور بالجوع. أتناول بشرامة كل ما أجده أمامى فى الثلاجة، قطعة لحم تحيطها الدهون، كوب زبادى بالفراولة، قطعة جبن يتيمة ألثمتها ثم ألقى علبتها الكرتونية فى سلة النفايات، بضع حبات لوز متبقية من شىء ما.

أتوجه إلى جهاز الكمبيوتر الراقد بوداعة على المكتب، جهاز صغير يفتح على العالم بأكمله. حتى الآن لم أستوعب هذه القدرة التكنولوجية المذهلة، الاعتياد فقط يجعلنى أغض البصر. أضغط على أيقونة البريد وأستمع بتلذذ إلى الصوت الذى يعلن وجود رسائل، أغمض عيني، من يا ترى؟ "سمر" و"كمال" و"سارة"، وكم هائل من البيانات وإعلانات التضامن

والشجب والاستكار والرفض. أوقع على كل البيانات وأعلن التضامن التام (هل هناك خيار آخر؟). أقرأ رسالة "سمر" التى تعبر فيها عن قلقها من اختفائى لفترة، أبدأ فى الرد عليها، بعد السلامات والتحيات التى اختصرناها كثيراً على مدار السنوات، أؤكد أننى بخير (كنت أكذب): "إلا أن شيئاً ما هنالك فى البعيد فى الداخل، يحاول أن يخرج ولا فائدة. شئ... مجرد شئ، لا أعرفه ولا يمكن أن أحده. كأننى على وشك ولادة، لا أعرف إحساس الولادة لكنها بالتأكيد تشبه شيئاً كهذا، كأننى أرى الماء فى قاع البئر السحيقة، كأننى أسمع صوت عاصفة قادمة من مكان ما، كان شيئاً ما يحدث أو يتأهب للحدث أو ربما هذا هو الشئ نفسه"، تجيب "سمر" فوراً: "لا تقلقى ما سيحدث سيحدث حتماً، دعيه يحدث". إذن، ليحدث ما يحدث. فإن الانتظار يعود بكل قوة. تغيرت الجملة بعد ذلك وأصبحت: "استرخى وسوف يأتى ما لا بد أن يأتى". لم ولن استرخى إلا فى القاهرة. تتعجب منى "سمر": "معقولة يا عيشة سايبه الهدوء بتاع برلين ورامية نفسك كده فى القاهرة. ده أنا نفسى فى أسبوع واحد من هدوء برلين". أضحك وأقول: "يللا تعالى نبذل حالاً".

يقفز اسم "غادة" فجأة فى صندوق صغير أسفل اليمين على الشاشة. أضحك كثيراً من الاسم الذى اختارته لنفسها: "الحلوة اتكلمت". أنقر على

اسمها واكتب بشكل سريع: "ازيك يا حلوة؟ إيه الأخبار؟" أنتظر بفارغ الصبر رد "غادة"، تحتاج حوالى ثلاث دقائق لترد. أفضى نصف ساعة مع "غادة" دائما فيما لا يزيد عن عشر جمل. بعد تحيات "غادة" البطيئة والمكررة تكتب: "كان نفسى تقابلى "أحمد" وإنى فى القاهرة. معلى الوقت كان ضيق شوية". أسألها فوراً: "أحمد مين؟" بعد طول انتظار أعدت فيه كوباً من الشاي الأخضر كتبت: "أحمد الدكتور اللى اتعرفت عليه". إلى ماذا ترمى "غادة"؟ لم تكن أبداً مهتمة أن أقابل من تعرفهم. أسألها مباشرة: "هو فيه إيه؟" بعد طول انتظار آخر تكتب: "يعنى كده". أرسل لها على الشاشة أيقونة وجه يزمجر، فتكتب: "أصله عرض على الجواز وأنا وافقت". أستمّر أمام الشاشة كالمذهولة. القاهرة المجنونة، ماذا فعلت بـ "غادة" التى كانت تبكى حتى آخر لحظة والفقد كاد أن يفتك بها؟ أين ذهبت هواجسها؟ تناديني "غادة" على الشاشة: "عيشة، إنت رحت فين؟" أكتب: "ألف مبروك يا حبيبتي. بكره أكلّمك علشان تحكى لى بالتفصيل"

توجهت مباشرة إلى المعطف وارتديته ثم تلّمت بالكوفية الصوف ووضعت القبعة على رأسى وتوجهت إلى باب الشقة فادركت أننى لم أنتعل الحذاء. خلعت كل ما كنت قد ارتديته وجلست ارتدى الحذاء المخصص للمشى فى الثلج. ارتديت كل تلك الأشياء مرة أخرى وكنت فى الشارع فى ثوان. حجبت الكوفية فمى وجزء كبيراً من وجهى فلم يتخيل الألمان أننى أكلّم نفسى بصوت عال وأخذت أردد: "يا غادة يا مجنونة، يا مجنونة، إنت

والقاهرة واحد، يا مجنونة، يا مجنونة". لم أعرف الاتجاه الذى سرت فيه حتى تنبهت فجأة أننى محاطة بخضروات. أنا فى السوبر ماركت التركى. ليس هناك ما يجب أن اشتريه، فقررت أن ألعب. اخترت امرأة ألمانية مسنة وقررت أن أسير خلفها وأبتاع ما تبتاعه. لنكن كلنا مجانين. التقطت المرأة من قسم الخضروات شيئاً لم أفهمه قط، يتهافت عليه الألمان ولا أعرف فيما يستخدمونه. جزرتين وقطعة كرافس ضخمة ونصف درنة نَعْبَة القلقاس، جميعها محزومة فى أسك. ألتقط حزمة مثلها. موزتين مثلها. علبة قشدة صغيرة مثلها. كوب زبادى واحد مثلها. نوع لحم مجفف فى كيس مفرغ من الهواء. ترددت، فى هذه اللحظة وقعت عيني على علبة بلوبيف ماركة "ببفى". لم أصدق، التقطتها فوجدتها قادمة من القاهرة رأساً. القاهرة المجنونة تلاحقنى فى كل مكان.

ذاكرة الحاضر

لم أنتظر كثيراً، لكننى لم أفكر ولو للحظة واحدة أن الحدث سيحدث خارجى بكل قوة وعنفوان وشراسة، كل اللامتوقع، بقذارته وانحطاطه هبط على القاهرة بخطة مرسومة بكل الخبرة الفاشية، التى تختلط وتمتزج بكل لزوج الغياب. الغياب التام لأننى شبيهة شعور أو إحساس، غياب الخجل من المشاركة فى التواطؤ والكذب والخداع، غياب... غياب... غياب الوجود. هناك تواجد فقط.. تواجد لأجساد بهيمية كان درسها الأول فى الحياة هو قهر الجسد الآخر. أئسمر ثلاث ليال أمام شاشة الإنترنت وأجرى مكالمات للقاهرة بحوالى نصف راتبى الشهرى، وتتأبى فى ليلة نوبة بكاء عنيف رغم أننى كنت أحاول جاهدة أن أفك طلسم كتاب عن الحادثة، أبكى وأواصل القراءة فى الكتاب، أقوم لألتقط منديلا ورقيا وأعود فتتهمر بموعى مرة أخرى فاقوم لألتقط منديلا آخر. لم أشأ أن أضع علبة المناديل بجانبى لكى لا يكون ذلك اعترافا أننى أبكى ولكى لا أستجيب لمثبة الاستمرار فى البكاء. كنت أبكى على ما حدث وعلى القادم، كنت أبكى خجلا وغضباً وقهراً، كنت أبكى لأننى لم أملك شيئا سوى البكاء.

"ما حدث لا يوصف، أكثر من مائة شاب ضربوا حوالى عشر حلقات متتالية من سبعة إلى تسعة شباب حول فتاة من متظاهري حركة كفاية. بعدها أشار إليها أحد الضباط وقال: "هاتوا بنت الشرموطة دي". وأخذوا يمدون أيديهم عليها فمزقوا لها ملابسها حتى صارت أشبه بالعارية، لا يسترها إلا القليل جداً. ثم رماها أحدهم على الأرض وألقى بنفسه عليها، وبعض من داخل الحلقة يمسك برجليها ويديها والآخر يتعامل معها ويهتك عرضها وهي تصرخ بأعلى صوتها. أنا شاهدت الواقعة لأنى كنت فى دور علوى بالنقابة. من تحت مستحيل تشوف لأنهم غطوها كاملة ورأيتهما تزحف على الأرض داخل الدائرة تحاول أن تتخلص من هذا الحيوان فيقع عليها آخر وهكذا حتى كادت أن تموت، وعندما رفعها بعض رجال الأمن خوفاً أن تموت وجدناها عارية، ولا يسترها إلا الحقيبة التى فى يدها. تستر عورتها بيدها وحقيبتها، منظر فظيع. وبعدها بساعة ونصف تكرر المشهد وكأنه متفق عليه مع واحدة ثانية، نفس المشهد، شئء مرعب. تخيلتها أختى أو زوجتى ووجدتني مشلولاً غير قادر على نصرتها، أحسست بالعجز... شعور مدمر."

"امام ضريح سعد زغلول بحى السيدة زينب واثاء محاولة أعضاء حركة كفاية التظاهر السلمى للتعبير عن رأيهم، يقوم بعض البلطجية التابعين للحزب الوطنى بحماية قوات الشرطة، باختطاف فتاة وتجريدها من ملابسها ثم التحرش بها جنسيا ثم إلقائها عارية ضمن المتظاهرين."

"أمام نقابة الصحفيين بوسط القاهرة، صحيفة تحاول اللحاق بدورة اللغة الإنجليزية التى تتم بداخل النقابة فيعترضها بعض الضباط الذين يسلمونها بدورهم لبعض البلطجية التابعين للحزب الوطنى، فيقومون بتجريدتها من ملابسها تماما وضربها والتحرش بها جنسيا، ثم إلقائها بالشارع عارية تماما."

"أمام ضريح سعد زغلول بحى السيدة زينب، أثناء ضرب المتظاهرين من قبل الشرطة وبلطجية الحزب الوطنى، يتوجه أحد الضباط لمجموعة من البلطجية للاستفسار عن أسباب ضرب أحد المواطنين فيبلغه البلطجية بأنه كان يحاول الدفاع عن فتاة جردوها من ملابسها فيشير لهم بأن يكملوا ضربه."

"أثناء حصار نقابة المحامين بوسط القاهرة قام بلطجية الحزب الوطنى بمهاجمة المحامين داخل النقابة بالحجارة، وحينما حاولت فتاة الهرب وركوب تاكسى قام البلطجية بإيقاف التاكسى وجذبها من داخله وضربها وتجريدتها من ملابسها والتحرش بها جنسيا وتركها عارية مغشياً عليها أمام النقابة."

لابد ان أثبت هذه اللحظة وكل تلك المشاهد. لابد ان أسيجها في ذاكرة
تصونها لأحكي يوما ما حين تغادرني كل الحكايات العجائبية، حين لا يبقى
لدى أية أقصوصة، حين ألقى براسي المنهك إلى الخلف وأقول: "ياه، ده
أحنا شغنا حاجات كتير قوى". فى تلك اللحظة المستقبلية ستكون كل
الفاشيات قد انهارت وحلت مكانها إمبراطوريات جديدة "غير شكل" كما
يقول الشوام. المهم أن أثبت اللحظة، أجترها، ألوكها، أعيد حكيها، أعيد
إنتاجها فى شكل صور، أضيف عليها أصواتا، صراخا، شتائم، أبقيا حياة.
أحافظ عليها فى مجال البصر والتذكر، تماما كما أجلس فى الأوتوبيس فى
المقعد المعاكس لاتجاه السير. المقعد الذى لا يحب أحد أن يجلس فيه، ولذلك
فهو ينتظرني دائما. ينطلق الأوتوبيس فأتتمكن من رؤية كل ما غادره وكل
ما هو مقبل عليه. أجمع المشهدين معا. ما مضى وما هو أت، وهى لحظة
فريدة باعتبار أننا لا يمكن أن نعرف ما هو أت فى القاهرة مطلقا. ومن
الذى يعرف؟ ربما القاهرة أيضا لا تعرف. لم تحسب القاهرة حساب اليوم
الذى ستكون فيه البلطجة هى القانون. لم نتخيل أن نعيش أيامنا وليالينا فى
الاستماع لقصص البلطجة ومشاهدة كليببات التعذيب.

ذاكرة ممثلة

ذاكرة مكسدة تكاد أن تفيض، والخجل من اللقاء عيني بعيون القاهرة
بتملكني فاضع وجهي في الأرض، لا أملك سوى التليفون، "كمال" فاقد الثقة
في كل ما حوله ومهترّ تماماً وكان "سارة" قد غادرته للتو، أقول له كلاماً
كثيراً لم أكن مقتنعة به. "عادة" بخير ولكنها غاضبة ومذهولة، لم تخف
عنها فكرة الزواج الغضب، وعندما ذكرت اسم "شهاب" شعرت ببعض
الارتياح. أهااتف "سارة" على تليفونها المحمول فأجده مغلقاً، أحاول على
رقمها المباشر بالعمل، لا تجيب. "سارة" اللعينة التي لا يمكنها الجلوس
مكانها أكثر من نصف ساعة. ثم.. أوصل بكائي السخيف ولم يعد هناك
مكان لأية إضافات أو مكالمات أو أخبار أو حكايات... رأسي ثقيل وكأنني
أحمل سطلاً مليئاً بالمياه سينسكب في أية لحظة لأفيق وتعود ذاكرتي ناصعة
البياض وخالية من الصور. أتحرك في شوارع برلين كالأشباح التي تهيم
على وجهها بدون هدف، أخلط الاتجاهات وأستقل المترو في الاتجاه
المعاكس. أنكمش بداخلي تماماً وأترك جرس التليفون يصرخ دون أن
أتحرك لالقاط السماع، حتى قدرتي على الكلام تراجعت خجلاً أمام صور
القاهرة. أعبر الشارع أثناء الإشارة الحمراء للمشاة ليصرخ في وجهي سائق
إحدى السيارات، وعندما لا يرى أي ملمح للانفعال على وجهي ينطلق وهو
يبرطم بلغة لا أفهم منها سوى: "شكراً" و"غداً". "شكراً" استخدمها للحاضر

أما "غدا" فاعبر بها عن حياة مؤجلة، مؤجلة للعام القادم، أو: "لما الدنيا تهدي في مصر شوية" أو: "لما اخلص بس البحث ده" أو: "لما ارتاح شوية" أو: "لما ألقى الحب اللي بجد بقى" أو: "بعدين، بعدين، مش وقته دلوقت". الوقت يقف لى دائما بالمرصاد وأترك له الكثير من المساحات التى يهزمنى فيها.

ازداد تسلط الوقت مع الوقت على الذاكرة، فقررت أن أفسخ الارتباط الأبدى بينهما. كان شينا أشبه بجهد النفس، فقد كان الطبيعى أن أتصل بـ"حنان" واعتذر لها عن تلبية دعوتها لى فى مرسيليا بجنوب فرنسا. كنت شبه مخدرة وغير قادرة على الكلام فكانت الفرصة مواتية أن أقهرنى من باب التغيير.

فى الطائرة المتجهة من برلين إلى نيس القيت برأسى إلى الخلف وافقت على ألم فى أننى اليسرى، علامة الهبوط التى أتلقاها دائما فى الطائرات. فى الحافلة التى أقلتني من المطار إلى محطة القطار جلست أيضا فى المقعد المعاكس للسير لأمسك بما مضى وألحق بما هو أت. بضع ساعات أخرى فى القطار المتوجه من نيس إلى مرسيليا، بضع ساعات كنت فيها كأننى اثنتان، واحدة تحلق بعيدا وأخرى تجلس بلامبالاة فى المقعد تجول ببصرها

فيمن حولها وتحاول أن تسترد لغة أخرى ضائعة. أتجول في القطار لأبحث عن مكان التدخين، وعندما تصلني رائحة الدخان أدرك أنني قريبة. أدلف إلى المقصورة التي كان يجلس بها شاب وفتاتان واجلس في المكان الشاغر. يتبادلون النظرات فيما بينهم ويقول الشاب باللغة الفرنسية: "يبدو أنها تركية"، تملكني الغيظ وأجبت بالفرنسية: "هل تتحدث عني؟" "نو... نو... باردون". عادت اللغة فجأة. عبر النافذة تطالعني أشجار النخيل المجاورة لمبان مكتوب عليها: "كوت دازور"، أنتيب ثم كان ثم طولوز ومرسيليا تقترب. هنا إذن تتباهى البورجوازية المصرية، من هنا يحصلون على الختم "أه في الصيف هنروح مارينا وبعدين نطلع على الكوت دازور". تختفي أشجار النخيل والمباني رويداً وتحل محلها سهول وتلال تعلوها بيوت أنيقة صغيرة من ناحية والبحر من الناحية الأخرى، منطقة تسمى نفسها الريف الفرنسي! أضحك فجأة في القطار فيطالعني بدهشة كل من معي في العربّة ثم يحولون نظرهم عني سريعاً. لا يعرفون أنني أفكر الآن في الريف المصري وجمعيات تنمية المجتمع البائسة المنتشرة فيه وتوسلات الدعاية من أجل تحديد النسل وفتاوى الشيوخ إنها مؤامرة صهيونية.

بعد يوم طويل استخدمت فيه كل وسائل المواصلات، المترو والطائرة والأوتوبيس والقطار كانت "حنان" بانتظاري لتحملني في السيارة إلى أعلى مكان في مرسيليا. "حنان" مرسيليا لا تختلف عن "حنان" برلين، كل ما

فى الأمر أن بوصلة مشاعرها تتغير قليلا. ففى مرسليليا بخف جسمدها ويخلق عقلها بعيدا وكأنه فى برلين أو القاهرة أو ربما يستريح، تخفت ابتسامتها قليلا وتتزوى أكثر... لا تحتاج أكثر من هذا فى مكانها، فى منزلها، فى مركزها. فى برلين "حنان" تفكر فى تأثير الاستعمار على العالم العربى وفى مرسليليا تفكر فى سلطة البطاطس والمكرونة التى لابد أن تعدها من أجل الاحتفال بعيد ميلاد زوجها. كم قبة ارتدتها "حنان" فى عبورها الدائم للحدود الفاصلة بين برلين ومرسليليا؟

فى يوم الاحتفال كانت "حنان" بالفعل متوترة طوال اليوم، وتوتر "حنان" صامت دائما مما يزيد من حدته. تقلق "حنان" على تفاصيل صغيرة وتغادرها كوارث كبيرة، ولكن فى كل الأحوال لا تغادرها هواجسها التى تعبر عنها بكل وضوح وبساطة لابد من الاعتقاد عليهما مع الوقت. توغل الاحتفال فى ظلمة الليل فجلست على الأرض فى مواجهة صديقها المغربى - تذكرت الآن فقط أننى جلست فى الاتجاه المعاكس أيضا - وسألته مم يخاف؟ تلقى سؤالى ببساطة وقال: "البنى آدم". صديق "حنان" مفتوح على العالم بقوة وبلكنة مغربية حادة تعلن عن نفسها بوضوح فى فرنسيته. يومه حركة دائمة دائبة لا يرهقها سوى وعيها بالإرهاق، حركة توشك أن تصطدم بنفسها لتشل حركتها فتباغتها بالهرب ببراعة، حركة يسبب تتبعها بعض التوتر فكان أن قررت التزام الهدوء واللامبالاة التامة حتى لا أصطدم بها. فإى حركة منى فى هذا المدار المشتعل قد تسبب أكبر انفجار. يدخل

وخرج وينسى إلقاء التحية، يبرطم ويضحك، يأكل ويدخن، يجرح نفسه
ويتعجب ثم ينسى نقاط الدم وينشغل بشيء آخر. كيف إذن يخاف من البشر
وحركته تستمد اندفاعها من البشر؟ ربما يختبئ خلف تلك الحركة السريعة،
خلف عشق البحر، خلف السمرة الداكنة، خلف الشعر المسترسل بلا ضابط
ولا رابط، خلف ملاحظته للتفاصيل وإظهار عدم اهتمامه بها، خلف مزج
الفرنسية بالعربية، خلف ممارسة العربية الشديدة بفرنسية محترفة، خلف
إيمان لا يرى غضاضة في سيجارة حشيش وكأس نبيذ، خلف هوس بابنته،
خلف ابتسامة عريضة، خلف حياة محتملة في مكان ما في زمن ما وأخرى
يعيشها بعنفوان هنا والآن. لابد أن يخاف البشر، ولكن لابد أن يحتفى بهم
منهم كما أفعل دائما.

ذاكرة مسلوية

أعود إلى برلين لأجدها غارقة في المطر والرمادى. تتملكنى حالة من الانقباض، لا يمكن أن أتحمل مزيدا من الرعد الذى يخلع قلبى والبرق الذى يجعلنى أهب مذعورة من النوم. البرد يأكل روحي وينخر فى راسى، كنت مستعدة أن أتنازل عن أى شيء مقابل قطعة شمس أصغر من كف يدي. أدور فى الحجرة حول نفسى حين يفارقنى النوم وعندما يأتى يصطحب معه عددا لا بأس به من الكوابيس. أستيقظ فى اليوم التالى وكاننى خارجة للنو من مشاجرة بالأيدى والأقدام، أنظر فى المرأة فأتعرف على نفسى بالكاد وأنفجر فى البكاء وأردد بصوت عال: "أنا خلاص هاموت بجد". لن ينقذنى سوى القاهرة التى أبحث عن روحها بإبرة فلا أجدها. أتوق إلى الكلام بمصريتى، أريد أن اسمعنى أنطقها. كل شيء يمكن تهريبه من القاهرة، كل شيء يمكن حمله، إلا الروح. روح القاهرة فى القاهرة. لماذا غادرت القاهرة؟ ربما لأعيد غزل هذه الروح من على بعد، ولأتعجب من كل هؤلاء الذين يقولون: "البلد دى بقت خنقة خالص، الواحد عايز يهيج فى أى حنة، خلاص بقى أنا مش طايق القرف ده". أو مثلا: "إيه اللى يرجعك يا بنتى خليكى هناك أحسن".

عندما حان ميعاد سفرى للقاهرة كنت قد تعذبت بها حتى خفت ألا تعرفنى، أحببتّها حتى كدت أقتلها. فى طريقى للقاهرة أتقل بين المطارات بخفة ولا أشعر بتعب الرحلة. أتعامل مع الطائرة وكأنها حجرى الخاصة وأنظر للأشياء حولى وكأننى أحفظها عن ظهر قلب. أعشق كل المطارات التى تساعدنى على الوصول للقاهرة. بمكالمة تليفونية أستدعى تاكسى ليقبنى لمطار تيجل ببرلين، حاول صديقى الألمانى أن يقنعنى أن أسقل خط المئرو مباشرة من أمام منزلى لمسافة خمس محطات ثم أسقل الأوتوبيس لمحطتين حتى المطار لكننى رفضت الفكرة وقررت أن أدفع اثنى عشر يورو مقابل اختصار الزمن والمسافة. أصل المطار وأنا شبه مبتسمة، أبحت سريعا عن الطائرة المجرية، أجدها على الشاشة، مازالت البوابة مغلقة. أبدأ التجول فى المطار الدائرى الذى أحفظه عن ظهر قلب، وينتهى بى الأمر فى الكافيتريا التى أجلس بها دائما، زجاجة مياه وفنجان قهوة. ثمانية يورو. المطارات دائما غالية لأنها تحملنا لعزیز. أأخذ وأصفح جريدة اشتريتها من المكتبة ثم أتجه للبوابة التى فتحت. بجىء دورى وتطلب منى السيدة الجالسة خلف الكاونتر جواز سفرى. لم أستعد به. أخلع الحقيبة من على ظهرى وأفتحها وأبدأ البحث فيها، لا يتذمر الألمان مطلقا من ذلك. فى السوبر ماركت تنتظر الموظفة الجالسة على الكاشير أن يعد لها الزبون يورو كاملا من السنتات. كنت أرتبك فى البداية كلما أصل للكاشير فأناول السيدة أوراقا مالية، وأترك كل السنتات بالمنزل، وقبل أن أسافر أحصيتها فوجدت أن

لدى خمسة وعشرين يورو. وجدت جواز السفر وناولته لها فأمسكته بالمقلوب، قمت بإشارة تعنى أنه مقلوب، فصححت وضعه ثم فتحتَه من الطرف الأخير فقامت بإشارة أخرى لأساعدها. نظرت إلى اسمى واحتارت. فى أوروبا يستخدمون لقب العائلة وفى مصر نستخدم اسمنا ثم اسم الأب ثم والد الأب ثم الجد الكبير. سألتنى: "لين اسمك؟" اشرت لاسمى، فعادت السؤال: "أنا هو اللقب؟" أحببت اسمى مع الألمان الذين لا يمكنهم نطق حرف العين، وهكذا اكتسبت اسماً جديداً، حتى إننى بعد فترة فى برلين كنت أقدم نفسى "أشا" بدلاً من "عائشة". بدأت أشرح لها حتى فقدت الأمل وقالت "جناو" وناولتنى التذكرة وجواز السفر وتمنت لى رحلة سعيدة. حتى أسماؤنا لابد أن نشرحها. أحاول أن أتبه لما حولى فى الطائرة ثم أبدأ فى قراءة مجلة الطائرة وبعد خمس دقائق أغط فى نوم عميق، أفيق على ألم فى أذنى اليسرى، علامة بدء الهبوط. تبدأ أنوار بودابست فى اللمعان، مررت بمطار هذه المدينة حوالى عشر مرات ولم أزرها مطلقاً. أعرف طريقى فى مطار بودابست، أتبع العلامات كالمغبية وأدلف لصالة الترانزيت. صالة صغيرة ودائماً تكون بوابة الطائرة المتجهة للقاهرة قبالة الكافيتريا مباشرة. لا أحتاج للتحرك كثيراً. أجلس على منضدة وحيدة وتبدأ اللهجة القاهرية تغزو مسامعى. يستأننى شخص بالألمانية فى الجلوس معى على نفس المنضدة، كنت قد اعتدت هذا فى برلين، مشاركة الغرباء فى المناضد، فلم يعد الأمر يدهشنى. أجيب بتقة "يا.. يا.. بته". وأضحك فى

سرى على هذه الثقة فى استخدام لغة لا أعرفها. بمجرد أن يجلس يلمح جواز سفرى، فینقلت منه سؤال مصحوب بنبرة تهليل:

- حضرتك عربية؟

- لا مصرية.

- معناتو عربية. أنا من سوريا.

- أهلا أهلا.

- وكيف حال مصر وأهل مصر؟

- كويسين. بیسلموا عليك.

- الله یسلمهم یا رب. عم نسمع الأحوال متخرطة شوى.

- كله يتصلح، ده معناه إن فيه أمل فى حاجة كويسة.

- أمل؟ شو أمل بهيدا العالم العربى؟ ما فى منه أمل والله. كلياتهم

حرامية عم ينهبونا نهب.

- وبعدين بقى. إنت ما تعرفش المثل اللى عندكم اللى بيقول "اللى ما

شاف مصر بيموت حمر"؟

ذاكرة شرهة

هى القاهرة... هى رائحتها، هم ناسها، هو غبارها، هو ضجيجها. فى الطريق إلى المنزل أبحث عن روح القاهرة، استدعيها، أغويها، أفسح لها الطريق... تقترب وتبتعد. لتأخذ وقتها. وحتى يحدث هذا أصدق فى وجوه البشر وأقدم لهم ابتسامات واسعة. بمجرد أن دخلت غرفتى كان هدفى محددا. كنت فى ليالى برلين أحلم بسريرى القاهرى وكان "هشام" زميلى فى برلين يقول لى "ده شغل فلاحين. ما يعرفوش يناموا إلا فى سريرهم". نمت فى أحضان السرير الذى يدفعنى لعلاج آلام ظهرى فى الصباح التالى وعادت البحث عن روح القاهرة... أحاول أن أتعرف على أصدقائى، أبحث فى عيونهم عن علامات الحميمية، أطرده عن فكرى الكثير من الهواجس، ثم أعود وأؤكد لنفسى أنهم بالتأكيد صنعوا العديد من الحكايات بدونى، وأنهم سوف يضحكون على قصص شهدوها معاً وسوف يستعيدون نكات ضحكوا لها معاً. أنظر فى عيونهم مباشرة علنى أجد علامة هجران أو جفاء، أنظر فى العمق لأمسك بروح القاهرة...

وروح القاهرة غاضبة، هادئة، نائرة على سنوات النهب والقهر والغصب. ظلت أبحث عن روح القاهرة فى كل الأماكن الخائنة حتى

وجدتها قد افترشت الميادين وأبت أن تغادر حتى تستعيد رونقها القديم وتالقها، لم يكن لدى أي اختيار سوى أن أبقى بجانبها في كل ميدان انتفضت به وكل شارع صرخت فيه. التقيت بكل من اشتقت لهم في شوارع وسط المدينة، في ميدان طلعت حرب، في ميدان الأوبرا، في ميدان التحرير، في ميدان مصطفى كامل. وقررت أن أتبع هذه الروح الهائمة أينما ذهبت ومهما فعلت، لن أنذر فانا مدينة لها، أنا التي غادرت وعلى أن أكفر عن هجراني لها.

وبدأت رحلة التوبة والاستغفار حتى اهتزت الأرض في نهاية قيظ يوليو، لست أدري ما الذي حدث، فقد شاهدت "شهاب" يجري من أمامي وسمعت "غادة" تقول لي: "بيجروا ورا كمال عايزين ياخدوه!" حاولت أن أتبع "غادة" فوجدتني أنا و"سمر" وآخرين محاصرين في دائرة أمنية كثيفة. جلست بنظري وصعدت سلالم لأرى ما يحدث فوجدت أن المظاهرة قد تمت محاصرتها في ثلاث دوائر. من الدائرة المجاورة اسمع صراخا وكلمات مشوشة من قبيل: "لأ.. لأ.. حاسبوا.. ابعد عنه..". وبقية الأصوات كلها مكتومة وكأنها تأتي من باطن الأرض. لم أر سوى مجموعة هائلة من العساكر وكأنهم يضربون رءوسهم في الحائط، أدركت بعد ذلك أنهم كانوا يحاولون خنق المتظاهرين عبر دفعهم إلى الحائط جميعاً. بدأت "سمر" تصرخ في واحد من الضباط الذي كان يراقب المشهد برضا تام، وفجأة سمعنا واحداً من ذوي

الصوت العالى فى المؤتمرات التى تمرر على أنها جزء من النضال يصرخ
هنا: "الناس اللى هناك دول بيموتوا، لازم تعملوا حاجة". نظرت له ببلاهة
وأدرت وجهى. جلست "سمر" والاكتئاب بتملكها - ولم يغادرها من يومها -
والصمت يلفها وكلما تتطرق نقول: "قعصونا فى دقائق كأننا صراصير". لا
أذكر ما الذى قلته لها فقد كنت مشغولة بمحاولة الاتصال بـ"غادة" لأعرف
ما الذى حدث لبـ"كمال"، فلم أفهم حرفاً مما قالته، فقط ظلت تردد: "كمال
بيموت"، قررت الاتصال بـ"كمال" مباشرة، أجابنى وصوته ينتفض
وكالمعتاد: "لا لأ مافيش حاجة". علمنا أن عدداً كبيراً قد تم القبض عليهم
ونوّالت الشائعات بكل الأسماء التى أعرفها وكلما أسمع اسماً يهبط قلبى إلى
الأسفل، ظللت أهبط مع كل اسم وبدأت أدور فى الشوارع، أتصل بأشخاص
لم أكلّمهم من قبل ولا أتصور فكرة العودة إلى المنزل. لا أعتقد أن أحداً عاد
إلى منزله فى تلك الليلة حتى أمنت بما قالته لى "سميرة": "الناس عابزة
تندفى ببعض". لديها كل الحق، لم تتم القاهرة ولم يتم المخبرون المنتشرون
فى الشوارع ولم أتم فى تلك الليلة إلا مع ظهور بشائر الفجر، الليل يخيفنى
دائماً، ولا أعرف من الذى يخبئ فى نسيجه الداكن. وأبت ذاكرتى أن تنسى
مشهد رجل لا أعرفه يئن تحت الصفعات والركلات، كانت كف الضابط
تهال على وجه ذلك الرجل الذى لم يكن له هم سوى حماية الكاميرا
الخاصة به، كان ييكى ويقول: "خلاص أنا ماشى، والله أنا ماشى". لا أعرف
إن كانت أناته وصرخاته بسبب الشعور بالألم أم الإهانة أم القهر. الذهول
تملك "سارة" فلم تتطرق وكانت تسير كالمغنية تماماً. صرخت فيها: "اعملى

حاجة، مالك واقفة كده؟" بعد خمس دقائق تذكرت أن تجيب: "أعمل إيه فى إيه؟ إنت هتقلدى المناضل اللى وقف يدينا درس فى الأخلاق."

والقاهرة لا تنسى من يفجر فى مواجهتها ولا من يغتصب حقها فى العيش، القاهرة خداعة، تبدو للناظرين لا مبالية والبعض ينعتها بالسلبية، لكنها ليست نائمة، بل تتسج من كل صفة وكل إهانة سلاسل وجنازير تلف بها عنق العسكر والحرامية. كنا فى طفولتنا نتقمص دور العسكر وغالبا ما نعطى أصدقاؤنا الأشرار دور الحرامية، نحن الآن ضد العسكر وضد الحرامية. خلعت القاهرة ثوب الصمت والخفة وارتدت عباءة القاضى وأمسكت بسيف الجلال، والويل لمن يقترب ولمن يحاول منعها. قضى الأمر.

لكن العسكر قرروا أن يجعلونا الحرامية، هكذا ببساطة. عاملونا بمنطق "امسك حرامى"، ولم تهتم القاهرة، فالقاهرة تملك القاهرة، أما العسكر فلا يملكون سوى أحدى ثقيلة، وعصى مدببة، وقنابل مسيلة للدموع، وأجساد يلقون بها علينا. نحن للقاهرة والقاهرة لنا. نحن الأغنياء وهم معدمون حتى لو أعلنوا على الملأ أننا "الحرامية".

كنت أعرف كل هذا والمزيد، لم يكن لدى شك أن القاهرة فى النهاية لنا لكننى كنت أرتعد من الخسائر التى ستحدث فى الطريق والفقد والاتهامات

أرواح الأموات ودعاء الأحياء. فى الانتفاضات الكبرى يحدث كل شىء
«نمناه وكل ما لا نتمناه. كنت أمضى فى كل مظاهرة وأنا أضع وجهها شمعيًا
لأخفى خوفاً وفزعى من فعال العسكر، أتجنب النظر إليهم، لا أريد أن
أذكر وجهاً واحداً منهم. ماذا لو اعتقلوا "شهاب" وماذا لو اعتقلوا "كمال"
وماذا لو وماذا لو. لم يكن الخوف من الاعتقال بل مما يحدث بعده، فهذا هو
هدف الاعتقال، إلغاء وجود، مسح، بتر، إهانة، كسر. لا أضمن أن يعود أى
واحد كما كان. لا أضمن عودتهم ذاتها. كلما تخرج "سارة" عن صمتها تقول
"لازم كل ده يحصل، ولسه".

كاد أن يحدث هذا أمام نقابة الصحفيين، فى يوم جمعة شديد الحرارة، بدأ
التجمع صغيراً ليزداد حجمه بمرور الوقت. كنت متحررة بعض الشىء من
العبء النفسى لأن "كمال" مريض ولم يغادر الفراش، كانت المرة الوحيدة
التي سعدت فيها "سارة" بمرضه. كان بالتأكيد سيسحل فى ذاك اليوم، كان
سيبنى دون أى أثر. بتصاعد الهتافات والشعارات يتزايد العسكر وكانهم
يخرجون من بطون أمهاتهم حاملين العصى! يحتضنون العصى وكانهم
يحتمون بها، وب نظرة واحدة من الضابط ينهالون علينا بالعصى. كان نظرى
يتابع "شهاب" أينما ذهب، دون أن يعرف أننى أتابعه. كل أصدقائى كالأطفال
ما إن يدركوا أننى قلقة عليهم حتى يبدأوا رفس الأرض بأقدامهم، أما أنت يا
"روضة" فاسلم شىء بالنسبة لى أن أتأكد من إحكام يدي على

بدك وأن أهددك بافتعال فضيحة إذا لم لجندك بجانبى. ظلت عنى تروح وتجىء مع "شهاب"، وهو يتوغل فى الصفوف الأمامية للعسكر وأنا لا أفهم ما الذى يحاول أن يفعله، تختفى رأس "شهاب" ثم يظهر وأطمئن نفسى أن كل شىء على ما يرام وأن العلم الذى يحمله لا يزال يرفرف عالياً، الجو هادئ والتهافتات منتظمة. وأين "شهاب"؟ أراه، مازلت أراه، العلم واضح ولكنه يتوغل أكثر فى صفوف العسكر. هل أذهب وراءه وأصرخ فى وجهه أن يتوقف، فى تلك اللحظة كنت متأكدة أن "شهاب" اختفى وبدأ الصخب فى رأسى يعلو على صوت التهافتات، حتى العلم الذى كان يشكل مع رؤوس الجموع زاوية قائمة أصبح يشكل زاوية حادة، تزداد حدتها فأعرف أن "شهاب" يموت الآن، يتعالى هتاف الجموع: "الصحافة فى الإرهاب أه"، ثم تنفجر الزاوية قليلاً فأقول سألقيه ليلاً وعندما ازدادت حدة الزاوية كنت أفكر كم من الدموع ستكفى لأذرفها على غياب "شهاب"، ارتفع الهتاف حتى السماء وبدأت أتمم بكل الأدعية التى أحفظها، تراجعت إلى الخلف لكيلا أكون شاهدة على لحظة غيابه، وفجأة ظهر العلم مرة أخرى، ووجدت "شهاب" أمامى يضحك: "أما عملنا فيهم عمال!" "شهاب" كان يفتح مكاناً أوسع للجموع، وأنا كان قلبى يضيق من خوف الغياب. لا أرد بكلمة واحدة، لبدى لامبالاة تامة ثم التفت لأتحدث مع آخرين فى محاولة لتثبيت قلبى مكانه. أعاود الاتصال بـ "شهاب" فى المعاء لأقول له أى شىء

ثم أتأكد أنني أراه كل يوم ثم أرتعد من حرصى هذا، لا بد أن استوعب فكرة الغياب.

يزداد خبط الأقدام على أسفلت القاهرة الذى تضامن معنا ولم ينصهر، كان يحملنا بخفة ويطلق أصواتنا لعنان السماء، ثم نجتمع فى المساء ونتلاصق لنحصل على دفء الطمانينة. تتوالى الأيام وتتزايد الجموع وأتمنى ألا ينفذ الهاتف أبداً، أتخيل نفسى وقد جئت بفراشى ونصبته فى وسط الحشود ونمت فى ميدان التحرير، أتمنى نوما هنيئاً كهذا، نوما عميقاً لا يقطعه كوابيس ولا تزوره أشباح. أو مثلاً أن يعود الجمع كله معى إلى المنزل أو أن نبقى معا حتى نعبر هذه الحياة، كلنا فى وقت واحد، كيلا أحزن على من يغادر قبلى. ولأنها أمنيات فكان أن ملأت روحى بأصواتهم وحكاياتهم، وتتبع عقلى بصورهم ليكون زاداً فى أيام الجفاف.

ازداد الغليان حتى وجدنتى أقول: "باطل" والنشوة تملأنى وأنا أجوب معهم جميعاً شوارع وسط المدينة، بدأنا من ميدان طلعت حرب ثم انطلقنا فى قصر النيل حتى وصلنا ميدان مصطفى كامل وانحنينا يساراً فى شارع محمد فريد ومروراً بشارع فؤاد وصلنا إلى نقابة الصحفيين. ويطو الصوت ليؤكد البطلان و"باطل... باطل"، وتدق الطبول لتؤكد بطلان العسكر وفعالهم، اختزلت الحياة كلها فى أربعة أحرف. أربعة أحرف لم نكل من

تكرارها ثلاث ساعات، من السادسة وحتى التاسعة، أربعة أحرف تكررت مع بق الطبول تم.. تتم.. باطل.

نتفرق بعد كل مظاهرة وأحصل على وعد أن أراهم جميعاً في المساء فاكشف أن المساء قد حل. في واحدة من تلك الليالي جلسنا أنا و"كمال" و"غادة" و"شهاب" و"روضة"، كنت قد بدأت حواراً جانبياً مع "غادة" حول موضوع زواجها، فالقاهرة لم تترك لى ثانية واحدة لأختلى بها. كنا نضحك وندخن ونأكل ونتبادل النكات حتى بدأت عاصفة "كمال". بدأت خافطة غير مسموعة، وكأنها تستجمع قواها وتفكر من أين تبدأ، و"شهاب" يحاول ألا يلتفت ويتشاغل بالأكل، و"غادة" تحتضن الشيشة وكأنها تحتمى بها وسؤال: "مين اللي سرق العمود؟" يكاد يقفز من فمها. وأنت يا صغيرتى تراقبين الموقف بطرف عينيك وتهمسين لـ "غادة" بتعليقات ترسلها في نوبات ضحك فتلقى نظرات نارية من "كمال". كنت أقول لـ "شهاب" الذى يجلس بجانبى انطباعاتى عن أحد تلك الاجتماعات التى حضرناها سوياً ولم يتمالك "كمال" أعصابه، فبدأ فى أطول وأقسى محاضرة سياسية، كان يقطعنا ثم يعيد وصل القطع المبعثرة ليقطعنا مرة أخرى، دخل "كمال" فى نوبة هستيرية، كان يحاول أن يفهمنا أن كل ما نفعله ليس ذا قيمة. ولم يجد معه: "طيب بشويش يا كمال" أو: "ليه بس كده". أدركت أن "كمال" محبط، محبط لدرجة الصفر، فقد قضى عمره كله يجهز نفسه ومن حوله لهذه

اللحظة، رسم لها عدة سيناريوهات وقضى من أجلها ليالي فى شوارع القاهرة، قرأ لها كل الكتب، أفنى أعصابه فى اجتماعات نصفها سخيـف فى محاولة لتشكيل اللحظة. وعندما جاءت أخيراً لم يجد أنه يمسك بطرفيها، أفلنت منه، لم يجد موضعاً لقدمه التى حفرت منذ البداية. لكن "كمال" لم يدرك أن معرفته لا يمكن الإلقاء بها فى وجه الجدد، مستحيل تداخل المسارات، مستحيل اختزال الطرق، لو كان هذا ممكناً ما كنت يوماً ما سأقول: "والله ما كنت أعرف". لم تكن هناك وسيلة أوقف بها انفجار "كمال" سوى أن أسمعـه، قررت أن أرتدى ثوب الشجاعة وأسمع، لم أعرف كيف أـرد على قسوة "كمال" سوى أن أقول لـ"شهاب" بصوت عالٍ: "هو احنا بنصلح الكون ولا بنجرح فى بعض؟" انصب كل إحباط وغضب "كمال" على فى تلك الفترة، رغم أنه كان غاضباً من "شهاب" لانضمامه لتيار سياسى مخالف لمعتقداته التى تنفر من التحالف مع أى جماعات دينية، ورغم حنقه الدفين الدائم على "سارة". فى اليوم التالى هاتفـت "سارة" وأقسمت لها أننى لا أريد أن أرى وجه "كمال" مرة أخرى. ضحكـت وقالت: "أنت أول يوم تعرفى كمال يا عيشة". بعد فترة اعتذر لى "كمال" لكنه نسي أن يعتذر لـ"شهاب". و"شهاب" لا يعلق ولا يتوقف، فقط تتغير نبرة صوته قليلاً وبأخذ خطوة إلى الخلف وعليك أن تفهم. وغالباً لا أحد يفهم. كم مرة اختلفت مع "كمال" فى تلك الفترة، قررت أن أدعه بهذا ويعيد السيطرة

على أعصابه مرة أخرى، وكان جسده قرر أن يعلن خيبة الأمل أيضا،
فقضى نصف الصيف راقداً في السرير.

في القاهرة كما برلين لم أكن أنا للنوم، لم تكن علاقتنا طيبة إطلاقاً مع
فارق وحيد. في القاهرة لم أستمتع حتى برفاهية التمدد على السرير وتثبيت
نظري على السقف أو الجدار المواجه أو حتى اصطحاب كتاب أحارب به
الأرق. كانت شوارع القاهرة أجمل من النوم حتى عندما كانت جفوني
تشدني للأرض. كان الوقت الذي أنام فيه ليس إلا عمراً مسروقاً من حياة
القاهرة الآن. وأنا لست سارقة. مع كل دقيقة في أحضانها كنت ألتقي
المزيد من حيوات الناس وأفراحهم وأحزانهم. هؤلاء ليسوا يتألم مثلّي، فكل
أحزاني غالباً ما تعلمت أن أبتلعها بمفردي في برلين وكل أفراحي لم أجد
من يشاركني فيها. هو اليتيم بعينه. يتلون اليتيم في حياتنا ويرتدى أثواباً
مختلفة.

يبهرني أهل القاهرة عندما يتحدثون عن أنفسهم، أصبحت أقابل "هاجر"
كثيراً وأستمع لها أكثر. أنظر لها ويزداد إعجابي بها كلما تخرج من فمها
جملاً مرتبة عن نفسها، جملاً مكونة من كلمات واضحة بدون أي لبس، كل
كلمة لها معنى واحد فقط، معنى يأخذ شكله من حروف قوية وحادة، وبنفس
القوة تنتهي حديثها بخاتمة لا تثنى بأي بدء محتمل ثم تقول: "إنّ جميلة قوى
يا عيشة". كنت في البداية أرتبك وأجهد ذهني فيما يجب أن أقوله،

بعد أن توطدت علاقتنا كانت هذه الجملة تنتزع منى ابتسامة كبيرة. فى إحدى تلك النوبات من الوضوح قالت لى "هاجر" "والله العظيم يا عيشة أنا من باحسد أى اتنين عندهم علاقة، الحاجات دى مش بتهمنى خالص. الحاجة الوحيدة اللى بتحسمنى بالغيرة هى إن أنا أشوف اتنين بقالهم مع بعض عشرة أو عشرين سنة. لأ، ما تفهمنيش غلط، أنا مش باكون غيرانة منهم، أنا ببقى غيرانة من التاريخ اللى بينهم. فاهمانى؟" بالطبع أفهمك تماماً يا "هاجر"، ومن منا هذه التى لا تفهم التاريخ، من منا لم نعيش تاريخاً مهترناً، جاهد ليلحق بجزء قبله وقصة بعده، من منا لم نحاول أن نتسج تاريخاً من مشاهد مبعثرة ما بين حدود الأماكن وحدود أزمنة وشوارع القاهرة، وحدود سياقات هذه المدينة الواضحة الغامضة، السياق... السياق كما أقول لك دائماً يا "روضة". تلونات وتقلبات سياقات القاهرة لا تقبل شريكا تاريخياً، القاهرة تنصب نفسها التاريخ بأكمله سواء كتبته هى أم كتبناه نحن، سواء كانت هى المنتصرة أم نحن. نحاول "غادة" جاهدة أن نقيم الآن تاريخاً موازياً، نحاول أن نحفر لنفسها مكاناً وقصة.

ونحاول "هاجر" أن تعيد ترتيب التاريخ الذى تبعثر فى مشهد عبثى، لم نقتنع حتى اليوم أنه حدث لها وأنه عليها مواجهته. تزوجت "هاجر" من الشخص الذى كانت تحبه، وفى زواجها - الذى لم يدم كثيراً - كانت مثل كل امرأة تحاول أن تتعلم المشى على الحبل. نحاول أن نرضى زوجها وأن

تتواضع أمامه تماماً، فتلغى تميزها بمحض إرائتها لكى لا تستثيره بأى حال من الأحوال، تطهو وتنظف وترتب المنزل وتتلل وتناقش وتبدى انبهاراً مهولاً بعمله. امتنعت تقريباً عن مقابلة أصدقائها وكنت أراها صدفه فى الشارع بجانب منزلى حيث تضع سيارتها. كانت "هاجر" قد ارتبطت لمدة عام مع جمعية لتنظيم ورش عمل فنية لأطفال الشوارع. ولأن تجميع هؤلاء الأطفال ليس بالأمر الهين فقد تأخرت "هاجر" فى واحدة من تلك الورش. كانت تحمل حقيبتها على كتفها وتستعجل إنهاء الورشة لكى لا يعود زوجها فلا يجدها. وهى على وشك الرحيل وجدته أمامها وعيناه ترسلان شراراً. انطلقت "هاجر": "أهلاً يا حبيبى، إيه المفاجأة...." ولم تكمل "هاجر" الجملة لأن الصفحة التى تلقنتها على وجهها ألهمت أنفها وجرحت فمها. وقام هو بإتمام الكلام نيابة عنها: "إيه الأهم، تحضرى الغدا لجوزك واللا تقعدى مع ناس من الشارع؟".. وكلما تحكى "هاجر" هذا الموقف تغطى كل وجهها ببديها وتردد: "يا خرابى كل ما أفكر، يا ريتنى كنت مت ساعتها".

فى ذات ليلة ازداد ثقل التاريخ المهترئ وكأنه قرر أن يجلس فوق رأسى دون أى إنذار، لم أستعد مطلقاً له. كنت أظن أننى لضمته فى جملة واحدة متصلة. وجهى لا يحمل أية تعبيرات، والصمت يغرقنى وكأننى مازلت أتعلم الكلام وأتهجى الحروف. "مالك؟" كنت أرغب بشدة فى الحكى، فى هذه اللحظات كنت أتمنى أن أكون "سارة"، أحول الحياة إلى حكايات صغيرة

نصنع حكاية كبيرة. كنت أتمنى أن اغمض عيني وأنسى البشر حولي وأقول جملاً ساذجة من قبيل: "أنا تعبانة قوى" فقط. كنت أراغب أن اضع راسي على أي كتف ولبكي كما أرى دائماً في الأفلام، لم أتحرك ولم أنطق،: "لا بجد مالك؟" بكل الحيل اللغوية التي اكتسبت بعضاً منها قلت: "أصل عندي أزمة وجودية". كنت مستعدة لأي شيء في تلك اللحظة مقابل قليل أو كثير من الحب. وبالترتيب جاءت ردود الأفعال فسألتني يا روضة: "يعني إيه وجودية؟" ثم نظر لي "كمال" وابتسم: "أحنا نحل أي أزمات يا باشا". حاولت "غادة" أن تخفف عني فقالت: "يووووه... ده أنا عندي مشاكل كونية". ولم ينطق "شهاب"، فقط نظر لي ثم تشاغل بالنظر إلى السقف ليداري ارتباكـه. يشعر دائماً أنه لابد أن يقول شيئاً وعندما لا يسعفه خياله يرتبك. جاءت "سارة" وبمجرد أن وقع نظرها على قالت: "مالك يا عيشة، كان فيه عمارة وقعت فوق دماغك". أجيبها بابتسامة مصطنعة: "أصلي مفتقدة حكاياتك الأيام دي". تضحك ثم تهمس: "استنى لما أجنن "غادة" شوية". تلتفت لـ "غادة" وتبدأ:

- غادة، إنت عارفة إن ميعاد فرحك موافق يوم أربع؟

- وفيها إيه، ما أنا عارفة يا ذكية.

- لا يا حلوة يا اللي شائلة البلاص، عروسة الأربع على بيت أبوها

ترجع.

- يا سلام، خلاص اعتبريه ثلاث.

- فى بيت أبوها نَبَات.

- يبيه.. خميس يا ستى خميس.

- أهو كده، سيدنا محمد عريس.

القاهرة كثيرة... "بحبك بحبك يا بنت النين".

ذاكرة برتقالية

اختصرت نظرية "هاجر" الكثير من المسافات بينى وبينها، أميال من الأفكار والمفاوضات سقطت منا بأصغر اعتراف، و"هاجر" تمشى متوجهة نحو الهدف تماماً مثل جملها التى تلغى البعاد وتجيب عن الأسئلة. وضوح "هاجر" يلائمنى تماماً ويرىحنى حتى عندما تكون المعاناة من نصيبها، وهو ما يحدث دائماً مع كل ذاكرتى المورقة، لم أضبط نفسى فى مرة متلبسة بالحكى لهن عن جرح غائر أو ظاهر هنا أو هناك. تمكنت من فعل هذا ببراعة - فى بعض الأشياء - مع "هاجر"، كانت تسألنى وعيناها تسمعانى، كانت تسألنى وتقول بين جرح وآخر: "أيوه أيوه، عارفة يا عيشة إنت بتكلمى عن إيه بالضبط". تواصل للحكى بيننا حتى آخر النسيج، حتى آخر نفس، حتى قاع الأوجاع والأسرار والأفراح، تواصل نسيجى ونسيجها حتى لم يعد الهواء يجد لنفسه ممراً بيننا أحياناً، حتى لم أعد أميز إن كانت "هاجر" تحادثنى أم ترسم أم تجرب انتشال طفل من عدوانية مرساة إلى وداعة مطلقة.

جاءتنى فى يوم بكتاب "العلاج بالألوان" وقالت: "بصى يا عيشة فى الكتاب ده ودايماً فكرى برتقالى وأصفر، إوعى تفكرى رمادى وبنى". أعجبتنى اللعبة ومن يومها وأنا أحول كل مشهد من الذاكرة إلى برتقالى

وأصفر، كلما يزورنى شبح ألونه برتقاليا وقبل أن انام أغمض عيني وأحاول السباحة فى مساحات صفراء. وعندما عدت إلى برلين لم أخلع الكوفية البرتقالى. كان محتوما أن يلزمنى اللون البرتقالى حين اشتريت لى يا صغيرتى من برلين ما يسمى حجر الشمس.. حجرا يميل إلى البرتقالى الداكن ويرسل أشعة لامعة. حينها قال لك البائع إنه حجر يجلب التفاؤل، ويستدعى كل ما هو متعلق بالشمس وبدأ يعدد كل تلك الصفات التى تذكرنى بلعبة مترادفات اللغة: الدفء، الحب، الود، الإقبال، البهجة، الفرح، الحياة. لم أخلع هذا الحجر أبداً فى برلين عله يحولها إلى بقعة من الحياة. دأبت "سارة" على إرسال رسالة لى على الموبايل كل يوم لتسأل: "بمناسبة الألوان، إيش لونك يا حلوة؟"

مشكلتى مع "هاجر" أنها تدخل فى جزء من العالم وتظل حبيسة هناك، لا تخرج إلا عندما تنداعى أعصابها، وفى آخر أيامى فى القاهرة سألتها: "متخرجى امتى يا هاجر؟" تنهيدة ثم أنهت المكالمة: "ما نقلقيش هابقى كويسة قبل لما تسافرى". وفى ليلة سفرى وفى وسط المدينة بالضبط وقبل الفجر بقليل التقت "هاجر" مع أختها بالصدفة وتعانقنا طويلا. كنت الوحيدة التى ارتبكت فى هذا الموقف، وبقيت مسمرة مكاني لا أعرف ما الذى يتوجب على فعله الآن، فلم أجد سوى الحيلة التى كنت ألجا لها وأنا

صغيرة، بدأت أعد أصابعي العشرة! بعد العناق لمحت الدموع فى عيني "هاجر" فعرفت أنها لن تخرج أبداً. سقط قلبي منى، سافقد "هاجر" مدة طويلة، هل ستفقدنى هى أثناء انفصالها عن تفاصيلنا؟ حاولت فى تلك اللحظة أن استعيد أطراف البرتقالى ولم أنجح، سألتنى "كمال": "مالك؟ قفلت مرة واحدة كده ليه؟

كنت أجاهد فى الاحتفاظ بذاكرتى برتقالية، أجاهد لطرد كل الحكى البارد، لكن تحولات القاهرة لا تسمح كثيراً بهذه الرفاهية. الاحتفاظ بلون واحد رفاهية لا يقدر عليها القاهريون، واختيار الألوان مستحيل بالنسبة لهم. كل يوم له لونه، لكن إذا كان شرع الهوى الإنصاف فمن الظلم أن يعيش الكل فى الأسود والبني والكلوى. "تهى" مكتتبه دائماً، ومتذمرة وفاقدة لكل أمل بعد أن شاهدت عملية الانتخابات، صحتها متدهورة وعيناها تنظر فى شيء غير محدد. تختفى ثم تعاود الظهور وهى تؤنبنا جميعاً: "ليه مش بتسألوا على؟" ربما لمحت طيف قسوة فى عينيها ثم طردت الفكرة باعتبارها سخيفة. "جميلة" مختفية تماماً، وعندما تظهر تقول كلاماً كثيراً لا أتمكن من متابعته، تقول إنها مكتتبه وإن السكر عال فى الدم وإنها تواجه خطر الترحيل. أهاقها فى اليوم التالى فتؤكد أنها فى أحسن حال. تختفى وتعاود الظهور وبمجرد أن يقع بصرى عليها أدرك أنها تعرج بشكل ملحوظ، أتماسك وأحاول ألا أبدى جزعاً فافعل مواضيع لأتجنب ذكر العرج. "غادة" تبدو عليها ملامح الاكتئاب ولم يظهر معها زوج المستقبل مرة واحدة.

اسألها عنه فتقول: "عنده عبادة، أصله يشتغل كثير". لا أملك أى شىء، أقدمه لها وأى نقاش حول الفكرة كان معناه المزيد من السخف، وكأننا تواطأنا أنا و"غادة"، فلم نجلس مطلقاً بمفردنا، لم نرد أن نواجه الألوان الصريحة، خففنا حديثها بالأوان أخرى. لم تكن لدينا رفاهية المواجهة ولا اختيار الألوان. "سمر" فاقت الجميع فى الاكتتاب، اختفت تماماً وأعلنت السبب. التقيتها ثلاث مرات، فى الأولى كانت تجاهد لتبتسم وفى الثانية كانت صدفه وفى الثالثة لم تكن معنا مطلقاً. قررت أن تغادر فبدأت تلملم حاجياتها وقالت "على فكرة أنا أخذت أجازة بدون مرتب من المركز، هاأقدم برنامج فى الفضائية". لم نتج "سميرة" من اللون الموحد وإن كان لم يمنعها أن تستقل الميكروबाص كل يوم من بيتها لتصل إلى مقر عملها بعد ساعة ونصف، وتحول الميكروباص لـ"سميرة" إلى صندوق تفرغ الأحزان. ألم يسألها أى من الركاب العابرين فى يوم عن سبب كل هذه الدموع؟ ربما ألهمهم دموعهم، ربما لم يرتابوا أن "سميرة" وبعد عشرين عاماً فى عملها خصم منها يومان لأنها تأخرت ربع ساعة، وبالتأكيد لم يعرفوا أن "سميرة" تستانس برجل وتخاف الفقد ورغم ذلك لا تجد غير السفر بديلاً. اختفى "مصطفى" تماماً ولم يقلقنى أى شىء سوى عدد ساعات نومه التى ازدادت بشكل ملحوظ. أما "كمال" فقد أعلنت كل ملامح وجهه التجهم والقسوة وبدأ ينسى أنه يكرر الحكايات كثيراً. اختفت "هاجر" وقررت ضمناً ألا تبذل أى مجهود من أجل الآخرين. قابلتها مرتين، وفى كل مرة تبارر بسؤالى: "مالك يا عيشة؟ متغيرة ليه؟" أرتبك ولا أجد ما أقوله سوى: "لا، مافيش حاجة.

يمكن مرهقة شوية". أغلقت "هاجر" ممر البراح وأدركت أن هواجسها متقلة عليها، وأن صورتها لدى الآخرين تشغلها بشدة هذه الأيام.

بعد عودة أولى وثانية لم أعرف أين يجب أن أكون، هل أنا هنا أم هناك، في الليلة قبل الأخيرة لسفري والكل يودعني كنت ممسكة ببطاقة الطائرة أنظر لها ببلاهة. كأنني لم أر ورقة من قبل. ورقة واحدة تنقلنا من عالم لآخر. "مالك يا عيشة؟" سؤال سمعته في تلك الليلة عشر مرات حتى بدأت أبكي فعليا. لا تعليق. فقط حاولوا جميعا أن يكونوا أكثر رقة ولطفا ما عدا "سارة"، المتأخرة دائما، ما إن دخلت حتى تحول الجميع عني ليسألوها: "مالك يا سارة؟" من نظرة واحدة لوجهها فهمت أن لديها حكاية تطبق على أنفاسها:

- الراجل اللى اسمه "حبظلم بظاظا" ده عايزة أخنقه بإيديا الاتنين.

أضحك رغما عني:

- مين "بظاظا" ده يا "سارة"؟

- مش عارفة "حبظلم بظاظا" يا متعلمة يا بتاعة الأدب. ده شخصية عند "تجيب محفوظ" فى رواية "ليالى ألف ليلة". كان راجل شرير وكرشه فظيع، طالع مترين قدامه، طول النهار يشرب بوظة ويأكل لحمة ويسرق فلوس

الناس ويوقع بينهم ويبجح فيهم، ويعمل مؤامرات ويكذب ويعاكس الستات ويحاول يتجوزهم غصب عنهم. من الآخر حد زبالة.

- والأستاذ "بظاظا" ده بيعمل إيه فى عيشته؟ يعنى بيقوم الصبح يروح فين؟

- سى "بظاظا" تاجر عربيات، عنده محل فى شارع هدى شعراوى. من أربع سنين كان بياجر عربيات، السنة دى ربنا فتح عليه - يارب خده يارب - وببييع ويشترى عربيات وبالمرة بنى آدمين. تتطلق "غادة":

- بطللى بقى الشعارات السياسية دى. إنت فاكرة نفسك فى المحكمة، يا بنتى إحنا الجمهور الغلط. إحنا مفلسين وتعبانيين وطلعان عنيانا، يعنى مش لازم كمان على آخر الليل نسمع البقين دول.

- تصدقى يا "غادة" إنت اللى لازم تبطللى الشعارات دى، أصل الجواز لحس مخك، آمال عايزة تسمعى إيه؟ ما تزوقينى يا ماما؟

تتغير ملامح "غادة" وتصمت، وتقرر "سارة" أن تدارى حرجها وتكمل:

- المهم يا "عيشة"، سى "بظاظا" ده عمل افتتاح للمحل من أسبوعين. افتتاح من بتوع الأغاني الهابطة وميكروفونات وورد مدهون فضى ورز ولحمة وعليهم تورته، وبعدين لقى إن ده مش كفاية للفشخرة فأجر فرقة من اللى لابسين شكل شخصيات من الكرتون، بيسموهم أراجوز أو بهلوان... مش عارفة. اللى هم زمان لما طلعا كانوا زى شخصيات ديزنى لاند.

تتبرى "جميلة" لتشرح:

- أيوه أيوه باعرفهم. اللي كانوا فى.. باعرفهم.. بتعرفى شو يا عيشة..
الى هم مثل ال... موش بوجوههم الحقيقة بس عم يلبسوا ماسكات هيك
بنضحك كثير كثير.

- بالضبط يا "جميلة". هما دول. نورت المحكمة. المهم طبعا هم مبيع
شباب مع بعض بيلقوا رزقهم من هنا وهنا. وهومهم دى صوف وريحتها
معفنة وحالتهم ضنك على الآخر. كل واحد فيهم بيلبس هدوم شخصية شكل.
الواد يا عينى اللي عليه المشكلة بيلبس شخصية واحدة ست ويطلع يرقص.
الفرقة بتخليه آخر نمرة، ست بقى، رقاصة وبترقص. الواد، قصدى الست،
طلعت من هنا، وتجار العربيات اتجننوا، صدقوا إن دى ست بصحيح. لا
وايه، نقوط كمان. الواد اتبسط وقال ده رزق الليلة. خلصت النمرة بتاعته
وأبدأ مش راضيين يسيبوه. معقولة هيسيبيوا الرقاصة تمشى. فضلوا كل ما
ييجى يمشى يهللوا ويجعروا. الموضوع وصل لساعة ونص، وابتدى الولد
يجرى منهم بجد فيشدوه بالعافية. اللبس اللي بيلبسوه ده أصله صوف والولد
عنده حساسية فى مناخيره وصدرة، وكان هيفطس على كباية فيه، وخايف
يقلع الماسك من على وشه فيكتشفوا إنه راجل ويضربوه. بجد كانوا
مصدقين لدرجة إن الولد خاف. من هنا لهناء، الواد أغمى عليه. زمايله
طلعوه بره وشالوا الماسك من على وشه لقوا نفسه رايح خالص. نقلوه على
مستشفى القصر العينى وفين ثانى يوم لما جه الدكتور وطلع إن دى

مش حساسية، ربو والولد ما يعرفش. راحوا زمايله ياخدوا بقية فلوسهم من
سى "حبظلم" ما رضاش يديهم حاجة وقال لهم: "الليلة انتقلبت عكننة، الله
يعكنن عليكم. مالكوش عندي ملين". رحت له دلوقتى، حاولت معاه ودى،
بص لى من فوق لتحت وقال لى: "والست تبقى أخته ولا جماعته لا
مؤاخذه؟"، قلت له الست تبقى المحامية. يقوم ابن الذين يقول لى: "الأسفاده
فاطنة يعنى. أعلى ما فى خيلكم اركبوه".

فى طريقى إلى المطار اليوم التالى كنت أبكى بصوت مسموع.

حكي سارة

ذاكرة محترقة

فتحت الباب لأجد "سارة" أمامي: "افتح التلفزيون. مصيبة، النار والعة في الناس. ربنا يحرق قلوبهم". افتح التلفزيون فأجد صلعة رأس تلمع وصاحبها يهدر بكلام عن نزاهة الانتخابات. أصرخ: "فين، إنت بتخرفي؟" تجيب بنفس درجة الصراخ: "هاتى القناة الأولى". فى نشوة المناداة ببطلان العسكر لم يخطر فى بالنا أن النار أقوى من كل شيء وأنها ستأتى على الأخضر منا وليس اليابس. هكذا هى النيران فى عصر العسكر، لا تقضى على كل ما يقابلها بل تنتقى الأصلح والأجمل والأرق. نيران ذكية، تعرف لحظة الهجوم، وتعرف عواقب الانقضااض على مجموعة اجتمعت فى مسرح بنى سويف، مسرح كان العسكر مسئولين عن صيانته وتأمينه. ومنذ متى اهتم العسكر بمسرحية أو لوحة أو قصيدة، العسكر لم يهتموا إلا ببطونهم التى ينقضى اليوم وهى مليئة حتى أصابتهم تخمة اللامبالاة، وربما كانوا يبتهلون فى صلواتهم المتوجهة إلى قبلة شاشات الفضائيات أن تاتى النيران علينا جميعاً ليرتاحوا من رائحتنا ومن أصواتنا وليتأكد لهم أن الرب يحب العسكر والحرامية ويكره أمثالنا ذوى الصوت النشاز الذين يجدون رفاهية فائض الوقت فيجوبون شوارع القاهرة ويهتفون: "باطل". اشتعلت النيران ولم يردعها أحد، لم تلقَ مقاومة تذكر، وارتفع النحيب والعويل ثم انتظم رويدا فى مقطوعة "باطل"، حتى التى شاهدت أباهما يحترق على شاشة

الفيديو انتحبت وانهارت ورددت "باطل". باطل كل من لا يرانا، باطل كل من يريد محونا وباطل كل زيفهم ونفاقهم. العبث الذى لم يدركه أحد: كل هذا النفاق من أجل الحصول على رضا شخص واحد! ليس من أجل الكرسى ولا من أجل الثروة، بل من أجل تأكيد صورة الذات عن نفسها فى عيني شخص وحيد أوجد. يا الله... كل هذه العبودية.

خدمت نيران المسرح ولم تخمد نيران القاهرة. اشتعلت نيران الإحساس بالقهر، بالعجز، بالموت أمام عسكر يتهموننا بالمبالغة... عسكر يعاملوننا كأننا دمي بلهاء، عسكر لا يصدقون أننا نرفض النعمة التى ألقوها لنا كى نصمت. عسكر لا يفهمون أن يفقد الأب طفله الوحيد فى نيران شرسة ولم يعرفوا من قبل الحب، فلم يفهموا معنى أن تفقد امرأة رجلها الذى يؤنسها فى القاهرة الواسعة، عسكر لم يكن لهم من فائدة سوى مزيد من الوقود لنار القلوب والنفوس. آخر حيلة لجأ لها العسكر هى إقامة تآبين جماعى لكل المحترقين، هكذا فى خطبة واحدة، جماعة... وينصهر التميز غصباً وقهراً، الكل فى واحد لينتهى الأمر سريعاً ولنقده الذاكرة فى طرفة عين. لكن القاهرة حولت تآبينهم إلى اعتصام، إلى غضب فى الشارع... يومها أدلت القاهرة برأيها كاملاً دون حذف كلمة واحدة.

لم أرَ رجالاً للقاهرة يبكون كما بكوا فى ذلك اليوم، لم أرَ دفناً فى الموت
كما شاهدت يومها.. كنت قد نسيت مشاهد الموت، لم اسمع عن أحد مات
فى برلين، لم أرَ بكاءً على عزيز ذهب، ربما الموت يزور بلادنا فقط. أهل
برلين لا يموت لهم أحد. جلست أستريح على الرصيف أمام الجامع الذى
أقيم فيه النابيين.. سرحت فى وجوه من حولي، الكل أسقط الأقنعة وتخلص
من الحمولة اليومية التى تفرضها القاهرة، لو يعرفون أنهم أجمل لأنهم
أصدق. كل ما أزعجنى بشدة كانت تلك المرأة التى كانت تراقب البشر،
كلما توقفوا عن البكاء قليلاً تعاود العديد: "يا حبايبي، أصلكم فقرا، كنتم
تعملوا المسرحية بميت جنيه، اتحرقتم علشان فقرا ومالكوش قيمة". تصمت
وتتهار بكل جسدها على الرصيف، تواسيها بانعة الكشك المجاور وتهمر
الدموع ثم يبدأ الهدوء فى الإعلان عن نفسه فينطلق صوتها رفيعاً مجلجلاً
مرة أخرى: "الفقرا مش مهمين، كلنا مش مهمين، يا حبايبي ياللى مالكوش
تمن". من بعيد رأيت "كمال" يجلس على الرصيف المقابل والبؤس يعلو
وجهه، لم أقترّب، بل تعمّدت أن أختفى، تواطؤ آخر. لمحت "هاجر"
وحاولت أن أجعل السلام سريعاً ومبتوراً، فتواطأت معي وعندما التفت
عيناى بعينها قلت لها: "تقابل وقت تانى".. كلنا شاركنا فى أكبر مؤامرة
تواطؤ. حتى أنت يا "روضة" لم أتمكن من مواجهتك فافتعلت معك مشاجرة
صغيرة، كنت أشعر بالخجل والعجز، لم أرد أن يذكرنى أحد بهما. رأيت
"سارة" تجلس على الرصيف المقابل للجمع فتظاهرت بعدم رؤيتها، ثم لمحت

دموعها فادرت لها ظهري، دموع "سارة" لا تتردد في الإعلان عن نفسها مثل حكيها تماماً.

الوحيد الذى تمكنت من مواجهته هو "شهاب"، "شهاب" يشبهنى كثيراً ففهم دون أن نتكلم، لا يتحدث عن كل الإحباط الذى بداخله ولا يقول إنه يرغب فى الاختفاء من على وجه هذا العالم ولا يقول إننا نشبه "سيزيف" الذى ظل يحمل الحجر حتى أعلى الجبل ليعاود نفس الفعل حتى تحول إلى أسطورة، لا يقول إننا كدنا نحول إلى أساطير مجمدة، لا يقول إننا تعبنا، لا يطرح الأسئلة التى نخاف منها، لا يسأل مطلقاً، يكتفى بالفهم ويраهن على تواطؤ الآخر، لكن أهل القاهرة لا يفهمون التواطؤ دائماً. فكلما نصمت ولا نسأل، نحدد إقامة دموعنا، وكلما نعزل مشاعرنا عن واقعنا اليومى القاهرى، يعتقد أهل القاهرة أننا لا نفهم أو لا نشعر أو لا نبالى أو أننا مثلاً نتمتع بتفاؤل لا مبرر له. مساحات الشبه مكنتنى من مواجهة "شهاب". شكلنا مساحات مهولة من الفهم الصامت. لكن فى اليوم التالى عندما انطلق "شهاب" خارجاً من المكان الذى تجمعنا به وعبر الشارع كالسهم واختفى فهمت أنه يطلب منى التواطؤ الآن، جاءت "غادة" سريعاً وجئت يا صغيرتى: "شهاب راح يعيط!!" أعرف أنه حانت اللحظة، وكرهت أن يقال هكذا فاصررت: "لا، راح يشرب حجر شيشة".

ذاكرة محتشدة

وغرقت "سمر" فى الحريق وعواقبه، هل كانت تحول دفء حياتها بأكملها أم كانت تهرب؟ يوما ما سأسألها، بالتأكيد ليس الآن. ظل وجهها يطالعنى فى فضائيات مختلفة تحاول النثار لمن احترقوا، تتفعل وتثير بيديها للشخص الجالس قبالتها، تتحول جملها إلى نار تكاد تنشب فيمن أمامها. أتذكرها كلما احضر اجتماعا وكلما أهرول بين اجتماع وآخر، ظللت أتذكر "سمر" طوال الصيف! كلام وكلام، نرتب لمظاهرة أو نرتب لاعتصام، وكل منا يقول لنفسه إن وجوده هو محرك الأشياء، والحقيقة أن وجودنا يساوى غيابنا تماما، لا فارق بينهما سوى وجودنا الفيزيقي والكرسى الشاغر الذى سوف نحمله. لسنا مهمين إلى هذه الدرجة، فقط يحلو لنا أن نتخيل هذا. أذهب إلى اجتماعات وأنا مرغمة، وأين الملجا غير ذلك؟ مشكلتى أنهم عاشقون للكلام، كلام، كلام، كلام من الكلام، لكن كلنا لدينا كلام، وماذا إذا تكلمنا جميعا؟ يتكلم واحد فيقاطععه الآخر ليغضب الأول من المقاطعة ثم يتدخل ثالث ليهدئ الجميع ويعيد صياغة كلام الأول فيعترض رابع رغم أنه كان قد وافق من قبل وهكذا إلى ما لا نهاية. كان كلنا مهدد بخطر الفناء الآن فلا بد أن نترك بصمة وأثرا. وبصمتنا ليست سوى كلام.. ربما لا نملك

شيئا آخر. لذلك نتوهم أحيانا أن الكتابة فرض علينا فينتهى الأمر أن نكتب أكثر الأشياء سذاجة. هل يعرفون وهم يتكلمون أننى أراهم جيدا؟ يبدأ الواحد منهم بالتأكيد أنه فوق الموضوع، وأتعجب فمن إذن تحت الموضوع؟ كلهم يقيمون المشكلة بشكل موضوعى، من إذن داخلها؟ كلهم فوق مستوى التفاصيل، فمن الذى يصنع التفاصيل؟ كلهم لا يسعون إلى شيء، فمن الذى يسعى؟ غالبا ما كنت أغادر الاجتماعات قبل أن تنتهى، ينتابنى الملل ولا أشعر بأنى رغبة فى الرد. أهول إلى الاجتماع التالى لأجده أسوأ من الذى سبقه. أصبحت مثل "سارة" التى لا يمكنها البقاء فى مكانها أكثر من ساعة، وتقول: "الدبابيس اللى فى الكراسى بتشوكنى". وفى كل هذا أتذكر "سمر"، ماذا تفعل الآن وكيف تواجه أناسا مدربين على الكلام؟ تهاتفنى "سارة" ونتقابل على المقهى، وتقول: "بتعملى زى ما كنت باعمل زمان يا "عيشة"، بكرة تعرفى إن كل ده حرق أعصاب". أغتاض منها وأقول: "بطللى تكسير مجاديف بقى". عندما لمحت فى تلك الليلة ملامح الإحباط على وجهى اكتسى وجهها بكل ملامح الاستعداد للحكى وانطلقت: "إوعى تفتحى بقبك يا "عيشة"، إنت اللى عملت فى نفسك كده. أنا كل الناس بتوع الاجتماعات دول بيفكرونى بشيخ الجامع اللى باصلى فيه العيد دايمًا. أصل أنا باروح دايمًا قبل الصلاة وعمرى ما استتيت الخطبة. بس فى مرة الفضول خلانى أفضل قاعدة مكانى وكمان كنت خائفة من الست اللى جانبى كانت بتزعق لكل واحدة تقوم تقف. قعد الراجل يدعى فى آخر الخطبة ويقول:

اللهم انصرنا على اليهود، اللهم انصرنا على الصليبيين، مش عارفة الصراحة قصده مين بالضبط وكنت هاموت من الضحك. بس زى ما باقول لك كنت مرعوبة من الست دى. وآخرها راح قايل حنة دين حاجة، مش هتصدقى والله ما تختلف عن أفكار بتوع الاجتماعات، أخذ نفس كده وبتقة راح قايل: "اللهم امحق الشيشان". تصورى ماكانش يا حرام فاهم الفرق بين الصرب والشيشان. ساعتها كانى أخذت جرعة شجاعة ورحت قايمة من مكانى وأنا بضحك كمان وعلشان أزايد على الست المرعبة قعدت أقول بصوت عالى: "لا حول ولا قوة إلا بالله". بذمتك فيه فرق بينه وبينهم. بيروحوا الاجتماعات وهم مش عارفين الهدف وبيطلعوا المظاهرات يشتموا فى بعض بدل ما يشتموا فى السلطة! وبعدين ينتظروا كام أسبوع تكون الحكومة مررت لها قانون ولا اتنين. أهو شيخ الجامع على ما فهم كانت الحدودة خلصت خلاص، يا عبنى تلاقى لما الشيشان اتبهدلوا افكر إن ربنا استجاب لدعوته..

تنتملنى دائما حكايات "سارة" من إحباطى، وتنجح فى انتزاع بسمة من وجهى. أسرع الخطى إلى وسط المدينة. لدى ميعاد مع "معز" الصديق الذى تعرفت عليه عبر "مصطفى"، ذهب "مصطفى" وبقي "معز". جاء من الجزائر محملا بكل الحب والكره لأوروبا، وقع فى عشق مصر ولم يتركها منذ خمسة عشر عاماً. برع فى تدقيق مخطوطات التراث العربى وبنفس البراعة

فهمنا جميعاً. يستمع ويستمع ثم يشيح بيده جانباً عدة مرات وكأنما يزريح بقايا لا حاجة له بها على المنضدة. كانت كلها بقاياتنا، شروحنا، مبرراتنا، حججنا، كذبنا.. هو الفهم الذى جعله قاسياً إلى درجة غير محتملة، وهو الفهم الذى حوله إلى مركز ثقة لى ولـ"سارة". علمتلى "سارة" أن أستشف من ملامحه حالته المزاجية، نعرف ما إذا كانت ليلة قسوة وجلد أم ليلة هادئة. كان قد سألنى عن "مصطفى" كما فعل الكثيرون. وكانت إجابتى حاسمة وواضحة: "مصطفى" لم يعد يحتاج لى الآن، ماذا وكيف ومتى وأين، اسألوه وسيقول لكم. لكن عندما سألنى "معز" قلت له: "عايزة أحكى لك كل اللي حصل". لى دائماً هاجس طمس الحكايات وموتها وموت أصحابها وهو ما يسمح باختراع حكايات جديدة. و"معز" اهل للثقة، يكفى أنه الوحيد الذى اكتب قبلنا جميعاً وربما كان يسخر منا فى نفسه لابتهاجنا غير المبرر، ولتقنتنا الشديدة فى بعضنا البعض. كان "معز" مثل "تيريزياس" الذى رأى كل شىء قبل أن يقع. تسميه "سارة" "مدام زوزوستريس". رأى ما سيقع لـ"كمال" ورأى "مصطفى" ورأى "سمر" بوضوح شديد. رأى كل شىء ولم يتكلم. فقط انتظر أن تقع الأحداث. وعندما وقعت قال لى: "إنبت شفتِ عملوا إيه فى سارة؟ اتعلمى، دى لعبة ومصالح، وكله بيلعب على كله". القاهرة فن الانتظار والتوقع...

حكيت لـ"معز" كل شيء بدون موارد، كان كمن يحمل في يده بطارية لا تنير الطريق، بل تؤكد أماكن عثراته وفخاخه. أجلس منتظرة ظهور "مصطفى" ومنتظرة رد فعله الذي سيأتي مطابقاً لأصوات لغته المتشابهة، اللغة التي لا تعبر إلا عن نفسها، اللغة التي لا تشير إلى أي شيء خارجها، لغة لا تعني إلا نفسها. وعندما رأيت "مصطفى" كان رد فعلي أنا هو المفاجئ بالنسبة لي، لم أعرفني، ولم أعرف هذا الـ"مصطفى"، كأنني لم أكل معه بامية من نفس الطبق على جريدة قديمة فرشناها على الأرض ذاك اليوم، كأنني لم أبكي على كتفه عدة مرات، كأننا لم نتكلم في كل شيء وعن كل شخص مر في حياتنا، كأنه لم يحكي لي عن متاعبه الصحية وأدق الأسرار العائلية، كأننا لم نمر معا بالعديد من المصائب. سرحت في وجهه وأنا لست متأكدة أن هذا هو "مصطفى" الذي عرفته سنوات. أكملت كلامي وكان "مصطفى" ليس موجوداً، وكأنه لم يكن أبداً موجوداً، لم يمش بالأمر سوى توتر "معز" الخفي. أكاد لا أصدق أن بعد كل ما حدث مازالت لديه القدرة على مواجهة نظري، ولا أصدق حتى الآن أنني تمكنت من مواجهته.

ذاكرة مواجهة

خيانة علنية. خيانة فاضحة. مخالفة فجأة لكل تعليمات القاهرة: المواجهة. لا نكره القاهرة شيئاً بقدر ما تمقت المواجهة، وكل أهل القاهرة مخلصون حتى النملة، وأعداء اليوم أصدقاء الغد تتحول في القاهرة فتكون أعداء اليوم هم أعداء كل يوم وأصدقاء كل يوم. العداوة القاهرية خفية، بارعة في الاختباء، تراها ولا تمسكها، تعرفها ولا تغفل منها و... "ده حبيبي والله بس هاقول لك بقى عمل إيه. ده الأمريكان هم اللي بيصرفوا على الجرنان بناعه ومايقدرش يقول لأ، أصله مايفهمش حاجة، هو عاوز فلوس وخلص، واهه كل الناس بتكتب ويتأخذ فلوس. أنا عرضوا على أكتب بس رفضت، أصل أنا مش زى الباقين. أه ما هو حبيبي وصاحبى، كل يوم بنسهر مع بعض للصباح، بس هو باع نفسه خلاص". فى مرحلة: "والله ما كنت عارفة". كان هناك موقف مشابه بصيغته بالعرب، تسخر منى "سارة" وتقول: "يا سلام يا عيشة على ههلك، أمال لو قال لك إنه حط إيدته فى بوق الأسد، وبعدين وقف القطر برجله، هتعملى إيه؟" وفى مرحلة تالية فهمت أن هذه الأحاديث العنصرية ليست سوى علامات خادعة لطرق القاهرة، علامات لابد أن نتظاهر أننا لا نراها. فى برلين أرى الرجل يقف فى مواجهة الجدار وذراعه مرفوعان لأعلى والشرطى يرتدى بحرص قفازه الأسود ليبدأ

فى تَفْتِيشُه والاثنتان يبدوان وكأنهما مقبلان على احتساء فنجان قهوة معا. يقع نظرى عليهما وأتظاهر أننى لم أرَ شيئاً، برلين لا تحب المواجهات أيضاً. أفتح كتابى وأضع وجهى فيه وأتمنى أن تتمدد أوراقه لتبتلعنى، أتشغل بالنظر إلى اللوحة المعلقة لأحصى عدد الدقائق المتبقية على وصول القطار. أختلس النظر إلى وجه الرجل ولا أفهم شيئاً. أتجراً فى النهاية وأسأل الرجل الواقف بجوارى: "ما الذى يحدث؟" يجيبنى بوجه شمعى: "أعتقد أنه بدون إقامة". أتسوس فوراً جواز سفرى فى حقيبتى، بلاد قاسية لا بد من الاستئذان قبل دخولها، بلاد لا ترحم ولا تغفر. وعندما يصل القطار أتردد فى الصعود. علمتلى القاهرة أن المواجهة تحولنا إلى أردأ "دون كيشوت"، "دون كيشوت" لا يجد حتى طاحونة واحدة ليصارعها، فقط يدرك فى وقت متأخر للغاية حينما يكون الجميع قد غادر أنه كان يصارع أفكاراً اتخذت من فكره سكناً.

أسير فى دروب القاهرة وأسقط الكثير من جغرافية بصرى، أسير ولا أنظر خلفى، وأرتكب أخطاء بسيطة تتحول مع الزمن إلى فادحة.

ذاكرة عشق

خيانة القاهرة تهدر كل احتمالات العشق المحتملة. رجال القاهرة لا يحبون المواجهة، المواجهة هي الخيانة المجسدة. الرفض في جملة واحدة لا يعنى سوى أن هناك "امراة" نتمنع، أما القبول فلا يعنى سوى العديد من القصص المحتملة التى لا تتضمن سوى الفشل. ببساطة، بضعة آلام إضافية. أما إنهاء علاقة - لأنها انتهت، لأن العلاقات تنتهى - فلا يعنى سوى مواجهة كوارث قاهرية. عندما وقع "كمال" فى حب "سارة" التى لا تشبهه ولا يشبهها ثم غادرت "سارة" العلاقة انقلبت عليها القاهرة. لم يفعل "كمال" شيئا سوى أنه انهار تماما وفقد السيطرة على دموعه، وظل حتى اليوم يسأل: "ليه؟" لم يفهم "كمال" - وآخرون - أن العلاقات تنتهى وأنه انتهاء لا يستدعى أى حكم على "سارة"، لكن للقاهرة بأكملها لا تفهم كيف تنتهى علاقة بين رجل وامراة دون فضائح ومصائب وجروح ظاهرة. ولأن "كمال" أطلق العنان لمشاعره فقد تحولت "سارة" فى يوم وليلة إلى شيطان تحاول القاهرة وأده بكل ما أوتيت من قوة. بدأ الواد من أصدقاء "كمال"، فتكفلت واحدة بإسقاط اسم "سارة" من على قائمة مراسلات الإنترنت وتعهدت أخرى أن تدير وجهها حين تلمحها. ثم تحول الأمر إلى أصدقاء "سارة"، لم يبخل عليها "مصطفى" بقدر لا بأس به من التوبيخ، ولم يبخل على "كمال" بإعارته ساعات من الاستماع وتأكيد التضامن. أما "سمر" التى

كانت قد تعرفت على "سارة" مؤخراً وكانت دائماً ما تقول لى: "روحها جميلة قوى يا عيشة" فقد توقفت عن دعوتها لسهراتها المنزلية وبالتدريج سميت "سارة" وكانها لم تعرفها يوماً، فقط تتذكرها عندما نجتمع كلنا. وترسخت القاعدة أن الحفاظ على مشاعر "كمال" يعنى إسقاط "سارة" من كل الحسابات. بهرتنى "سارة" بعدم اهتمامها، كانت تؤكد لى دائماً "أصلهم ناس مش متعودين على الحقيقة، متعودين على اللف والدوران، عارفة الفكرة الخائبة بقاعة مالناش دعوة ومش عابزين نزل حد. اللي غايظنى إن هم ماكانش عندهم مانع يزعلونى خالص. يلا مش مشكلة، الدنيا صغيرة ولهم يوم. إيه رأيك بقى فى شجاعتى يا عيشة؟"

لم يبق على "سارة" سوى أنا و"غادة" و"تهى" و"سميرة". واعتبرها "كمال" أقوى خيانة فتوترت علاقتى به أكثر من عام. كانت "غادة" مقتنعة بموقف "سارة" ولم تبخل عليها بالتضامن، أما "تهى" فقد كانت صريحة معها صراحة موجعة أكسبتها احترامها وجنبتها لتهام "كمال" لها بالخيانة. وأنا لم أتكلم مطلقاً.. كنت أفهم معنى ضمور المشاعر وخفوتها ونبولها. لم أفتح الموضوع معها، كنت أحاول أن أخلصها من الشعور بالذنب، أحاول أن أفهمها أن مخافات البشر تشبه الملح الزائد فى الطعام الذى لا بد أن يذوب

ويترك جفافاً في الحلق، ينتهي بشرب جرعات هائلة من الماء والثقة. كنت
معبدة بـ"سارة" لأنها أنجزت محظور القاهرة.. المواجهة. لكنها كانت
خيانة لم تغفرها القاهرة، كل ما في الأمر أنها نسيته وسقطت الخيانة
بالتقادم. ولم يسقط الفزع الذي ظل يسيطر على "سارة".

فزع لم يخف بل تصاعد بعد عدة سنوات مرت حاولت أثناءها "سارة"
أن تكفر عن ذنبها مع "كمال"، أو ما تصوره ذنباً، ولم يقصر "كمال" في
تعميق إحساسها به. كانت دموعه وتأوهاتة تحول "سارة" إلى شيطان، كان
صمته المفعل ونظراته المكسورة بوعي تراكم لـ"سارة" عداوات لم تنتبه
لها. بعد عدة سنوات فهمت "سارة" قبلنا جميعاً كيف يعيش ويتعاش "كمال"
مع مخيلته، كيف يصم أذنيه عن كل الكلام إلا ما يقوله لنفسه. حتى إن
"هاجر" اعترفت لـ"سارة" في لحظة صفاء: "بصراحة يا "سارة" أنا أيامها
شفته ماشى في الشارع يعيط، كرهتك بشكل يومها". كانت "سارة" تواجهه
في البداية ثم قررت أن المواجهة مع "كمال" لا تغيد فاسمته "كمال ماشافش
حاجة". كلما نسأله عن واقعة ينكر معرفته وكلما تواجهه بشيء يقول بثقة:
"مش حقيقى"، وفي النهاية وبعد مناقشات طويلة ينتهي الأمر بـ: "خلاص
يبقى أنا ما كنتش فاهم". الآن فقط فهمت أن "سارة" هي الوحيدة التي فهمت
"كمال" ولذلك ظل معذباً بها حتى الآن.

ذاكرة "سارة"

دائما ما أحببت "سارة" رغم انفصالها عن "كمال" الذى خلق حولها الكثير من الحكايات. كنت واثقة أنها حكايات من صنع الخيال لأن "سارة" لم تبال بالرد على حكاية واحدة. لم تتزلق أبداً فى شبكة الحكايات لكنها لم تتوقف عن المواجهات فواجهت "سمر" و"مصطفى" بعد وقت طويل بما تطوعا به من إقصاء. جاءتني "سارة" وهى تضحك وتضرب كفها اليمنى باليسرى وتردد "عجب، ناس عجب يا 'عيشة'، دايم بيراهنوا إننا هنتكسف ومش هنقول لهم حاجة". وعندما سألتها عن رد فعلهما قالت: "ولا حاجة، كل واحد فيهم هز لى دماغه بمنتهى الحكمة مع شوية نظرات وقار ماحصلش، وعينين بتسبل وبس. ماحدش إدانى مبرر لآى حاجة. بس اللى جارحنى إن لا هى ولا هو كلفوا خاطرهم بحثة سورى صغيرة، أو حقا علينا يا أمورة، أو معلى خيرها فى غيرها، أو مائزعلش ماكانش قصدنا. ولا آى حاجة. صدق "معز" لما قال لى إنى ماعرفش حاجة. الحقيقة كان عايز يحكى بس أنا غيرت الموضوع، مش عايزة أعرف حاجات تضايقتنى أكثر". تذهلنى "سارة" من قدرتها على المواجهة الهادئة التى لا تقل عن قدرتها على عدم الانتباه لكل ما ينسج حولها. تعمل "سارة" فى إحدى

المنظمات الحقوقية التي تناضل ضد قوانين تمرر ليلاً لتلتزم بها صباحاً، هكذا هي القاهرة، كل الأشياء تحدث بها ونحن نيام. ولهذا نتواجد "ساره" في الأماكن المسروقة من العسكر، أمام مجلس الشعب، دار القضاء العالي، ربما القاهرة كلها مسروقة من العسكر. دائماً "ساره" هناك نهاراً تتدلى من على كتفها حقيبة جلدية سوداء ضخمة بشكل ملحوظ، بها كل شيء. حقيبة كنت لا بد أن أراها أولاً لأعرف أن "ساره" بجانبها. تفتح "ساره" الحقيبة فتخرج كتباً وأوراقاً وإيشارباً وأقلاماً ومناديل ورقية وبسكويت ومفكرة أرقام تليفونات والمحمول والمحفظة وجريدة معارضة وعلب كبريت من أماكن مختلفة وقلم الكحل ومراة صغيرة.

تنتقل "ساره" من أماكن النهار المسروقة إلى أماكن الليل الآمنة فتشيع كما لا بأس به من الصخب وتحكى الكثير من الحكايات. كانت عكس "كمال" تماماً، ربما لهذا أحبها وربما لهذا أحبته وربما لهذا غادرت. وربما لهذا كانت القاهرة تراها مشكلة، فـ"ساره" وحشية وبرية وأبعد ما تكون عن الترويض، تحول الكوارث اللفظية إلى نكات بثلقائية شديدة والقاهرة لا تحب من يشبهها. عندما ضيقنا ذرعاً بقاهرة العسكر لم يبقَ على العهد سوى "ساره"، عشقت القاهرة وتقمصت شكلها فعاقبتها القاهرة.

فى إحدى جلسات النسيمة المكثفة بينى وبين "سميرة" قالت لى إن "سارة" اتصلت بها من الإسكندرية وكاننا تتكلمان عن غليان القاهرة، فقالت لها "سارة": "لو كمال إتقبض عليه أنا هاموت"، لست وحدى إذن التى ترتعد من اختفاء الآخر.

— هه، وقلت لها إيه؟

— هاقول لها إيه يعنى، ما هى المسألة بالعقل كده، قلت لها يا "سارة" لو الموضوع بالنسبة لك كده يبقى لازم تبطللى تعرفينى أو تعرفى أى حد، لأن أى حاجة ممكن تحصل لأى حد فى الزمن ده. لما "طلعت" اتقبض عليه أنا فضلت واقفة على رجلى وعملت اللى لازم يتعمل، بس قبل ما يتقبض عليه كنت بافكر زيك كده.

— تفكرى يا "سميرة" ممكن يرجعوا لبعض بعد كل اللى حصل ده؟

— لو هم زى ما هم ممكن.

— لو.. خسارة كانت أيامهم حلوة. بس هم مش زى ما هم خالص.

كلما أتذكر "سارة" فى برلين أشعر بالبهجة وأضحك وأنا أسير بمفردى فى الشوارع الباردة، وفى القاهرة حاولت أن أتصل بها مراراً لأتلقى تلك الرسالة السخيفة "هذا الرقم غير متاح حالياً، يرجى إعادة المحاولة فيما بعد"، ظلمت أحاول وأحاول حتى علمت أنها غيرت رقم المحمول. النقيتها بصدفة مرتبة، كانت تجلس بجوار "كمال" ومستغرقة فى إحدى حكاياتها. ألقىت بنفسى فى حضنها لأحتفى من غواية القاهرة، كان حضنها أليناً كأننى

عرفته فى حيوات اخرى ولو كنت بقيت قليلا كنت سارى التماع الدموع فى عينيها، هكذا هى "سارة" تبكى حين لا يكون البكاء متوقعا وتضحك حين يجب ان تتجهم. ابادرها فوراً: "حكاية الليلة ايه يا سارة؟" تضحك: "والله يا عيشة، انت اللي حظك كده كل ما تيجى تلاقينى فى وسط حكاية". ثم تلتفت للآخرين وتقول: "معلش يا جماعة هالخص من الاول علشان عيشة". اجلس قبالتها لاستمتع بملامح وجهها وهى تحكى:

- بصى يا سنى. وديت النهارده عربيتى تاخذ شوية سمكرة على شوية دوكو على زيت وشحم وخلافه. وديتها للدكتور يعنى. وده معناه ايه يا حلوتين، يلا اصحوا معايا، ابوه براقو، معناه تحيا للتاكسيات. ركبت تاكسى من على كورنش المعادى، من قدام البيت على طول وقلت ربنا يستر. اصل التاكسى ده انت وبختك، ثم تميل على وتهمس: "زى معز".

انفجر فى الضحك، وأقول:

- كملى يا أم لسان طويل.

- أنا لسانى طويل؟! طب "معز" كده والا لا؟ قولى الحقيقة، يا إما الليلة تبقى فل أو تبقى كوبيا. أنا باقول له كده فى وشه. المهم السواق اللي ركبت معاه طلع لطيف بس العادى إنه يبقى رغاى طحن. طبعا قعد يتكلم

عن البلد وحال البلد والفقر والزباين اللي بيركبوا معاه وعساكر للمرور اللي
بباخدوا فلوس والضباط اللي بيقسموا معاهم، وبعدين ابتدا يتكلم عن
العربيات وأسعارها، أصله كان كل شوية يقول لى: "اقفلى الباب كويس"،
فتحت الباب ورزعته أربع مرات ومافيش فائدة. الباب أحول أعمل إيه؟
المهم قام قال لى إيه: "ده فيه ناس يا أبلة معاهم عربيات، لا مؤاخذه،
ماناخذنيش يعنى فى اللي هاقوله، عربيات فوق خيالك. هامر وشيروكى
ومرشيدس وشافورليه". اتغظت ساعتها بشكل، مش من السواق، لأ من
أصحاب العربيات دول. ده أنا لى واحدة زميلتى فى الشغل ساكنة فى
الزمالك وعندها ثويوتا كورولا وقال إيه مسمياها باستا، البى الثقيلة مش
الخفيفة، وتقول لسايس الجراج: "خد بالك من باستا يا صلاح"، ولما تنزل
تقول له: "باستا فين يا صلاح؟"

كاد الضحك يفتك بنا من طريقة تقليد "سارة" لصاحبة السيارة، وزاد
ضحكنا عندما أدركنا أن "سارة" تفعل بزميلتها ما تفعله مع "غادة":
- بانفقع أنا بقى منها، فكل ما أشوفها أقول لها أنا هأخذ سدوق وأمشى.
- ده إيه كمان يا "سارة"؟

- الست دى عاملة زيك بالضبط يا "عيشة". سألتنى نفس السؤال، يا بنتى
السجق اسمه سدوق، زى اللانشون اسمه لانشو، كده يعنى، اتعلموا لغات
وانضفوا شوية. المهم وقعت صاحبتنا فى الفخ وسألت: "سدوق مين يا
سير؟" بندلعنى، كأنها بتقول لى يا عين الصيرة، أقول لها عربيتى، عارفة

عربية السدوق والكبدۃ اللی علی ناصیۃ الشارع، هایلة بتعمل سدوق کلاب
 ماحصلش. عربیتی بقى اسمها سدوق، وامشى واسیبهها وعلامات القرف
 علی وشها. المهم بقى خلونى أرجع للسواق، أصل القرعة تتباهى بشعر
 بنت أختها، فهو یا عینى قعد يتباهى بالعربیات اللی بیشوفها عند هیلتون
 رمسیس. کنا قربنا منه قوى ساعتها. ویحكى عن العربیات وجمالها،
 وبعدين قال لى: "بس هم نامش کویسین خالص، دیک الیوم واقفین عند
 الفندق وكان فیه فرح والدنیا مقلوبة، سالنا فرح مین، العمال بتسوع الفندق
 قالوا لنا نامش عرب، والفرح بتاع راجلین." أنا افکرت إنی سمعت غلط،
 فقلت له مین؟ قال لى: "والنعمة الشریفة، زى ما باقول لك یا أبلۃ. راجلین
 لا مؤاخذه بیتجوزوا. أصل الفندق ما یهموش غیر إنه یدخل فلوس". الفضول
 أخذنى وسألته: "ومین المعازیم؟" فقال لى بصوت واطى شویة: "المجموعة
 اللی زیهم وعبدۃ الشیطان، أصلهم کثیر." بصراحة کنت عایزة أضحك، بس
 کملت فضول وسألته: "وانت بتعرف عبدۃ الشیطان دول إزای؟ بنبرة الوائق
 قال لى: "سیماهم علی وجوهم یا أبلۃ، الواحد یشوفهم ببقی مش مرتاح من
 جوه كده." بس خلاص، کنت وصلت لغایة فلفلة، والله كان نفسى أكمل
 وأسمع شویة حکایات کمان. ده ماكانش راضى یاخذ فلوس منى.

احتجنا وقتا لنتجاوز الضحك والذهول، ولنستمع لحکایات أخرى مشابهة،
 حتى تطوع کمال وقال: "کل السواقین دول مباحث." هممت

بالمغادرة وقلت: "لا، دخلنا في المباحث يبقى أمشى أحسن". وبدأ كمال يحكى عن المخبرين الذين رأهم فى مظاهرة الأمل، انتحيت بـ"سارة" جانبا ومآلتها:

- كله تمام؟

- مش عارفة، بجد مش عارفة... "كمال" مش بيقدّر يواجه أى حاجة، مش عارف يرجع صاحبى خالص.

- إنت عايزة إيه؟ إحنا لو عايزين حاجة نفكر فيها قوى والبلا ننساها خالص؟

وحتى اليوم أتساءل: "تفكر أم ننسى؟"

ذاكرة الاحتياج / الرغبة

نفكر فيها: أى استضيف الأرق عددا لا بأس به من الأيام، أى أجرى مكالمات للقاهرة بما يعادل نصف راتبى، أى أقضى أصباحا وأمسية أحاول فك شفرة رموز أوراق الكوتشينة بما يلائم مزاجى، أى أقضى اليوم فى إعادة تلاوة حلم الليل على مسامعى، أو أطلب منك يا "روضة" أن تأتى بالمزيد من الأحلام لتشرح المَنّ الليلي اليومى، أى اتلو: "لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين" ألف مرة، أى أهرول للحاجة "سلوى" وأطلب منها أن تقرأ فنجان القهوة، فتضع النظارة وتقول: "فيه ثمانين جنيه فى الطريق، وفيه مكالمة من برة وعتبة حلوة. إنت بتفكرى كثير، بختك قليل وحظك مع الغريب. قولى يا رب وسيبى حملك على اللي خلقك"، تتنأب وتكمل "محسودة أى والله محسودة، بخرى البيت واعملى عروسة ورق ولمى البخور فى منديل وحطى معاه ريال فضة وارميه فى المفارق". أن اندمج فى فكرة خيالية من صنع خيال بانس مفلس يعنى أن أتناول السجارة من ناحية الجمره فتبقى علامات الحرق مختلفة بين إصبعين، أى أتصل بـ"سميرة" و"عادة" كل نصف ساعة، أى أضع مفاتيح الشقة فى الثلاجة، أى أشتري علبة اللبن وأغادر بعد أن أدفع ثمنها ليناديبنى البائع: "هالو...هالو... دابن ميلش"، وأحيانا: "يا مدام... مش عايزة اللبن ولا إيه؟

معلش ايه الناس كلها على الحال ده.. خليه على الله، اى ازور مسجد الرفاعى "سلطان الأفاعى" ليحاصر الأفعى التى تلتفنى، أفعى تهمس: "ابقى مكانك، لا تغادري، لا تدعى اى شىء يمر، تسيبى حتى تتجبرى".

ننسى: أن أتكلم فى موضوع آخر غير الذى كنت أفكر فيه، أن يتحول عقلى إلى صندوق مغلق ومعتم ليس به بصيص ضوء. أن أنسى اسم الشخص الذى - بالتحديد - كنت أنتظره، أن أعبر الشارع فى اللحظة التى كان يجب أن أنتظر فيها، ألا أجيب الهاتف حين يقتل نفسه رنيناً، ألا أفكر فى الموت فيفتح لى ذراعيه بسخاء، أن أنسى أنني كنت أفكر فافكر، أن أنسى برلين فأجدها أمامى مرة أخرى.

أن أنسى الحب فيجىء الحب وأنا غافلة. أن أدعو دائماً من أجل شىء واحد فقط ثم أسير فى الاتجاه المعاكس تماماً وأنسى ما كنت أدعو به.

أن أنسى الاحتياج فيداهمنى فى أسوأ اللحظات، فى نوبة صداع، فى أيام الدورة الشهرية، فى يوم بارد ومظلم فى برلين، فى عيد أقصيه وحيدة، فى لحظة رؤيتى لوجه عابس، فى نزلة برد تمنعنى من الكلام عدة ليال، فى فائض من الوقت سقط من متاع الزمن سهواً...

الهذا لا يأتى الحب؟ أم اتى ولم أره؟

ذاكرة قطارات

تداهمنى الدنيا وأنا على متن القطار من أمستردام إلى برلين، يداهمنى كل اليأس وكل الفرح، يملكنى شعور باننى مكتفية بذاتى وفرحة بها وبنفس القدر أدرك أننى لا شئ، العالم كله خارجى ولا أملك منه ذرة واحدة. حجم وجودى هو نفسه حجم غيابى. فى القطار تتشكل سيناريوهات كاملة فى محيط رأسى، كسيناريو درامى لموتى مثلا، ثم أتوغل أكثر وأحاول أن أحدد نوع الضربة التى ستوقف قلبى إلى الأبد، هل هى طعنة سكين من الظهر أم من الأمام، هل هى قنبلة فى مكان ما، هل هى طائرة ستسقط بكل لعب الأطفال والأكياس البلاستيكية التى تحوى هدايا للمنتظرين، هل هو سرطان رحم يفتك بالجسد كله فى ثلاثة أشهر، أفضل أن يكون شهرا واحدا.. ثم أبدأ فى تخيل ردود أفعال من أعرفهم، فى هذه اللحظة يندفع القطار فى ضباب مهول، يتحول الأخضر بشكل مباغت إلى الأبيض، علامة الاقتراب من الحدود بين هولندا وألمانيا، فأرى روحى تهيم فوق المكان، فى سقف الغرفة التى يجلس بها المعزون، أستثنى أمى من الحاضرين لأن وجودها سيفسد السيناريو تماما وستحول الأمر كله إلى مناعة كبيرة.

أريده عزاء يليق بالعظمة التى أتوهم نفسى عليها، وربما يكون عزاء هزىلا
يلائم الغياب الذى أتوهم نفسى عليه.

لا عجب أن يطلب منى مفتش القطار التذكرة فانتفض من مكانى
مفروعة وينسكب قليلا من فئجان القهوة الموضوع أمامى. انظر له فى
محاولة للحصول على بعض التعاطف، لا يتحرك. لم يربت على كفى مثلا
ويقول: "حصل خير"، لم يعتذر، لم يفزع من فزعى. يتمم بيضع كلمات
المانية لم أفهمها، ثم نظر لى نظرة ذات مغزى وكأنه يقول لى: "لا تلعبى
مثل هذه الألعاب، نعرفكم تماما". أناول التذكرة بثبات وأعود إلى كتابى
حتى ينتهى من الفحص والتدقيق. يرد لى التذكرة ويتمنى لى رحلة سعيدة.
أعود إلى سيناريو العزاء وأبدا فى إيجاد أذكار لهؤلاء الذين لم يتمكنوا من
الحضور. "شهاب" سيكون منشغلا باجتماع طويل ولن يعرف إلا فى اليوم
التالى من "غادة" التى ستؤنبه كثيرا، وبعد أن يغادر سيبكى كثيرا على
غيابى، و"سمر" ستكون منعزلة عن كل من أعرفهم لكن بمجرد أن يصلها
الخبر ستأتى مع "كمال" وهى ترتدى الأسود وتجمع كل شعرها إلى الخلف،
"مصطفى" سيكون بالتأكيد مريضا ونائما، أما "معز" فسيعرف بمجرد عودته
من الخارج ولن ينطق... ستسقط "هى" فريسة لمرض مزمن، أما "جميلة"
و"سميرة" فسيكبران لفترة طويلة. ثم أدركت مدى شر هذا السيناريو، ليس
سوى مزادة على البشر.

فى القطار أفقد كل جانبى الأرضية، أنا فى المنطقة التى لا يملكها أحد، منطقة ما بين هنا وهناك، منطقة ليس بها سطوة للمكان أو الزمان، بزاد تلاحق المنظر خارج القطار ويهدأ كل شىء داخلى. أظير بين مدينتين، القاهرة ليست واحدة منهما. تغيب القاهرة عن الجغرافيا وتحضر فى كل ميل يتجاوزه القطار بسرعة جنونية، أتابع عداد السرعة المثبت فى مقدمة كل عربة وأتساءل عما تكون القاهرة تفعله الآن. يتوقف القطار فى باد بننايم، مدينة الحدود بين هولندا وألمانيا. يتوقف سبع دقائق كاملة. هكذا هو العبور، ليس سهلاً.. لم يكن أبداً سهلاً. أأمل رصيف المحطة.. "أنت الآن على الحدود، ارقصى، اضحكى، تنفسى هواء المكان، لحظة ليست مثل كل ما مضى، لحظة لا تشبه كل ما هو أت. هى لحظة الحدود المستعصية على كل تصنيف".

يصل القطار أخيراً بعد ست ساعات إلى برلين، عبر القطار من بلد آخر، بقدر بساطة هذه المسألة بقدر ما تذهلنى، الانتقال بين البلدان عبر القطارات. كيف تعبر القطارات دون أى مجهود؟ كيف استقل القطار من على رصيف محطة أمستردام لأصل بعد ساعات إلى رصيف محطة برلين؟ نقضى أعمارنا محاولين العبور.. العبور من الفقد إلى التعايش مع الفقد، العبور من الثلاثين إلى الأربعين، العبور من علاقة مهزومة إلى الحيادية إلى الصداقة، العبور من عام إلى آخر، العبور من الرفض إلى القبول، العبور من الصمت إلى الصراخ، حتى أجبرتنا القاهرة أن تقتصر أحلامنا

على العبور من يوم إلى آخر، ثم اجتياز كوبرى قصر النيل سيراً على الأقدام حتى تقلص الأمر إلى العبور من رصيف إلى رصيف مقابل. ربما الحياة بأكملها ليست سوى المنطقة التى تفصل ما بين رصيف وآخر. ربما هذه المنطقة هى الحياة نفسها، ربما تثبت الفلسفة الألمانية صحتها فى النهاية، ونكتشف أن مقولة "شوبنهاور" صحيحة، كلما أدخل المكتبة الرئيسية لابد أن أعبر من أمامها: "العالم ذاته هو حساب العالم". حساب صعب وأنا بليدة فى الحسابات.

الطائرة تحملنى إلى السماء فتبدو كل الأشياء أصغر، أما القطار يحملنى فوق الأرض فتبدو كل الأشياء أسرع. ما يستغرق أياماً على الأرض يمر فى ثوان فوقها. تتتابع الصور من النافذة حتى تصبح شبه صور، كحياتنا فى القاهرة، حياة تشبه الحياة، كحياة "شهاب"، كوجود "سارة" و"هاجر" فى وسط المدينة، هناك وليست هناك، لم تكن أبداً.

كيف يتواجد الناس هناك ودائماً؟ بكل قلبهم هم هناك، لبسوا خارج الصف أبداً، مجتمعين فى مجموعات صغيرة أو كبيرة، لا يهم، المهم أنهم معا. يرددون نفس الأشياء، يضحكون لنفس النكات، ينشرون نفس الشائعات، يذهبون لنفس الأماكن، تصيبهم ذات الهواجس، ويحكون نفس

الحكايات.. تماما مثل عمى التى ظلت تؤنبنا ونحن صغار لأننا نأكل القشدة من على وجه اللبن، كل يوم تؤنبنا، كل يوم، كل يوم، وكل يوم نأكل القشدة سريعا بالملعقة، وفى يوم قررت أن تعلن توقف التأنيب فاشترت ثلاجة إيديال بمفتاح وكلما كنا نريد شيئا من الثلاجة كان لابد أن ننتظر انتهاء قبولتها لتعطينا المفتاح وتتأكد أننا لن نأكل القشدة التى تدخرها لزوجها. يبدو أن غياب التأنيب أشعرها بالملل فبدأت تؤنبنا لشربنا المياه الباردة من الزجاجات. هكذا شعرت بغياب "سارة". لديها دائما حكايات مختلفة عن ناس آخرين فى أماكن بعيدة، حكايات لا تقطن الروح كثيرا وتعشش فيها كالحكايات الأخرى المتشابهة، حكايات تبدأ وتنتهى كشكل الدنيا من نافذة القطار، حكايات تشبه وجود "سارة"، حكايات "سارة" تشبه "سارة".

ذاكرة قطارات

- احكى يا "سارة" والنبي
- أنهى حكاية؟
- حكاية قطر المنيا
- أه يا منيا، يا جمالك يا منيا، يا حلاوتك يا منيا..
- احكى بقى يا "سارة"!
- بصراحة أنا باموت فى المنيا، أهو كده من غير سبب. أهل المنيا دول أصلهم رايقين بشكل كأنهم جاينين من بلد تانية، صوتهم واطى وجملهم مفتوحة فى الآخر، ماعندهممش اليقين القطيع بتاعنا. المهم أنا لما باروح المنيا باركب من محطة الجيزة مش من محطة رمسيس، باكره رمسيس دى، واسعة وباتوه فيها ورصيف الصعيد فى آخر الدنيا. الجيزة بقى رايقة، أروح الصبح وأقعد فى الكافيتريا وأطلب قهوة والجاتوه إجبارى طبعاً، وأقرأ للجرايد، وأدخن سجائر، ويبجى الأستاذ قطر على مهله بعد ما أعصابه تكون هديت من موضوع رمسيس. وفى يوم من ذات الأيام عملت كل ده وطلعت القطر. صبحت على الكمسارى وسألنى رايحة فين وجاية منين، وبعدين سألته هو منين، وقام نازل ضارب الصفارة بتاعته وهبوب طلوع على

طول ووقف يتفرج من الباب اللى مفتوح طبعاً. وبعد ما مشى القطر عشر ثوانى تقريباً افكرت إني نسيت الملف بتاع الشغل على الترابيزة فى الكافيتريا، وفجأة اتقلبت بينة خالص وخبطت على صدرى وقلت: 'يا لهوى.. الملف'. الكمسارى اتخض وقال لى: 'ملف إيه؟' قلت له: 'كل الشغل اللى أنا رايحة عشانه المنيا'، قال لى: 'مش كله إيه؟' قلت له: 'أحمر'. تصوروا الرجل عمل إيه؟ حط الصغارة فى بقه تانى وقام موقف القطر، وأنا ماكنتش مصدقة نفسى، إنه يعمل كده ماشى، بس إن القطر يقف بجد دى كانت حاجة مش معقولة. وقام نده لعسكرى غلبان واقف فى آخر الرصيف وقال له: 'اجرى يا دفعة هات ملف أحمر على الترابيزة هناك'. والله أنا شفت الملف كنت هاعيط من الصدمة. مافيش مكان فى الدنيا ممكن يحصل فيه كده إلا هنا. أى والله بلد محصلتش ومش هتحصل أبداً. القطر وقف علشان خاطر الملف!! عرفتكم بقى القطارات بتخبط فى بعض ليه؟ والله أسباب إنسانية خالص، واحدة نسيت ملف، واحدة عايزة تولع بابلور تعمل شاي...

واحكى..

- احكى يا سارة والنبي
- احكى إيه؟
- احكى حكاية الراجل المجنون
- يوه، أنا حكيّتها كتير قوى
- معلش مرة كمان والنبي.

بصوا بقى، فى يوم وأنا كده مش شايفة قدامى، من التلوث ومن الحر كنت عايزة فيلم الباب المفتوح بتاع "فائن حمامة"، المهم إنى كنت عايزاه بترجمة إنجليزى علشان هنعرضه لناس أجنب. الناس المثقفين اللى زى حضراتكم كده - والله ما يتخيروا عنكم، ده حتى إنتم أحسن منهم مليون مرة - قالوا لى إن مكتبة الديوان اللى فى الزمالك هى اللى فيها كل الحاجات دى. المشكلة إنى مش بأحب المكتبة دى خالص، بصراحة بأحس فيها بالدونية، آه والله، بالاقى نفسى تخينة وعبيطة وكمان مفلسة، ماطولش عليكم، رحت ومعايا واحدة صاحبتى. قلت برضه أهه أنزل من العربية وكأنها هى السواق علشان بس الإحساس بالدونية مايقاش على قوى. دخلت واشتريت الفيلم ودفعت ثمانين جنيهه باتحسر عليهم لحد دلوقت.

طلعت لقيت صاحبتى دى متتحة على الآخر، مالك يا بنتى؟ ما كنت كوبسة، قالت لى إنها شافت مشهد فظيع، كان القاهرة دى سينما شغالة أربعة وعشرين ساعة. كان فيه شاب ماشى عريان فى الشارع وبعدين العسكرى جاله، من هنا لهننا طلع الواد مضيع خالص، واحد إداله بنطلون قديم وصاحبتى دى كان معاها قميص أسود علشان كانت رايحة تعزى بالليل، راحت مطلعة القميص وادتهوله. وبعدين الناس أخذوه على الجامع علشان يلبس ويغسل وشه. أتارى الساييس اللي فى الشارع واحنا ماشيين قعد يقول لها: "ربنا ببارك فيك والله". ابتدا كل جنيه من اللي دفعتهم فى الفيلم يشوكنى، باقول لكم إيه مش عايزة تعليقات من إياها، خدوها من باب الاشتراكية بتاعتكم.

المهم رحت بعد كده النادى اليونانى كان عندى ميعد هناك مع كاتب لسه متعرفة عليه. كاتب هایل ومتقف قوى، متخصص فى التاريخ، راجل محترم خالص. مش عارفة إيه اللي خلى الراجل ده فجأة بسبب الشغل ويتكلم عن نفسه، المصيبة إنه بالصدفة كان قاعد معانا واحدة جوزها لسه ميت وقال إيه بنحاول نرفه عنها. الراجل ده فجأة وبدون مقدمات ابتدا يحكى إنه فى لحظة من حياته كانوا هيوذوه مستشفى الأمراض العصبية.

ترد "غادة": "اسمها مستشفى المجانين يا سارة، اختصرى.."

- إنت اللي مجنونة، المهم بيقول إنه مر بأزمة نفسية فظيعة كانت هتوصله للمستشفى بتاعة "غادة" بس هو قدر يضحك على الدكتور وأقنعه إنه عاقل جدا. ومن ساعتها مافيش حاجة قدر يتغلب بيها على أزمته غير القطط. وهو مروح فى ليلة متأخر قوى لقي قط بينونو وكأنه محتاج له، دخله البيت ومن يومها والقط ماطلعش. والقط جاب قط جاب قط جاب قط، وأصبحت حياته كلها بتدور حولين القطط، هم دول الكائنات اللي حسسوه إن فيه حد عايزه. القط الأولانى خالص فضل قاعد لحد ما فى يوم الفضول خلاه يطلع الشارع والنهاية العادية طبعا علشان نفضل نخبط دماغنا فى الحيط للصبح إن فيه عربية ضربت القط فمات. مش بيقولوا الفضول قتل القطعة. بس عنها وقعدت أعيط والست اللي جوزها مات قعدت تهدينى وتقول لى: "إيه بس يا سارة؟" وأنا كنت هاموت من الكسوف، بس ماكنتش عارفة أوقف عياط خالص. النتيجة يعنى إن أنا والراجل ده أصحاب جداً دلوقت وكمات رَوَحَت الساعة أربعة الصبح وإن شاء الله أمى هتطرمنى قريب قوى.

تكرار

نتجمع فى وسط المدينة.. وسط القاهرة.. ننتظر، كل فرد يأتى بحكاية، كل فرد يأتى بمشكلة أكبر منا جميعا، يأتى بمأساة، لا أذكر كيف كنا نتغلب عليها ونغادر إلى منازلنا وننساها فى اليوم التالى. كل فرد يجلس على المنضدة ومحموله لا يتوقف عن الرنين ليحمل أكثر الأخبار كآبة وهما ونكدا، فلان اعتقل، فلان مصاب بالسرطان، فلان لا يجد مكانا للمبيت.. فلانة ماتت.. وننسى وننسى وننسى، والحكايات الآتية أقوى والغلبة للقوة. تغادر "غادة" المنزل بسبب مشاجرة عائلية جماعية، تحصل "تهى" على الطلاق ولا تجد سوى جبن أبيض انتهت صلاحيته منذ زمن، "جميلة" تعرج بوضوح لازدياد نسبة السكر لديها، "شهاب" يبكى من أجل أصدقاء احترقوا، "كمال" مريض دائما وملازم للسريـر، و"سميرة" لا تنام دون المهدئ لكى تنسى مشاهد عملها فى التأمين الصحى ولكى تستعين على السفر الآتى، "سمر" غابت فى مأساة الحريق تحاول إطفاء النار بكلمات فضائية، "هاجر" تعيش أغرب الحالات التى تضحك فيها تارة ثم تبكى، "مجدى" اختفى تماما بالإضافة لغياب "مصطفى" من التوقعات، و"معز" لا يفكر فى الكلمة مرتين قبل أن ينطقها فتخرج كالسهم الحارة الموجهة، و"سارة" تتأمل وتصمت حتى يغلبها النوم فتعلن علينا جملتها الشهيرة "أمى هتطربنى من

البيت". لم تطردها أمها أبداً. ولم تغادر وسط المدينة أبداً. كان الأمر مبرراً بالنسبة لى فانا أسكن هناك، لكن الحقيقة هي أن وسط المدينة بضجيجها وعشوائيتها وتدنى الفاظ شوارعها وعجائبها في آخر الليالي وغياب أي قانون عنها هو بالتحديد ما كان يشعرنا بالأمان. كل ما فيها منفر وغير مضمون، لكن يبدو أننا قررنا الالتصاق بما نعرفه ونفهمه.

أما أنا فقد كنت كمن أصابه صداع شديد فعصب رأسه بقطعة قماش طويلة، وشد على رأسه حتى عجز النظر عن رؤية ما في الجوانب. كنت أرى ما أمامي بصعوبة، كنت متكنة على فكرة الضيافة، أنا ضيفة على القاهرة وفي القاهرة.. لا حرج على الضيف ولا المجنون ولا المريض. متخلصة كنت من فكرة التورط في المشاعر.. كيف تمكنت من القيام بهذا الإنجاز؟ كيف تمكنت من التواجد والغياب؟ هل كنت كاذبة إلى هذا الحد أم صادقة إلى هذه الدرجة؟ كيف توهمت في لحظة أنني محتفظة بالمسافة المتفق عليها؟ كيف صدقت حياء القاهرة وكيف سلمت أنها ستتركني لشأني؟ كيف كنت منغمسة تماماً وفي نفس الوقت لم أتمكن من اقتحام ذاك الحاجز الذي يشبه زلال البيض؟ أيهما كان أصدق، وأيهما كان أنا؟

في آخر الليل اجلس على كرسي المقهى بوسط المدينة وأبدأ سلسلة من المحاولات الفاشلة لإيجاد أفضل وضع للجلوس. أحنى أمامي بكل جزعى

العلوى وأشبك كفى أسفل ذقنى، ثم أعود إلى الخلف واستند بظهري إلى الكرسي وأضع ساقا على ساق ثم أتململ كثيرا ثم أنسى الموضوع كله لأن المنضدة تعلن في كل لحظة أنها ستتهار بكل ما تحمله. أبدا سلسلة أخرى من محاولات فاشلة لإنقاذ المنضدة فأحول علبة السجائر الفارغة إلى مربع صغير سميك لأكتشف أن قاعدة المنضدة لا علاقة لها بالأمر لكنه القائم نفسه. أهمل كل شيء وأبدا متابعتي اليومية لعم "محمد" وعم حسن". عم "محمد" رجل طويل وعريض في بداية الخمسينات أو منتصفها أو آخرها، القاهرة لا تسمح بالتحديد تماما. يصل عم "محمد" إلى المكان وهو يرتدى بنطلونا جينز وقميصا وسويتز وبعد دقائق يظهر في الجلباب والطاقيّة وتتغير نبرة صوته لثلاثم تحضير الشيشة وتغيير أحجار المعسل و: "اضبط الولعة يا عم محمد". يعتمد عم "محمد" أن ينادينا بأسمائنا وأن ينظر لنا نظرات مطولة وأن يتطوع بتعليقات تثنى بأنه يعرف أكثر مما ينبغي، وبعد حجر المعسل السادس تبدأ محاولات الاستظراف غير المحتملة: "حساب الشيشة والنبى يا عم محمد" "مية وتلاتين جنيه بس". نكتة كل يوم، كل يوم، كل يوم، كعمتى تماما وتأنبها لنا على أكل القشدة. ضحكنا مرغمين أول مرة ثم توقفنا جميعا، وتواطانا ألا نعلق على سخف عم "محمد" ونقل روحه التى تحاول الخروج من مكانها لتعيش في مكان آخر لا تملكه. لسبب ما يقرر عم "محمد" أن يبدأ مسلسل الاستظراف مع "شهاب"، و"شهاب" يتنسم مرغما ولا يرد مطلقا، فقط ينزلق في الكرسي، حتى جاء اليوم الذى قرر

فيه "شهاب" أن يعلن عن رأيه، فقال لي بصوت منخفض وكأنه سر عظيم: "بصراحة يا عيشة عم محمد بايخ قوى"، وبمنتهى البساطة أجبت: "لنا باكره عم محمد". الذهول والفرحة على وجه "شهاب" أرسلاني في نوبة ضحك. كان "شهاب" يعتقد أنني أحب عم "محمد" لأنني دائماً ما أرد على تعليقاته وأتحمل سخفه. لم ينتبه "شهاب" أنني أتحمل سخر البشر كلهم واستظرافهم وتعليقاتهم ومبالغاتهم وخيالاتهم دون أن أعلق. لم ينتبه أنني أتعامل مع عم "محمد" من خلف حاجز زلالى لا يسمح بوصول رذاذ سخفه لروحي. حاجز يمنعنى حتى أن أنتبه لكل ما يتقوه به عم "محمد".

الحاجز الزلالى منعنى أن أصرخ فى "شهاب" وأنهره لكى يتوجه فوراً إلى حضن أمه، فلا مكان له فى أحضاننا ونحن البؤساء أكثر منه، أن أصفع "سميرة" وأمنعها من السفر، أن أعاتب "تهى" لتكون أكثر شجاعة فى مواجهة طلاق أرائته ولم تردده، أن أقول لـ "معز" كفاك قسوة بالقاهرة لا تحب هذه الصراحة، أن ألكم "هاجر" فى أنفها لكمة تسيل بعدها الدماء لتفريق من كل الهواجس التى تحتل رأسها، أن أصرخ فى "سمر" لكى لا تختبئ خلف شاشة، أن أكمم فم "سارة" وأمنعها من الحكى المستمر، أن أهز "غادة" بقوة لتعيد التفكير فى هذا الزواج الذى يشبه المعليات، ولكى تنفض الانتظار الذى أوشتك أن يخنقها. كل مربوط فى حالته ولا يريد أن يغادرها، الخوف مما لا نعرفه بمنعنا من الحركة، شئ ما يدفعنا للحركة لكن

ما هو أقوى يثبتنا فى أماكننا. نحاول فتأتى الحركة بطيئة وكان العقل مسقط
فى وعاء صمغ يحاول أن يتخلص منه، نحاول أن نعيد الصياغة فتأتى
أصواتنا متحشجة وجمالنا ملتبسة مليئة بأخطاء نحوية، تتداخل الأصوات
مع الحكايات ولا يبقى سوى حكايات "سارة" ذات البداية والنهاية التى
نجلجل دائما لنقطع القاهرة إلى مشاهد مبكية. مشاهد ننفق سرا أن نحولها
إلى كوميديا.

أعرف أن "سارة" متألمة من قرار الزواج المفاجئ الذى أعلنه "غادة"،
القلق يكاد يأكل قلبها، ولكن "سارة" لا تعلن مشاعرها مطلقا فتلجأ للحكى
الذى تحتمى به. عندما انتقلت بجانب "غادة" أدركت أنها لن تتركها فى سلام
تلك الليلة. وبدأت:

- هو يشتغل إيه يا "غادة"؟

- هو مين؟

- مين يعنى إيه؟ "روميو" اللى هتتجوزيه يوم ٢٦ أكتوبر الموافق أربع

بتاع العروسة اللى على بيت أبوها ترجع.

- بطلى استهبال يا "سارة" مش ناقصاك والنبي، قلت لك مليون مرة

دكتور باطنة.

- مش ناقصانى ليه؟ هو فيه ايه؟ المفروض تكونى فرحانة مش مغمومة طول الوقت كده وعاملة زى عذراء الصخور. وبعدين هو مايجيش معاك ليه؟ قرفان مننا ولا خايف يتعدى؟

لم تتمالك "غادة" نفسها من الضحك وهو ما شجع "سارة":

- اصلى عايزة احكى لك قصة حصلت لابن خالتى تقطس من الضحك ...و

- "سارة" ارحمنى شوية!

- اسمعى بس يا "غادة"، يا اختى انا مبسوطه عشانك بس لازم تعرفى انت داخله على ايه. عشان لما فى يوم من ذات الايام تلاقى جثة جانبك على السرير ماتتخضيش.

ارتعدت "غادة" وصرخت "جثة؟" وانفجرت انا من الضحك لى رؤيتى فزع "غادة".

- اسمعى بقى، ماهو لو سمعتى هتفهى. ابن خالتى ده راجل محترم قد الدنيا زى ما كلكم عارفين. عادى يعنى العيلة كلها محترمة قوى وبنجيب الخضار من السوق بالعربية المرسيدس..

نزوم "غادة": "لختصرى يا سارة. عارفين انكم محترمين يا محدثة".
تضحك "سارة":

- طيب ما انت كويسة وبتهزرى اهو، امال ليه عامله زى عذراء الصخور؟ المهم ابن خالتى لما كان لسه طالب فى كلية الطب كانت عدة

الشغل حَتَّتْ من جنث على شوية عضم. العضم يشتروه والجنث يأجروها بالحنة من عامل المشرحة. قوم إيه يا "غادة"، خليك معايا علشان ده الجزء المهم، راح أجر إيد ورجل.

أوشك وجه "غادة" أن يتحول إلى اللون الأبيض: "حرام عليك يا سارة، إيه اللي بتحكيه ده؟" تقلد "سارة" صوت "يوسف وهبى" وتقول: "هيه...دنيا". تبدأ "غادة" فى لكمها فى كتفها وهى تقول: "بس..بس.. هى جوازة باينة من أولها". تتدخل "سميرة" وتؤكد كلام "سارة": "أنا سمعت قصص زى دى مليون مرة من الدكاترة فى التأمين الصحى".

- يا "غادة" والله مش باللف، اسالى أى حد كان فى كلية الطب هيقول لك نفس الكلام. سيبينى أكمل. باقول لك راح أجر إيد ورجل ودفع للعامل فى المشرحة أربعين جنيه. خدهم على البيت وحطهم فى أوضته وقرر يمهد لخالتى الموضوع علشان الشبهة والصوات والتحابيش إياها. راح لها المطبخ وفضل يمهد ويمهد ويمهد لغاية ما فهمت، وراحت خابطة على صدرها وقائلة: "يا نصيبتى"، بالنون مش بالميم، باقول لكم احنا ناس هاى قوى، ما هى خالتى دى برضه بتقول جرنان وسيلما وبرنجان. قعد يحاول يفهمها إن ده عادى وكل زمايله بيعملوا كده، وإن الحاجات اللي فى الأوضة مش مصححة، لأ دى مفتوحة ومسلوخة ومتنضفة ومشفية. آخر ما غلب

معاها ابتدا بيتزها ويقول لها: "يعنى عايزانى أسقط يا ماما؟" قلبها رق وحن ورضيت بالأمر الواقع، وعنها راحت سآلاه حنة دين سؤال: "ودى جثث مين يا حبيبى؟" قرر الدكتور المحترم يكون قانونى جدا وقال لها إن دى جثث اللى بيموتوا ومش باين لهم صاحب ولا معروف هم مين. وعنها يا حبيبتى إلا خالتى مصممة إن دى أكيد جثة الست اللى فضلت قاعدة فى الشارع تحت بيتهم عشر سنين وبعدين فجأة اختفت. دى كانت ست شربات، خالتى تنزل لها عيش وجبنة تقوم تبص لها بمنتهى القرف وتقول لها: "ما عرفتيش قلبيتها فى حنة سمنة؟"

- ايه يا "سارة"، بقيت عاملة زى الراديو، بما إننا لازم نسمع كملى الحكاية الأولانية.

- على طول كاسرة خاطرى كده يا "سميرة". راحت خالتى ماسكة التليفون وحكت الحكاية للى تعرفه واللى ماتعرفوش، وتتوح وتقول لهم: "أعمل إيه، الست معاشرينها عشر سنين وأخرة المتممة يقطعوها حثت ويجيبوها البيت". حاول ابن خالتى ينقذ أى حاجة بس على مين، هو يجى حاجة فى خالتى، لو أنا راديو، خالتى إذاعة بحالها. كل اللى سمع الحكاية من خالتى يقول لها: "حرام، ده إنتم على النار حدف، الأرواح تزعل، شوف أخرة البنى آدم، والله الدكاترة دول جزارين.....". وبعدين بعد كل ده يقولوا لها: "معلش علشان خاطر الواد يشوف مستقبله، هيعمل إيه، حكم القوى، غصب عنه". تعيط وتنف وتسال بغلب "طيب اعمل إيه؟ ادبح

ولا إيه؟" معرفش بقى فى الآخر كان إيه الاتفاق بس هى قالت إن شيخ قال لها تصلى خمسين ركعة وتستغفر خمس آلاف مرة. صلت الخمسين ركعة، وابتدت فى الخمس آلاف، عملت ألفين وبعدين تعبت فابتكت تسأل: "هو أنا استغفرت كام مرة يا ولاد؟ ثلاث آلاف ولا أربعة؟" إنت بقى يا "عادة" لازم تستغفرى عشر آلاف مرة علشان ربنا يقبل منك ويعفى عنك.

دخلت "جميلة" ولم تنتبه لها لإفراطنا فى الضحك. عندما رأيتها تعرج كدت أصرخ وتمالكت نفسى، كدت أبكى وحبست دموعى. أفتطع الأشياء هى أن نتركهم أصحاء يضحكون فنعود لنجدهم مرضى يعرجون. كل الأشياء يمكن، بل من المحتمل جداً، أن تحدث ونحن غائبون. الأصدقاء يمرضون، يقعون فى الحب، يموت أحباؤهم، يكون قهراً، يتوفون للمسة جسد دافئ، يحزنون، يكتبون، يحتفلون، يتظاهرون، يوقعون على بيانات، يذهبون للعمل، يطردون من العمل، يعانون الفلاس المزمين، يغادرون، يقصون شعورهم، يكتسبون وزناً زائداً، يختلفون، يكتبون، يرسمون، يأكلون من الشارع، يبتاعون سندويشات من زيزو النتن، يقرأون الصحف والكتب، ويتواصلون عبر النكات، يغضبون، وينذكرون الغائب.. أحياناً. سيعود الغائب وعليه اللحاق بكل ما فاتته، عليه ألا يبدى أى جزع من الفجوات التى سينزلق فيها، واللحظات التى سيضحك فيها الكل إلا هو، والقصاص

التي سيحاول تجميع أطرافها، على الغائب أن يتظاهر أنه لم يكن غائباً قط.
على الغائب أن يمحو غيابه تماماً. اذكر القاهرة تذكرك.. غب عنها تتسك.

ذاكرة هزيمة

يقترب ميعاد الرحيل، وتتحول الأيام القليلة الباقية في القاهرة إلى لقاءات وداع، و"سارة" تتهمكم: "أنا زهقت يا عيشة، حياتي تحولت لمسلسل طويل من استقبال الست عيشة وبعد شوية نودعها، وبعد شهر نرجعي تاني ونبتدى من أول وجديد". أشيح بوجهي عندما أدركت أن "سارة" محقة. وكاننى أختبر بعض الحب، أناكد من سلامته وعدم انتهاء صلاحيته. نحتاج إلى أدلة إثبات طوال الوقت لنثبت فكرة أن الآخر يحتاجنا فى حياته، ربما بعض الوقت، ربما أحيانا، ربما فى هذه اللحظة فقط.

قبل السابعة بقليل يذق جرس الباب، دعوت الجميع لقضاء الليلة معى بمنزلى، ووعدتهم أن أطهو. أعشق الطهى وأطالب بالثمن مباشرة، بمجرد أن يضع الشخص أول ملعقة فى فمه أسأل: "هه.. حلو؟" تدخل "سارة" وتنشئ كل معالم وجهها أنها ليست بخير. أسألها عن الباقيين فتقول:

- ماعرفش، ومش طايفة حد منهم.
- مالك؟ ما كنت كويسة الصبح.
- ده كان الصبح، وبعدين أنا كلمتك بعدها وتليفونك كان مقفول.
- كنت فى اجتماع، هو فى إيه؟ مهيرة شوية زيادة؟

- كلمت ابله الناظرة "تهى" بعد اول جملة تقول لى: "باقول لك يا سارة" انا عايزة ارفع قضية على وزارة الشئون الاجتماعية، طيروا فلوس المعاشات فى الباي باي"، اكلم الثانية الست "سميرة" تقول لى: "والله كنت بافكر فيك يا سارة، عايزة ارفع قضية على هيئة التأمين الصحى علشان هيخصصوا التأمين". دول جابوا لى الضغط، مش طايقة سيرتهم حتى.

يدق الجرس وتدخل "تهى" وقبل ان تجلس تصل "سميرة". والسؤال المعتاد "مالك يا سارة" مكشرة عن انياك ليه؟" أتدخل سريعا لأمنع لسان "سارة" من الانفلات: "عايزين البت ترفع قضايا على مؤسسات الدولة كلها؟ ده ماكانش حد غلب". تتطلق "تهى" فى شرح موضوع سرقة المعاشات، وتؤكد: "دى معاشات الأرامل، ببسرقوها!" وتضيف "سميرة": "يا عيشة التأمين الصحى مهم جداً للناس، لما يعملوه بفلوس الناس هتموت بجد، الفقر خلاص بينخر فى عضم البلد". اشتبكنا فى نقاش طويل حول المعاشات والتأمين الصحى والخصخصة، وبدأت "تهى" تخرج من جعبتها أرقاماً وإحصائيات، ولم نلاحظ أن صوت "سارة" اختفى، وبعد قليل اختفت هى نفسها. قمت أبحث عنها فوجدتها جالسة أمام التلفزيون:

- إنت جاية تقعدى معايا ولا تتفرجى على التلفزيون؟

- لا، جاية اسمع محاضرات دمها زى السم عن الفقر، من ناس
ماعندهم مش دم.

الليلة لن تمر بسلام، والجملة اخترقت مسامع "نهى" و"سميرة" اللتين
وقفتا على باب الحجرة، وبادرت "نهى":

- هو أنا كفرت يا "سارة" لما طلبت منك تسألنى عن القضية؟ إنت واخدة
الموضوع شخصى كده ليه؟ تكونيش إنت اللي سرقت فلوس المعاشات؟
- آه، أصلى باقسم معاهم بالليل.

- مالك؟ أنا مش فاهمة إيه اللي ضايقتك فى الموضوع؟ لسانك أعوذ بالله
منه.

- أيوه أنا لمانى أعوذ بالله منه.

تحاول "سميرة" وتفشل:

- يا ساتر عليك يا "سارة" لما تقلبى مرة واحدة.

- أيوه أنا يا ساتر على لما أقلب.

بلهجة حازمة ووجه جاد أقول:

- "سارة" إيه شغل العيال ده؟ ما تقولى فى إيه وتخلصينا. احنا هنفضل

نحاول فيك طول الليل ولا إيه؟ مافيش حد ناقص الله يرضى عليك. ده موسم
أفلام قوية قوى.

وكانت المفاجأة. أجهشت "سارة" بالبكاء بدون مقدمات، هبط علينا
الذهول. كانت المرة الثانية التي أرى فيها "سارة" بهذه الحالة. بكت منذ عام
بحرقه على موت قطتها. هل ماتت القطّة الأخرى؟ تبدأ "تهى" البحث فى
حقيبتها عن شيء وهمى، وتقدم "سميرة" لها منديلا، ترميه "سارة" بعنف
فيتطاير فى الهواء. أراقب حركة المنديل المتموجة وأبحث عن مخرج واحد
لهذا الموقف. بعد ثوانٍ تلتقط "سارة" المنديل من على الأرض وتمسح
وجهها، فتتفقت من "سميرة" الجملة الخاطئة: "ما كان من الأول". كانت
"سارة" تنتظر جملة، أى جملة لتنفجر:

- ما تقولى لنفسك، لما كلمتك الصبح إن كان إنت ولا هى قعدت كل
واحدة فيكم تدينى درس عن الفقر والغلبة، والإصلاح والاقتصاد، والمهلبية
بناعتكم، وما فيش واحدة سألت نفسها ولا حتى سألتنى أنا كنت باتكلم ليه.
من إمتى كنت باكلمكم وأنا فى الشغل. هو أنا باقعد على المكتب خمس
دقايق على بعض. واحدة خايفة على التأمين أبو فلوس والثانية بتفكر فى
فلوس المعاشات، ما فكرتوش بقى إن أنا كنت باتكلم علشان عايزة فلوس،
على أساس إن الفلوس باجيبيها من المطبعة دليفري، هى والساندويتشات.
يتملك الحرج كلا من "تهى" و"سميرة"، وتبدأ كل واحدة فى محاولة
صياغة جمل مفككة غير مترابطة، حتى تجد "سميرة" ما تقوله:

- كنت لازم تقولى من نفسك يا "سارة"، الواحد ساعات يببقى تايه ومش دريان بنفسه، أنا معايا ميتين وخمسين جنيه، نقسمهم مع بعض.

تتشجع "هى":

- أنا أفقر شوية، معايا مية ستة وثمانين جنيه، مش هاقسمهم قوى، هاديك الستة وثمانين. بعد كده تبقى تقولى يا حمارة على طول إنك مزنوقة. وبعدين ماتحملكيش هم، "عيشة" هتدينا كلنا باليورو، مش كده يا "عيشة"؟ و"سارة" لا تعتبر ذلك ترضية ملائمة، وتبدأ فى كرىشندو تصاعدى:

- أقول إيه بقى، مايصحش الواحد يعبر عن احتياجاته التافهة جنب الهم العام السياسى العميق، مايصحش أقول لكم إن الميكانيكى حاجز عربيتى عنده مش راضى بيديها لى إلا لما أدفع الفلوس كلها، مايصحش أقول لكم إن على له ستين جنيه ماكانوش معايا، وإنى محتاجة العربية علشان أمى عايزة تطلع القرافة بكرة فى سنوية أبويا، وإن معايش فلوس أركبها تاكسى. حاجات تافهة جنب هموم ومشاكل الشعب وال جماهير اللى مستتية كل واحدة فيكم تحت بيتها يا حرام. اللى غايظنى أكثر إن أنا لما حكيت قبل كده عن الولد بتاع الفرقة اللى طلع عنده ربو، كل واحدة فيكم قعدت تقول لى: "الدنيا مليانة من ده يا سارة"، "أحنا لو حكينا هنقعد للسنة الجاية"، "البنى آدم مالوش تمن يا سارة"، ربنا ياخذ "سارة". دلوقت بقيتم مهتمين بالبشرية كلها، إزاي يعنى؟ إذا كان واحد.. واحد بس ماكانش عندكم حاجة تعملوها علشانه! دى حاجة تنفقع.

وبدأت دموع "سارة" التى لم تكن قد توقفت تماماً فى الإعلان عن نفسها بجلاء مرة أخرى. فى هذه اللحظة كنت قد تأكدت أننى لا أريد السفر، أريد البقاء بكل قوتى، ولم أفق إلا على "سارة" التى كانت تقررص "سميرة" فى ذراعها عندما قالت لها: "يوسف وهبى بعث لى جواب يا "سارة" وبقول إنه غيران منك قوى". تعود "سارة" تدرجياً لطبيعتها وتقول لـ "سميرة": "والله فى أم قويق اللى إنت رايحها دى مش هتلاقى ولا ربع "سارة"، هتحمسى وتقولى يوم من أيامك يا سارة". بدأت "تهى" تخطب كفا بكف وتقول مستكرة:

- يا حول الله يا رب، الحقى يا "عيشة" "سميرة" بنشارك "سارة" بكل حماس. العيال اتجننت الليلة دى.

عندما تبكى "سميرة" لا تتغير نبرة صوتها مطلقاً ولا ملامح وجهها، فقط تسيل دموعها بغزارة. الليلة ليلة مكاشفة إذن. تهدلت أقنعة التماسك وبدأت وجوهنا قبيحة بداخلها. أربت على كتف "سميرة": "فى إيه إنت كمان؟" وتتطلق "سميرة" فى شبه عويل: "مش عايزة أسا...فر". أعيد وضع الماسك وأثبتته: "السفر ده بلوة جبنائها لروحنا، أنا كمان مش متحمسة للسفر، خلاص يا "سميرة" هى سنة تعدى بالطول ولا بالعرض". تقوم "سارة" من على السرير لتفتح الباب وهى تبرطم لنفسها: "ولا بالورب حتى". أسمع جلبة عند الباب أميز بصعوبة فيها صوت "غادة". تدخل "غادة" وخلفها "سارة"، كان شكلها غريباً وهى تضع نظارة شمس زرقاء على عينيها،

اعتدت على هذه التصرفات الجنونية من "غادة"، لكنها كانت قد توقفت من مدة، واندمجت في تفاصيل الإعداد للزواج. تبادرها "سارة" فوراً:

- والله يا "غادة" لو أى شركة عايزة تعمل إعلان ضد الجواز يحطوا الكاميرا على وشك بس، ويكتبوا "بدون تعليق". وإيه النظارة اللي إنت قاعدة وراها دى، ده لزوم التخفى من المعجبين ولا إيه. آه طبعاً الشهرة تمنها غالى.

نضحك وتتجه "سميرة" نحو "غادة" وتظر لـ"سارة": "صوتك طلع هوا، مافدريتش تفضلى حزينة أكثر من نص ساعة". وبحركة مباغتة تنزع النظارة من على وجه "غادة" لنصدم بشكل عينيها المتورمتين! أجزع بشدة:

- إيه ده، ضرب ولا عياط؟

تضحك "سارة" وتقول:

- بتفكرينى بالموكلين بتوعى فى قضايا التعذيب، كل واحد أسأله قبل أى حاجة كهربيا ولا كرباج. بس حلوة برضه ضرب ولا عياط دى.

تأخذ "تهى" "غادة" فى حضنها وتربت على كتفها فتهمس لى "سارة" بصوت مسرحى: "حنان الأبله". ويبدو أن "غادة" سمعتها لأنها ابتسمت، فكانت فرصة لـ"سارة":

- هه، ماسمعتيش منك "عيشة" وهى بتسالك ضرب ولا عياط. بللا ماتضيعيش وقت أبله "تهى" علشان هتروح دلوقتى تسجن الحكومة الوحشة اللي بتسرق معاشات الأراامل.

تصرخ فيها "غادة":

- عياط يا زفتة. مش عارفة أتكلم مع "أحمد" خالص، كل مانناقش حاجة الموضوع يقلب خناقة على طول.

تهمس لى "سارة": "أحمد مين؟" أشير على مكان دبلة الزواج فى إصبعى: "أه، يا لهوى على ذاكرتى اللبطيخ". التقت لـ "غادة":

- مناقشة فى تفاصيل الجواز يعنى؟

- لا يا "عيشة"، فى كل حاجة. هو فى دنيا وأنا فى دنيا تانية. كل لما أقول له حاجة يقول لى: "إيه الهيافة دى، بنت رايقة قوى". طول الوقت محسنى إنى ولا حاجة. طيب ليه عرض على الجواز. أنا مش فاهمة حاجة خالص. النهارده بقى قلت له كل واحد منا فى سكة، وبإدار ما خلك شر.

تتهض "سارة" وهى تقول:

- مش قلت لك عروسة الأربع على بيت أبوها ترجع!

تقرر "سميرة" أن تخفف قليلا عن "غادة"، فتجلس بجانبها وتضع ملامح الجدية وتبدأ:

- بصى يا "غادة" الناس كلها بتقول الأطفال أحباب الله، وفى هذا السياق أحب أضيف إن الرجالة كمان أحباب الله، لأن ربنا هو الوحيد اللى بيحبهم، دول كائنات عبيطة وغلبانة، أراهنك إنك لما عملت كده الدكتور "أحمد" ده كان مخضوض ومش فاهم حاجة، وأكيد قعد يقول:

"ليه... مين... فين.... ليه"، صح؟ وأكيد كمان حاول بطلعك مجنونة على طريقة: "إنت حساسة كده ليه يا حبيبتي، إنت مكبرة الموضوع، إنت مكرونة بالبشاميل...، صح؟"

تضحك "غادة" وتؤكد: "ده بالحرف، كأنك كنت معانا".

تسالنا "سارة"، "بمناسبة المكرونة، هناكل دلوقت ولا نستنى الجثث؟" اضحك وتسالها "سميرة": "أنهى جثة فيهم، حددي، الجثث كثير"، أبداً في إحضار الأطباق وأقول: "كمال عنده جرد في الشركة ومش عارف هخلص إمتى، وشهاب" موبايله مقفول شكله في اجتماع بيحضر للثورة، "جميلة" مش قادرة تسوق علشان ركبتها وارمة، "معز" على وصول خلاص". تسال "سميرة": "طيب ومصطفى؟ مافيش أخبار منه؟" ببساطة تجيب "سارة": "مصطفى مات!" تصرخ "غادة" بجزع: "مات؟! إمتى؟" تلتفت لها "سارة": "سميرة عندها حق، أكيد خطيبك قال لك إنت أعظم مكرونة بالبشاميل يا حبيبتي، مات مجازاً يا زكية. ما هو متلقح نايم على طول". بتهيدة يأس تقول "غادة": "طيب وسمر؟"، بتهيدة مماثلة تجيبها "سارة": "افتحى التلفزيون تلاقىها".

ذاكرة منهكة

وما الحياة إلا تكرر متكرر يتكرر تكراراً متكرراً قبيحاً. أعود إلى برلين منهكة من سهر القاهرة، أخرج من المطار وأقف أمام موقف التاكسي وبمنتهى البساطة أبداً في نفص راسي يمينا ويساراً كما تفعل الكلاب عندما نصيبها نقطة ماء، أحاول أن أنفص القاهرة من عقلي، أحاول إفصاح مكان لبرلين في الذاكرة.. بالكاد يحصل البلد المؤقت على مكان في الخلفية، يسألني السائق في محاولة للتذكي: "توركيش أودر أرابيش؟" أجيب ووجهي يلتصق بالنافذة: "إجيبتش" ووددت أن أقول "قاهيرش". ثم فهم فوراً عدم رغبتى في الكلام. لا أغادر السرير يوماً كاملاً، لم يكن إرهاق السفر بقدر ما كان إنهاك المشاعر، القاهرة قتلتني بحبها، "ألا أيها القوم النيام، هل يقتل الرجل الحب؟ نعم حتى يتركه حيران ليس له لب"...

هتوحشيني.

القاهرة من غيرك ملهاش طعم.

مسافرة ليه، طيب أجلى شوية.

لا، مش معقولة وطيب واحنا هنعمل إيه؟

هو لازم تسافري يعني؟

هترجعى إمتى بقى يا "عيشة"؟
ممش قادرة أصدق إنك هتسافرى تانى.

كان لابد أن أسافر وما أنا قد سافرت. سافرت ببساطة وبغصة فى الحلق، ربما نحن فى سفر دائم، لا نعلنه إلا عندما يتوجب علينا أن نحصل على أختام تصنيف المزيد من النقوشات فى جواز السفر. سافرت إلى برلين لأنفض رأسى من القاهرة وأفضل. ننجح فى نفص الزوائد فقط، أما المتن فيبقى، بدوننا نحن لا شىء، نحن القاهرة وما نضيفه من فلسفة سخيفة وضحكات مفتعلة وقصص حب بائنة هى الزوائد التى ننفضها من يوم لآخر.

سافرت لأعيد الكرة المتكررة بتكرار متكرر. سافرت لأكون فى قلب المكان وخارجه تماما. ومرة أخرى يحين ميعاد عيد ميلادك مرة أخرى يا "روضة". لست متأكدة إن كنت أشعر بالذنب أم أن دراميتك الفائضة هى التى جعلتني على هذه الحال. ولا أجد ما أفعله سوى انتظار رسائل، سوى مكالمة لا تعنى أى شىء ما عدا ما قلته فيها: "كل سنة وإنت طيبة". تصلنى رسالة من "هاجر": "روضة زى القمر وكله تمام"، يتبعها "كمال": "الناس كلها هنا وهى هتكلمك قبل الشمع". أحاول أن أحتفل مع نفسى فاهتدى إلى فكرة تأمل القمر قليلا فى هدوء برلين لأدرك أن السحب تحجب القمر. وهكذا أنجح فى تملك هاجس يلهينى قليلا عن غيابه عن عيد ميلادك،

لا بد أن أرى القمر. ولأننى لم أجده فى السماء فقد وجدته على الورق، الحياة كلها ورق، نقرأه ونكتبه ثم نمزقه أو نتركه فريسة للغبار، مفكرة عجيبة تلك التى اشتريتها، بها كل الأعياد وكل التواريخ بالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية ومرسوم بها كل مراحل القمر. يوم عيد ميلادك كان القمر محاقاً، إذن لم يخدعنى، هو لم يكن هناك بالفعل. غبطة خفيفة: أول مرة لا يخدعنى أحد.

يتوافق عيد الهالوين مع عيد ميلادك يا "روضة" وتصاب أوروبا كلها بهستيريا، يحاولون طرد الشياطين باقتراض الحلوى وأكل القرع العسلى وارتداء أقنعة سوداء مرعبة، العالم كله مهووس بطرد الشياطين، وكل له شياطينه فى القاهرة يرانى الرجال ذوو اللحى شيطانا أعظم ويطردوننى بالكثير من الآيات والأحاديث والاستغفار، أما شياطين البيت فنطردها بسورة البقرة وقليل من الماء المضاف إليه رجلة وعرق حلاوة. الشياطين الأوروبية تبدو بأدوات طردها كوميدية: قرع عسلى وأقنعة حفلات تنكرية. كلما التفت فى الشارع أجد كل أشكال القرع العسلى، كبيرا وصغيرا، للزينة وللأكل، مع النباتات والأكلت، يتدلى من الأسقف والجدران.. الحياة قرع عسلى كبير.

أحاول الهروب من حصار القرع العسلى فأجلس على مقعد خشبي
واخذن سيجارة وأرغب المحلات على الناحية المقابلة. بإمكانى أن أهرب
متى شئت من كل هذه البضاعة الاستهلاكية المهولة، وعند هذا اليقين يقع
بصرى على أكبر قرع عسلى رابضة بهدوء وثقة عند مدخل محل. يملكنى
غيبض شديد، وأبدأ فى تأمل هذا الشيء فى محاولة لفهم السحر الكامن به
الذى يطرد الشياطين. أثبت نظرى عليه حتى يتلاشى كل شيء ولا يبقى
سوى نقاط سوداء أمام نظرى، لا أتنازل ولا أسيح بنظرى ولا أغلق عيني،
لا بد أن هناك سرا ما فى هذا التحديق. غالباً ما يكمن السر فى تلك النقاط
السوداء التى تتراقص أمامى الآن، هكذا بصر كل أصدقائى وأصدقاء
أصدقائى وأصدقائهم، يكتبون فيرقدون على السرير ويتأملون النقطة
السوداء بسقف الغرفة ويسترجعون كل الهواجس ويصرون أن عقلم كان
"قاضى خالص"، ثم يواصلون حياتهم بعد ذلك وكان ما حدث كان جملة
اعتراضية. لم يخبرنى أى منهم ما سر النقطة السوداء وأنا لم أسأل، ربما
لأننى لا أنام على ظهري، بل دائماً على وجهى فى أول الليل ثم على
جنبى الأيسر فى بداية الحلم.

ذاكرة أول أول

انتهت سنواتك بالجامعة وبدأت صباحاتك تتعثر. نوم كثير وأكل أكثر ثم نوم ثم لا شيء. كنت أفهم الورطة التي وجدت نفسك فيها. لم تستعدى لهذا اليوم، كان الأمر كله معلقاً على شبه جملة: "لما أكبر عايزة أكون مخرجة". ها أنت قد كبرت وبدأت الورطة، توطانا جميعاً ولم نتكلم عن العمل. أنهيت دراستك منذ شهرين وربما تحتاجين إلى عامين لتجدي العمل الملائم. لم انصور أنك ستجربين وراء حلمك بشراصة، حتى شهدت بنفسى كيف تتحول الأحلام إلى حقيقة، لأكون شاهدة على جزء من تاريخك، ولأحكى بعد عشرين سنة وأقول: "لما كانت صغيرة"، وكأننى أعيد صياغة مفرداتك.

كنت متربعة على الأرض تقومين بقراءة الجريدة، فوجدتك تهتفين بفرح: "ياه ده؟ كامل زياد بيعمل فيلم". أخبريتى أن "كامل" كان يعرفك وأنت طفلة، وأنه بالطبع لن يتذكرك الآن. حصلت على رقم هاتفه وببساطة طلب منك المجيء فى اليوم التالى لتتضمي لفريق المتدربين. فهمت بعد ذلك أن عدد المتدربين فى السينما مهول ولا مكان لموضع قدم. التزمت الصمت وقررت أن أتركك تصنعين أول ذاكرة فى العمل بمفردك تماماً. وبدأت أشهد

على التفاصيل، اختيار الزى المناسب، بنطلون أم جولة، مساحيق خفيفة، شعر مصفف، أول جملة: "صباح الخير" أم "سلام عليكم"، وبدأت أنت تحاولين كسب حب من حولك لتشرى بالأمان. في اليوم الخامس بالتدريب نجحت أن تكونى طرفاً أساسياً فى ماكينة الفيلم وبدأت أزمك الطاحنة.

كانت أيام عملك طويلة، وكانت مكالماتك لى كثيرة. تحكين لى كل التفاصيل، وأحياناً تبكين، وكل يوم بعد أن ينتهى يومك يكون لديك اليقين التام أنه سوف يتم الاستغناء عنك. نقص ثقة بالنفس، لم أرَ هذا لديك من قبل. كان مختبئاً هذا الرعب خلف كتب الجامعة وروايات "إيزابيلا الليندى" وفى الأحضان الواسعة التى قدمنها لك. كنت أنتظر كل حكاية منك بعد يومك الطويل لأؤكد لك أن هذا يعنى النجاح، وأنت بارعة فيما تفعلينه وأنت متصلين حتماً. مع الوقت تمكنت من اجتياز هذه الأزمة. وظهرت الأزمة الثانية. كانت أيامك الطويلة فى العمل مفاجئة وصادمة لك. لم تترك لك تلك الأيام فرصة واحدة لمتابعة حياتنا التى تسير كما هى منذ سنوات. فكنت كمن ينزعونه نزعاً من مكان ليجد نفسه وقد ضل الطريق لأنه لا يملك خارطة. وبدأت محاولتك المستميتة لتتبنى عدم غيابك، فتخرجين بعد انتهاء يومك الطويل، ومع كل كلمة تسمعونها تسألين: "هو إيه حصل؟ مين؟ فين؟ ليه؟" بل بدأ سلوكك يعبر عن تأنيب لى لأننى لم

أمك لك ما حدث. كان الذعر يسيطر عليك بسبب إحساسك بأن العالم الآمن الذى عشت فيه يتسرب من بين يديك. ظللت تحاولين الإمساك بالعالمين، وكنت أعرف أنها مسألة وقت واعتياد ومرة أخرى لم أساعدك. أردت أن أدفعك إلى الخارج، هناك، حيث لا أمان ولا أحضان. أردت أن تكبرى. نركنك تماماً لتفهم معنى الاختيارات ولتحملى نفسك فى الدنيا الواسعة. كنت أكرر فقط أنك لا بد أن تستمتعى، فأنت لم تحصلى على عمل فقط، بل حصلت على الحلم.

بعد انتهاء أحد تلك الأيام الطويلة، عدت إلى المنزل وأنت صامتة ووجهك مكفهر. أسألك عما بك فتقولين: "لا، تعبانة بس". فهمت أن شيئاً ما حدث فى العمل.. إنك لا تريدين الحديث عنه. لم أقلق كثيراً فقد كانت معظم مشاكلك نابعة من عدم فهمك للدنيا الواسعة كما كنت تفهمين أصدقاء الجامعة. أردت فقط أن أذكرك بأهمية الاستمتاع والرضا عن الذات وعن المساحة الضئيلة الهامشية التى حصلنا عليها فيه. بدأت أحكى لك ما حدث أثناء اليوم بناء على طلبك المعتاد كل ليلة. وكانت قصة ذلك اليوم هى قصة "ابن نبوية". حاولت أن أتذكر عدد الجمعيات المالية التى شاركت فيها "نبوية" ليكمل ابنها تعليمه ولم أنجح. كان اختيار ابنها لقسم اليونانى واللاتينى يبدو غريباً بالنسبة لى. فالدراسة بهذا القسم رفاهية لا يقدر عليها سوى قلة. ما العمل الذى يحتاج إلى اليونانية القديمة أو اللاتينية الميتة؟ كان "محمد" قد أعلن عن رغبته فى الالتحاق بهذا القسم وعندها أدركت أن من

حقه أن يحلم. من حقنا جميعاً أن نحلم وإن نحقق قلة من أحلامنا. لكن "محمد" لم يتمكن حتى الآن من تحقيق أى شيء. تخرج ثم التحق بالجيش لىخدم وطنه ولكن الوطن لم يخدمه ولم يبال به. وبدأت رحلة مريرة لمحاولة الحصول على عمل. بعد عام كامل وجد إعلاناً بالجريدة عن وظيفة فرد أمن على باب شركة. تقدم للوظيفة ثم اكتشف أن مواعيد العمل تبدأ فى الثامنة صباحاً وتستمر حتى العاشرة مساءً، سبعة أيام بالأسبوع والراتب مائتان وخمسون جنيهاً بالشهر. رفض "محمد" للوظيفة، فقد أراد أن يحصل علىوظيفتين ليزيد دخله، ووجد أن هذا العمل سيقتل كل حياته الذى كان بها طموحات تعلم كمبيوتر وإتقان اللغة الإنجليزية. كاد اليأس يفتك بـ"محمد، حتى إنه ختم المصحف عشر مرات فى شهرين. وأخيراً عرض عليه جاره فرصة سفر للكويت، فأدرك "محمد" أن الله قد استجاب لدعواته ولدعوات أمه. جاءت "نبوية" فى ذلك اليوم وكانت تحكى بفرحة متوترة ممتزجة بخوف ظاهر عن فرصة السفر. سألتها عن الوظيفة التى سيقوم بها "محمد" هناك فقالت إنها لا تعرف وإن "محمد" نفسه لا يعرف. كل ما يعرفه "محمد" هو أن الراتب سيعادل ألفاً وثلاثمائة جنيه ومن حقه زيارة مصر كل عامين. كانت مشكلة "نبوية" هى محاولة جمع المبلغ الذى تشترط الشركة دفعه قبل أى خطوة وهو سبعة آلاف وخمسمائة جنيه. حاولت أن أشرح لها أن هذه شركات نهب ونصب وأنه لا طائل من السفر. بدأت "نبوية" تبكى وتقول: "نعمل إيه بس؟ نعمل إيه؟ الواد عاطل من أربع سنين ونفسيتہ تعبانة قوى". وكانت الفكرة التى تغنى عنها ذهن "نبوية" هى الفكرة

المكررة فى كل بيت.. بيع الأساور والسلسلة الذهب. نظرت إلى ما تسميه
"سوما" أساور فوجنتهما أسمك قليلا من ورقة السجارة، أما السلسلة فقد
"أنت رفيعة للغاية وبالكاد مرئية، وبالتأكيد لن تتجاوز قيمتها جميعا ألف
جنيه، هذا إذا افترضنا أنه ليس ذهب قشرة.

حكاية طويلة دفعت عضلات وجهك إلى الاسترخاء قليلا، ثم قلت: "الدنيا
ملبنة. أنا داخلة أنام علفان أروح بكرة الشغل وأنا فايقة لهم".

تكرار

برلين مرة أخرى والجو البارد ونكات الأصدقاء من القاهرة لسة
«ردانة؟» أو «يا عيشة يا بردانة، إزيك؟!» والبرد ينخر في عظامي حتى آخر
العمق، وتسمح أنفي لنفسها بالتصرف بكل حرية في الشارع، ولا يسألني
أحد ما بي. أسخن وأبرد ثم أسخن ثم أسعل وأرقد في السرير مع كل
الوصفات التي تعلمتها والتي سمعتها، ليمون دافئ ثم أسبرين ثم عسل ثم
«وم كثير وأكل كثير، وأحلام أكثر، ثم رغبة أن أشعر ملمس يد بشرية ولا
أحد سوى الجدار المواجه لنظري. غالباً لا أشعر بالثناء لنفسي في المرض
«ما يفعل الكثيرون ولا أفهم سبب شعورهم. في المرض أتمنى أن تتجاهلني
الدنيا بأكملها ولحسن الحظ هو غالباً ما يحدث. هو غالباً ما يحدث لأنني لا
أستكي ولا أتنمّر. أترك هذه المهمة للآخرين. بعد أن نشفى، دائماً ما
ننساءل عما حدث لنا وعما مررنا به وكأنه - ذاك الحدث - كان في عقود
ماضية. أن أقع طريحة الفراش ليس بالنسبة لي إلا اختبار القدرة على البقاء
وحيدة إلى الأبد، رهان قوة: من فينا الأقوى؟ المرض أم كرامة أجسادنا؟
تتحول الحياة إلى معطف مغلق من كل الجوانب، بدون أضرار، بدون أي
فتحات، قطعة واحدة وأنا بداخلها، لا مؤثرات ولا منغصات، مرض كامل
غير منقوص، مرض تام، كحجر الجمشيت المشطوف الذي يفقد كل
الخشونة اللازمة والتعرجات العشوائية والنهايات المدببة ليكون حجراً
أصلياً.

أغرق في حرارة المرض ولا أبالي بكمية العرق التي لا أشم رائحتها بسبب أنفي المغلق في وجه كل روائح العالم. أترنح في المنطقة بين السرير والمطبخ ولا أهتم بالتوقف عن التدخين. أحمل كوب القهوة وأعود إلى السرير وأسرح بخيالي في القاهرة التي تركت شوارعها مكسية بلافتات بعضها عبثي، القاهرة تستعد لبرلمان جديد، القاهرة تموج بمرشحين يحلمون بكرسي تلاحقه كاميرات الفضائيات، منهم من يريد للوجاهة، ومنهم من يريد لتسهيل عمليات السرقة، ومنهم من يريد للبلطجة وقليل يريد ليعتذر للقاهرة وليعتنى بها قليلاً ويهمس لها بالكثير مما لم يقله أحد من قبل.

تعود الشاشة التكنولوجية الصغيرة لتحتل مكان الصدارة في يومي، تتداخل الأسطر والحروف وتختلط على الأسماء وأقاوم إغراء الارتواء على السرير. أرتمي عليه في النهاية وكأنني قفة ملابس مهترئة ألقيت من نافذة في الدور السابع. يختلط الليل والنهار وكلما استيقظ أعود إلى مكاني أمام الشاشة، كلها محاولات مستميتة للشفاء قبل ميعاد مكالمة أمي يوم الجمعة. كنت أستميت في المتابعة. الانقطاع والانفصال هما علامة الفراق، وأنا خبيرة في الفراق. يبدأ الأمر بالانسال ثم يتطور أن ننسى ثم يتحول إلى

عبء فى يومنا نحاول التخلص منه لإعطاء الوقت لأمر أخرى، ثم نؤكد
أدا مهتمون لكنها مسألة وقت وانشغال والحقيقة أننا ندرك فى تلك اللحظة
«أما أننا نعانى من فقدان الرغبة، فقدان الاهتمام، تماماً كما تنتهى العلاقات.
أكلنا لا نواجه الإنهاء حتى لو أردناه، كبرنا كثيراً فلم نعد نتحمل فقداً جديداً
حتى لو كان ذلك يعنى العتاب المستمر. انتهاء العلاقة بالقاهرة يختلف عن
كل هذا، لأنه يعنى انتهاء حياة بأكملها، وهذا ما يعرفه كل المهاجرين،
يعرفون أن حياتهم انتهت هناك فيعيدون تشييدها هنا، الفول المدمس
والطعمية والأكل المصرى المختلط بنكهة ألمانية والتأكيد أن الطيور فى
برلين أفضل من الطيور فى مصر وأن الخبز أفضل وأن الحليب أنظف وأن
السمك أنظف، والبحث عن يشبههم ودعوات إفطار رمضان التى لا تنقطع
والتين الشوكى المقلب والجامع التركى واللىالى العربية وأغانى الشيخ
«إمام». يستمع صديقى المغربى لأغنية «شيد قصورك» ويسرح بعيداً ويقول:
«كانت هذه الأغنية ترسلنا فى نوبات هستيرية أيام الجامعة. إنتم ما تسمعون
الشيخ «إمام» فى مصر؟» كانت مهمتى طوال الوقت أن أبعد عن كل هذه
الأوطان المتخيلة، لن أستبدل بقاهرتهى قاهرة معلبة. ويلج السؤال، هل نعود
دائماً إلى نفس المكان؟ أم نسافر كالناس ولا نعود إلى أى شىء؟

كان أغرب إحساس هو أن أتابع صراع الفصائل السياسية المختلفة على
الشاشة، كنت كهؤلاء الشباب الذين يجلسون أمام شاشات فى مقاهى

الألعاب الإلكترونية، ويصارعون عدواً وهمياً توفره لهم التكنولوجيا. كنت كـ"شهاب" الذى يصارع أعداء وهميين على شاشة تليفونه المحمول، وينغمس تماماً فيما يفعله ولا يعير النقاش اهتماماً، ثم تتفجر أساريره فجأة: "كسبت". كنت ككل من فى القاهرة أتابع معارك وهمية لا تكتسب أهميتها سوى من أحلام بقطة طفولية. يراودنى الأمل فى بضعة كراسى، وهتفت "أخيراً"، كنت فى مظاهرة من فرد واحد وشعارها: "أخيراً"... الآن فقط سيتحول الكلام إلى حقيقة خارج الورق الذى استهلكناه فى كتابة محاضر الاجتماعات. ثم تأتبنى لحظة تعقل وأهاتف "شهاب" الذى قتل ليله ونهاره فى دائرة بولاق الدكرور، أقول له: "صندوق الانتخابات مش بيعبر عن أى حاجة" يؤكد: "عارف.. عارف". بالتأكيد كان يعلم لكننى كنت أبرم معه صفقة لكى لا ننير الأحزان بعد ذلك. وفهم "شهاب" الرسالة وسقط مريضاً بعد سقوطنا جميعاً، كل بطريقته، وبدون أن نعلن. فقط "سميرة" أصرت أن تعلن لتورطنا معها، لتورطنا فى مواجهة كنا نهرب منها: قولوا لعيشة إن أنا فى أشد حالات الحزن، وإن سفرى قرب"، نسيت أن تقول: "والقاهرة كمان". القاهرة تخنق بين قبضة العسكر وخشونة اللحي، ونحن نؤكد "كانت معركة هائلة"، تمتعنا بروح رياضية لا نظهرها فى مباريات كرة القدم، فقط لنهرب من تردد ما قالته "سميرة".

ذاكرة صور

انا أحب برلين. جملة تشبه المصقات ذات الألوان الرديئة التى نراها مثبتة على الزجاج الخلفى للسيارات: "انا (ثم رسم لقلب أحمر) مصر". دائما ما تساءلت لمن موجه هذا الملصق؟ فنحن جميعا متورطون فى هذا الشعور.. بشكل أو بآخر، لمن إذن؟ أحب برلين دون أن أعلن هذا للحب حتى لنفسى، فهذا تورط غير محسوب العواقب. أحبها وأقرر أن أمارس معها الحب سرا دون أن أخبر القاهرة. حب مدينتين فى وقت واحد.. هل يجوز؟ ليس كحب امرأتين، فهذا تشبيه ذكورى بحت، هؤلاء الكتاب الذين يشبهون كل مدينة بامرأة، فيقول لك الواحد منهم وهو يسبل عينيه بوعى شديد: "انا أعشق العديد من النساء" أو مثلا: تلك المدن كالنساء تماما لابد أن نكتشفها برفق". يثير غثبانى هذا الكلام وتتأبى رغبة فى القيام من مكانى وتسديد لكمة قوية لأنف صاحبه. النساء.. النساء.. حاملات الشرف ورموز المدن ورموز الحرية.. ولم يعد هناك مكان لهن، لأنفاسهن، لتفاصيل حياتهن، لآلامهن، لدموعهن، لفقرهن، لأرقهن. النساء.. لسن إلا رموزا.

برلين مدينة فقيرة فى كل شىء وهو ما يلائم مزاجى تماما، فالثراء يزعجنى، ويربكىنى ولا أعرف ماذا يأكل أصحابه. يزعجنى الأثرياء الذين

يصرون أن يجلسوا على المقاهى ويتدلهون فى حب الفول والبانجان. يزعجونى فقط. برلين فقيرة فى كل شىء لكنها تفاجئنى دائما بالكثير من الموسيقى والصور لأجد نفسى محاصرة بمهرجان دولى لصور الفوتوغرافيا والفيديو. وهكذا تتأبى حى الصور، كنت قد بدأت من فترة أجمعها بجنون وبهم وكاننى أريد أن أثبت الحياة فى صورة، أن أحولها إلى صورة، أن أراها صورة، أن اسمعها صورة، كأننى أحاول أن أفهم شريط الصور.

أقرأ الخريطة (رغم براعتى فى قراءة الخرائط لم أقرأ خريطة القاهرة كاملة وربما لم أجد بعد الخريطة الملائمة) وأتوجه إلى المعرض، فى وسط برلين عند الخط الذى يقسمها (كان يقسمها). اشتري التذكرة وأتجاهل غرفة وضع المعاطف وأصعد إلى الطابق الثانى. على السلم تتحول كل برودة جسدى إلى حرارة شديدة فأخلع الجاكت والمعطف والكوفية. أناول الرجل الواقف بالمدخل التذكرة فيقول لى كلاما كثيرا لا أفهمه. ببرود محايد أقول: "إنجليش بليز"، فيفهمنى أنه على أن أعود إلى الطابق الأرضى لأعلق ملابسى فى المكان المخصص لها. تظهر كل علامات الدهشة على وجهى وأسأله مستكبرة: "تريدنى أن أعاود النزول؟" يقدم لى حلا عبقريا: "عليك إذن أن ترتدى كل الملابس". أبدا فورا فى ارتداء الجاكت والمعطف والكوفية بدون كلمة واحدة، الألمان يمارسون بيروقراطية أكثر من تلك التى نمارسها ولن أضيع وقتى فى نقاشات خضتها آلاف المرات فى القاهرة. فى مواجهة

المدخل طالعنى الجدار الرئيسى بملخص للمعرض، مائة وخمسة عشر
 .صوراً!! سأنقئ إذن. صور غرائبية وجدران تنتهى ليبدأ غيرها، حتى
 اوقف امام جدار كامل يحمل صوراً لأماكن طلاقات الرصاص فى المباني،
 ..هفت بصوت عال، لم أتخيل أبداً أن يتحول ثقب الطلقة إلى شكل رائع
 ؛هذا.. أتأمل بكثير من الدهشة وبعض الخوف، يمكن إذن التعايش مع
 الرصاص، يمكن خلق الجمال من الموت، وبما أن العالم كله لم يعد يحوى
 ..وى الرصاص فليتحول كله إلى لوحة كبيرة جميلة. اضطر إلى مغادرة
 الجدار بعد أن بدأ مسئول الأمن يرتاب فى امرى وهو يرانى أهمهم بكلمات
 عبر مفهومة. من جدار إلى جدار وكل ما لم يخطر ببالى يتحول إلى
 صورة. لو يخرج "كمال" من صوره المحبوبة فى وجوه البشر ربما يتمكن
 من فهم "سارة". لو فقط يغير عدسة الكاميرا، لو يغير من سرعة أنفاسه
 لحظة النقاط الصورة، لو يفهم أن "سارة" ليست صورة، لكنه لا يراها سوى
 كوجه فى صورة ذات إضاءة مثالية على ورق غير لامع من زاوية دقيقة
 فى عالم عشوائى.

أنتقل بكم للملابس التى تزداد حرارتها حتى أجدنى فى قاعة بها أفلام
 وصور وكتب وكتابة إنجليزية وألمانية تقابلها، وأسفل كل صورة شرح لها
 والتاريخ. واضح أن الصور مأخوذة مما يعرض على الشاشة فأقرر أن
 اختصر المسافة وأتابع الشاشة. فيلم قصير يصور المقاومة فى نيكارجوا،
 مقاومة الشعب ضد العسكر. أتنبه بعد ثوان أن كل من ناضل ضد العسكر
 قال نفس الجمل: "كنا فقراء ولا نجد ما نأكله.."، "كان كل من يقول لا

يختفى في اليوم التالي..."، "كانوا يسرقون محاصيلنا..."، "لم يكن لدينا أمل في أي شيء...". أقرأ وأتأمل وجوه من يتحدثون، كم يشبهوننا وكم هي شديدة حرارة الطقس هنا، وأشعر بالعرق يدغدغ عمودي الفقري حتى تصيبني جملة في مقتل: "لم يكن أمامنا خيار سوى المقاومة، كنا كالموتى فلم يكن يضيرنا أن نموت مرة أخرى". ولن يضيرنا أيضاً. أشعر بالحرارة تزحف إلى رأسي فأخرج إلى البرودة. أعبر كل الممرات لأعاود مشاهدة الصور مرة أخرى.

صور أخرى

لا أكره يوم عيد ميلادى إطلاقاً، أحبه واحتفل به كما ينبغى. يسألنى الأصدقاء على استحياء: "كام سنة بقى؟" أجيب بصوت عال: "خلاص السنة الجاية أربعين، استعدوا للاحتفال". لا أفهم لماذا لا أشعر بالقلق تجاه العمر، لا يملكنى أى شعور بالذنب، لم أقصر فى أى شىء، حاولت وفشلت. المهم أننى حاولت بكل حماس واحتفلت بمقدم بعض الشعيرات البيضاء التى حولتها الحناء إلى أحمر واضح، اللون الذى سيعت له عشرين عاماً جاء فى ليلة واحدة.

"حنان" تكره يوم عيد ميلادها ولا تحب أن يذكرها أحد به. تتتابها كل علامات الاكتئاب فيخفت صوتها وتحد ملامحها وينعقد ما بين حاجبيها وترفض أى علامة للاحتفال. بعد عدة اتفاقات والعديد من الإلغاءات يعلن زوج "حنان" الذى كان موجوداً فى برلين أنه سيطهو. أصل لأجد "هشام" الزميل الجديد الذى وصل إلى برلين حديثاً. نستمع قليلاً لحكاياته عن أمريكا، حكايات أرانى خارجها تماماً وكأننى أقف فى هامش مظلّل بالمساواة واللامبالاة. أثبت نظرى على طبق الجبن أمامى لأتقذى الحرج، لألقى أى علامة انزعاج أو اندهاش، لأبدو جزءاً من الحكاية، وأعود بسهولة إلى القاهرة، القاهرة التى قفزت فى الحوار بينى وبين "شهاب" على

التليفون قبل ذهابى إلى "حنان". تجاهل "شهاب" القاهرة وقال: "بورسعيد فيها مباح". أجيب: "ياه". تواطؤ آخر. بعد قليل تنتهى الحكايات ولا ينقذنا سوى الكاميرا الجديدة التى اشتراها "هشام". كاميرا تلتقط الصور ببراعة ولا تهمل التفاصيل. يلتقط "هشام" الصور تباعا لـ "حنان" وزوجها ثم لى ثم التقط له صورة، ثم يعاود التقاط صور لى وكل صورة نتبادلها ونعلق عليها ونؤلف حكاية كاملة. ثم نرىنا "حنان" القبعة الجديدة التى اشترتها، فنعاود التقاط المزيد من الصور ونعلق: "لا.. لا الإضاءة مش حلوة هنا" أو: "الله الصورة دى تجنن بجد" أو: "ايه ده مناخيرى شكلها بضحك!"، وتأتى "حنان" بكاميرا الفيديو وتسجل خمس دقائق لا تكل هى و"هشام" من إعادة عرضها. ماذا كنا نحاول أن نثبت؟ اللحظة أم الحكاية أم نحن؟ كنا نحاول أن نقول إننا الآن هنا وإن التاريخ المختلف يمكنه أن يجتمع فى كادر واحد؟ إن الزمن المتفكك يمكنه أن يتعانق داخل الإطار؟ كنا نحاول أن نصنع تاريخاً مشتركاً أو ببساطة لم نجد ما نفعله سوى التقاط الصور. هى ليست كصور "كمال" التى تلتقط أحزان بشر لا نعرفهم، هى صورنا التى حاولنا فيها إيداء أكبر قدر من السعادة والرضا.

حاولت أن أمحو القاهرة من على وجهى فى الصور التى التقطتها لى "هشام" ولست متأكدة أننى نجحت. "استرخى يا "عيشة" علشان الصورة

تطلع حلوة. بصى يا "حنان" وشها مشدود إزاي؟ استرخى يا بنتى". أحاول
أن ألبى لـ"هشام" ما يريدّه وأفضل تماماً. القاهرة محفورة فى كل خط من
وجهى، فى العين التى تضيق عن العين الأخرى، فى الابتسامة المتوجسة،
فى الغصة التى أكاد أراها فى حلقى ومازلت أشعر بها، فى الجلسة
المتشنجة، فى اليد التى لا تعرف أين تستقر فتبقى معلقة فى الهواء.
"استرخى يا "عيشة"، ريلاكس". و"عائشة" منقسمة ما بين الهنا والهناء،
والقاهرة لا تغادر، نحن فقط نغادر. "هذا غريب لم يتّرحّز عن مسقط
رأسه. ولم يتّزعزع عن مهب أنفاسه".

ذاكرة شارع

أغادر الثالثة صباحاً وأبدأ البحث عن موقف للتاكسى. أسير فى شارع هادئ واستمتع بلفحة الهواء البارد الذى يرطب قليلاً مخونة التدفئة المركزية ويقلل من تأثير دخان السجائر. أستمع لدقة كعب حذائى على الأسفلت، ثم أبدأ أمارس لعبتى المفضلة فى الشوارع الخالية. أنغم دقة الكعب.. دقتين ثم دقة واحدة وتليها الأخرى أو اثنتين ثم اثنتين.. وأبدأ القفز فوق خطوط وهمية، ثم أشعل سيجارة وأتبع الخطوط التى يرسمها الدخان فى الهواء، وعندما يستمر خروج الدخان من فمى أدرك أن درجة الحرارة قد هبطت كثيراً. غريبة هذه الشوارع، لا أحد بالمرّة، ولا حتى كلب ضال، تكاد درجة الإحساس بالخطورة تنعدم لدى. ربما هذا هو الشيء الذى سافقته فى القاهرة، لن أحلم بالمشى ليلاً، سأحلم بالمشى نهاريًا دون أن أسمع تعليقًا أو نظرة أو نظرات أو خبطة كتف، أن أمشى فى شارع طلعت حرب دون أن أبدو كالزجاج، أنتقل من الرصيف إلى الشارع ثم أضطر أن أتفادى السيارات لأعود وأتفادى البشر، أدافع عن مساحة ضئيلة لجسدى، الحق فى أنى أدافع عن جسدى. نظرى دائماً مثبت فى اللاشئ لكيلا لفهم خطأ. يدي تقبض على حقيبتي فى حين أخطو الخطوتين فى خطوة واحدة. فى كل مرة أجوب شوارع القاهرة وحدى أشعر أننى أقترف ذنبا، ومؤخرا أصبح ركوب التاكسى يسبب لى نفس الإحساس. الثالثة ظهرا أركب التاكسى وأنا متجهمة بكل قوتى لأبدو امرأة جادة: "مش من إياهم"، ألمح

جريدة بجوار السائق وأجدها فرصة لإظهار مزيد من الجدية. "ممكن
الجرنال من فضلك؟" يستدير ليناولنى الجريدة ولسبب ما، ربما لضيق
التاكسى أو لمحاولة السائق التركيز فى الطريق أو بشكل قصدى، لا أعرف
ما الذى جعل يده تصطدم بركبتى فنفضت يده والجريدة بقوة. "لا.. لا ما
تفكريش يا لبله إن أنا كده، ده إنت بنت بلدى برضه وأنا سواق على العربية
دى من أيام "عبد الناصر"، ده أنا أفديك بركبتى". "معلش معلش حصل خير".

ألقى بعقب السجارة وأظلم مدة أتأملها حتى تتلاشى جمرتها، ثم أتوجه
بهدهوء إلى التاكسى وأفتح الباب، أجلس بجانب السائق وأقول له العنوان
بثبات وألقى برأسى إلى الخلف وأغمض عيني. جميل أن أشعر بالأمان
بجانب غريب ولو خمس دقائق.

واحكى يا "سارة"...

"غرب إيه وبتاع إيه؟ إنتم بس علشان ماتعرفوهمش كويس. طبعاً هم منظمين وفاهمين شغلهم ومش بيرغوا كتير زينا بس الحقيقة بقى إن احنا بنفهم عنهم. أقلها إحنا عارفين إنهم موجودين.. هم بقى بيتقاجنوا يا حرام بوجودنا. يعنى إحنا عاملين لهم زحمة فى الكون ولخمة مالهاش أى لازمة. بيوضبوا كل أبحاثهم على أساس إنهم لوحدهم خالص. مرة من زمان مش فاكدة سنة ٩٢ ولا ٩٣ ولا ٩٤ ولا ٩٥ ولا يمكن قبل كده..."

يغرق "كمال" فى الضحك وتتطلق "غادة": "هو مين اللى سرق العمود يا سارة؟" وتقاطعها "سميرة": "بس بقى يا "غادة" أهو أى سنة وخلص، هى السنين يعنى مهمة قوى واللا إبت فاكدة نفسك بيع بن".

"هاكمل الحكاية يعنى هاكل الحكاية". لا شىء يعوق حكى "سارة".. أبداً. "كنت باشتغل مساعدة لواحدة إنجليزية جاية تعمل ورشة عمل عن الحملات الانتخابية للمنتات. كانت أيامها بقى لسة بادية موضحة المشاركة السياسية للمرأة والفلوس داخلة بالهبل للجمعيات، كل جمعية فيك يا مصر بعنت لتتين مالهمش فى أى حاجة والزهق هي موتهم أصلاً. المشاركة

السياسية، مشاركة إيه وهنشارك مين؟ والله الكلمة دى بتفكرنى بالجمعية التعاونية، وبأ سلام لو قلنا الجمعية التعاونية للمشاركة السياسية.. الله.."

- احكى بقى يا سارة، إيه ده؟

"طبعا هاحكى، بس من حقى يعنى اعلق واتأمل حكايتى وأعمل شوية تداعيات. حكايتى وأنا حرة فيها. وبعدين مش أنا اللي باحكى، ببقى أعمل اللي أنا عايزاه. المهم، ماطولش عليكم قولوا لى والنبي طولى، جت الست من إنجلترا وقعدت تقول إن دخول المرأة البرلمان الإنجليزى بدأ من المطبخ، وبالتحديد من على ترابيزة المطبخ، قلت فى سرى أه لو تيجى وتشوفى أمى بتعمل إيه فى المطبخ؛ هتسى يعنى إيه برلمان من شوية الروائح اللي هتهل عليك. وتقول للستات أهم حاجة التخطيط السليم للحملة يردوا: "إن شاء الله ربنا هو اللي بيدبر"، تقول لهم والمهم كمان إنكم تعملوا شعار يلفت النظر يقولوا لها: "أمال إيه، دول بيحبونا ويحترمونا قوى فى النواحي بتاعتنا". والست دى كأنها حافظة مش فاهمة ولا واخدة بالها إن بقالها ثلاث أيام بتكلم نفسها، نسيت أقول لكم إن ساعة لما اتكلمت عن المطبخ، نص الستات قعدوا يضحكوا والنص التانى قالوا عليها "جاهلة". الست قبضت فلوس علشان تقول الكلمتين دول وبس. المهم فى الآخر كان جزء من الورشة إن الستات يتدربوا على الكلام كده قدام الناس، فطلبت من كل واحدة تسجل ثلاث دقائق فيديو. وطلعوا الستات يتكلموا زى لعبية

الكورة بالضبط "بسم الله الرحمن الرحيم، طبعاً بتوفيق من ربنا إحنا أهـ
رشحنا نفسنا وربنا يقدم ما فيه الخير. وماحدث بياخد غير نصيبه". والست
بنت الذين تقول لهم: "برفكت.. إكسلنت". شفتم نصب أكثر من كده، إحنا
من موجوديين ييين خالص".

ذاكرة احتلال

استشقت عادم السيارات اليوم حتى الثمالة، راسى يدور وكل جسدى شبه متهاو ومنهار من التعب. لم أتمكن من الوصول إلى المنزل فالشارع مغلق من الناحيتين والسيارات تقف مكتلة فى انتظار الفرج. اتصلت بـ"سارة" وشرحت لها الموقف. كنا على موعد لأقابل صديقتها العراقية "ابنسام". وأردت أن أستقبلها فى منزلى، تفهمت "سارة" المشكلة وأخبرتني أن هناك مظاهرة ضئيلة العدد أمام نقابة الصحفيين. حاولت أن أفكر فى أقرب مكان من منزلى فلم أجد سوى فندق الهيلتون. توجهت إلى هناك وبعد خمس دقائق أقبلت "سارة" ومعها صديقتها "ابنسام" ونهى. بعد أن سلمت عليهن شرحت لى "سارة":

- لقيت "نهى" واقفة هى وخمسة معاها بيهتفوا ثورة ثورة حتى النصر، ثورة فى كل شوارع مصر، بصيت على الثورة وعلى الشوارع مالقيتش ولا حتى صرصار أضربه بالشبشب، قلت يبقى أكيد قصدهم على الأمن اللى مالى الشارع وقافله من الناحيتين. صعبت على والله أحسن يحصلها انفصام لودعى فى الشخصية وقلت أجيبها معايا وأكسب فيها ثواب. ما هى صاحبنا برضه.

أغرق فى الضحك ولا أتوقف إلا عندما تبدأ "نهى" فى التذمر:

- ولما صعبت عليكِ كده ماوقفتيش تهنتى معايا ليه؟ والا كان وراك
الديوان يا "سارة"، المتهم كانوا خلاص معلقينه على الحبل يعنى.
- لا يا أبلة، كل الحكاية إن أنا الأسبوع اللي فات رحت ثلاث مظاهرات
وطلع عيني شمس وأمن وشتيمة وحشر وتقيص. هو احنا لازم نتواجد
دايمًا، فين الجماهير يا أبلة اللي طول النهار إنت و"كمال" بتكلمونا عنهم.
قولوا للجماهير معلى يساعدونا شوية لو مش هيصابقهم يعنى. وبصراحة
بقى أنا فى المظاهرات باشوف نفس الوحوش والخلق اللي أنا مش مضطرة
أخوفهم باسم النضال.

ترضخ "تهى":

- عندك حق، فيه إشكاليات لازم تتناقش.

أحاول تهدئة الموقف:

- وإنت يا "تهى" جاية من آخر الدنيا علشان مظاهرة فيها سبعة، مش
ارتحت لما شاركت، خلاص سببى ضميرنا فى حاله.

تبادر "تهى" بسؤال "ابتسام":

- وإيه أخبار العراق على حسك؟

يتغير وجه "ابتسام" قليلا وتجيب باقتضاب وهى تقلد اللهجة المصرية:

- بتسلم عليكِ.

مالت على "سارة" وهمست سريعا:

- فهمى "تهى" إن البت مش ناقصة، دى أول ما جت من شهرين كان عندها انهيار عصبى، خليها تلم الدور شوية. هى فاكرة نفسها بتعمل لقاء فى نشرة الأخبار؟

لكرت "تهى" فى ركبته فصمّت على مضض. ولكنها لم تصمد طويلا، فعندما لاحظت بعد قليل أن "ابتسام" تتكلم وتضحك سالتها كالطقة:

- إنتم زعلانين على "صدام" هناك؟

- وين أيام "صدام"؟ هاذى كانت رفاهية، كانت الحرية. لازم نفقد الحرية حتى نعرف معناها.

امتعضت "تهى"، فالكلام لا يلبي أفكارها:

- يعنى إيه؟ ده كان ديكتاتور، حد يزعل على ديكتاتور، ده كان...

قاطعتها "ابتسام":

- وهسه عننا احتلال. شنا قبل نقول خطية فلسطين، بعدين صرنا نقول خطية بلدنا، وبعدين صغرت الدائرة قمنا نقول يلا ما يخالف المهم العائلة وأصدقائى وزمائى بالشغل، وبعدين نسينا الزملا والأصدقاء وقمنا نقول بس العائلة، بس الأهل وبعدين صرت كل يوم الصبح أقول معلش ما يخالف المهم بس أمى وأبويا وأخويا وزوجى. شفت كيف نفقد إنسانيتنا؟

فى محاولة خاطئة منى للتخفيف سالتها:

- وبتعملى إيه هناك يا "ابتسام"؟

- حبيبتي أنا بطلت من الشغل، ما بقى واحدة تقدر تطلع وحدها، وأنا زوجي يطلع على السبعة ونص الصبح ويلا يرجع على السبعة ليل. أقعد على القنفة ما أسوى شىء. الحال واقف، المي مقطوع وييجي ويا الكهرباء ثلاث ساعات باليوم. حسبيها، ساعة كل سبع ساعات. ييجي المي أكون زى الماراثون، بايد أشغل الغسالة وبايد المكنسة وبايد أغسل الطماطا، لازم أكون أخطبوط حتى أكمل الشغل. وبعدين أقعد ما أتحرك من مكانى، أكون واعية إنى ما أبذل أى جهد حتى ما أشعر بالحرارة، حتى الستارة ما أقدر أفتحها حتى الشمس ما تدخل، إذا دخلت يصير الجو فظيع. أنام على جنب واحد أربع ساعات لغاية العرق ما يملا المخذة، أقلبها على الوجه الثانى. كنت والله أهذى من الحرارة وأتخيل أشياء. كنت أجلس وبس، كنت مثل البرص اللى ما يتحرك على الحائط. بعد شوى أسمع مثلا إن فيه انفجار فى جنوب بغداد، وشنو يعنى جنوب بغداد، وين جنوب بغداد، أكلم أبويا على الموبايل وأقول له: 'بابا إنت عايش؟' وأكلم زوجي وأسأله 'إنت يم الانفجار حبيبى؟' هاذى شغلة الموبايل بالعراق، ما أدري إشلون هاذولا بيمنعوه.

- بيمنعوه؟ هم مين؟

- إيه.. المجاهدين أول ما بدوا قالوا الموبايل حرام، والكاسيت حرام، والمخلل حرام، ومحلات القماش حرام، والتلج حرام.

- مخلل وقماش وتلج؟ إيه الجنان ده؟

- المخلل متخمّر والقماش معناه إن النسوان بيطلعوا ويشترّوا ويفصلوا
وبعدين يلبسوا للرياجيل، أما الثلج فهو رفاهية للمواطن ما كانت موجودة
أيام الرسول.

نسال "تهى" باستحياء:

- وحكاية السرقة دى كانت بجد يا "ابتسام"؟

- طبعاً عيوني، كنت فى البداية لسة أقدر أسوق سيارتى، فى الظهر
والله شفت الحرامية يفكوا اللمبات من على الجسر.

- والأمريكان كانوا بيتقرجوا طبعاً؟

- الأمريكان كانوا فى مكانين بس. أمام وزارة النفط والقصر
الجمهورى. خليهام الأمريكان شى مهمم بينا. والله كنت أشوف عوائل
أعرفها، ما هم محتاجين، بس يدخلوا القصور والبيوت حتى يكسروا أنف
الحكومة ويخرجوا بزجاجة زيت.

تواصل "تهى" أسألتهما الكارتونية:

- الأمريكان كانوا فى الشوارع عادى؟

- اليوم الأول سمعنا إن فيه انفجار بمكان شغل أبويا، نزلنا أنا وعلى
أخويا حتى نطمئن، طلّعنا بس من باب البيت ولقينا الدبابات والأمريكان فى
كل شبر، ما كنا مصدقين نفسنا. كنا نمشى إحنا والدبابات. هسة حطوا
لافتات مكتوب عليها "عزيزى المواطن حرصاً على سلامتك ابتعد عن

الدبابة ١٠٠ متر"، واللى يتقرب بس ينضرب رأساً، تعرفين عدد الناس اللي يموتون خطأ فى اليوم بالعراق كام؟
تتدخل "سارة" بأسى:

- يعنى هو فيه موت صح وموت غلط يا "ابتسام"؟

بابتسام ممزوجة بالسخرية تجيب "ابتسام":

- المسائل نسبة وتناسب، مو؟ هذا شىء عادى بحياتنا، يعنى اليوم يا "سارة" لما كنت مهتمة بهذى العاركة فى الشارع كنت راح أموت من الضحك والله. عاركة؟! تعالوا العراق شوفوا الجثث المرمية والنسوان الللى ينخطفوا قدام الواحد وما نقدر نعمل شىء. إذا وقفنا ولا نظرنا نموت رأساً.

تسعر "تهى" بالتورط التام ولا تجد سوى تعليقها الشهير: "حاجة تقرف والله، فلسطين والعراق ولبنان، الواحد مكتتب على الآخر". فجأة يتملكنى الضحك حتى يتطاير من فمى رذاذ القهوة، وينظر لى الجميع فى استنكار، اتمالك نفسى بصعوبة وأقول: "أصل تهى" نسيت مصر!"

وجملة "ابتسام" ترن: "كنت زى البرص".

ذاكرة جوع

فى كل محاضرة فى برلين أتذكر حكاية "سارة" عن تدريب المرشحات للانتخابات، لأدرك أنها لخصت المشكلة الأبدية فى حكاية واحدة تشبهها. فى كل محاضرة أتأكد أننى لست سوى رقم مضاف على قائمة "الأجانب". لست موجودة، أنا لا أوجد. حتى عندما خرجت مظاهرات البطالة لم أعرف ما الذى يجب أن أفعله. كل ما أعرفه هو أنه لابد أن أؤكد أننى متعاطفة بالطبع مع قضية البطالة وأننى لست همجية ولست عنصرية ولا أنزعج من الكلاب التى تشمشم فى قدمى طوال الوقت ولا أنزعج من الأرفف المصفوفة بكل أشكال طعام الكلاب والقطط. لابد أن تشى ملامحى أن الأمر "عادى" وأننى أنزعج من الصوت العالى فى الشارع وفى القطار لأن الهدوء هو "العادى"، لابد أن أرتدى القبعة فى الشتاء وكاننى ولدت بها وأتجاهل الجليد الذى أشعر دوماً أننى سادفن تحته يوماً ما، الأمر كله "عادى". لابد وأن أجلس فى المطاعم وحيدة ليبدو الأمر "عادى"، وأن أحمل الكمبيوتر لأجلس فى الحديقة ويبدو الأمر "عادى"، وأن أدخن سجائر لف لأنه "عادى"، وأن أبتاع كل الخضر التى تشبه القلقاس والنّى لم أرها من قبل لأنه "عادى"، وأن أقود الدراجة فى درجة برودة لم أشهدها من قبل وأن أضع وجهى فى الكتاب بشكل دائس وأن أغلق المدفأة ليلاً لكى لا أدفع كثيراً

وان أتناول كميات هائلة من البطاطس فى كل أشكالها، حساء وفطيرة وسلطة ومقلية ومحشية ومعلبة وطازجة ومجمدة ومعجونة ومهروسة. البطاطس هى الشيء الوحيد الذى لم أقوِّ عليه رغم رخص ثمنها الملحوظ. لم يكن الأمر "عادى". لم أحتمل أن أسكت جوعى فى البرد القارس بالبطاطس. ولا لأذكر أننى ذهبت يوماً إلى السوبر ماركت وابتعت شبكة بطاطس، على الرغم من الجملة التى كتبت عليها بأحرف صغيرة للغاية "مستورد من مصر".

لكى أصل إلى الجامعة لابد أن أستقل المترو من المحطة الكائنة تحت المنزل وأقوم بتغيير خط المترو بعد ثلاث محطات، وبالتحديد فى محطة فهرلينر. أنزل من عربة المترو مع كل المغادرين لأصعد سلام مع كل الصاعدين ثم أسير فى ممر طويل مع كل السائرين لأعود وأنزل سلام أخرى وانتظر المترو الذى يقلنى إلى محطة دالم دورف. ولا ينتهى الأمر هنا. أخرج من المحطة صعوداً على سلام ثم أسير فى شارع ليس به سوى أنا والمبانى على الصفيين وأوراق الشجر التى أغوص فيها بحذائى. ادعو دائماً ألا أغوص فى بقايا الكلاب بدلاً من ورق الشجر. مدينة بلا صوت، مدينة بلا انفعالات، مدينة تشبه سطح الجليد الأملس. وأكاد أصرخ من شدة البرد. رحلة أقوم بها مرتين فى الأسبوع، ذهاباً وإياباً. فى طريق العودة تكون البرودة قد جمدت أطرافى وافقدتتى الإحساس بأنفى حتى إننى أتحسس

وجهى عدة مرات لأتأكد من وجوده فى مكانه. ومع البرد يأتى الجوع، فجأة وبلا استئذان. هجوم عنيف يلغى أى حسابات فى موانع الأكل. ويبدو أننى لست الوحيدة فكل من يصعد إلى المترو يكون منهمكا فى قضم شىء ما، سندويتش، فطيرة، تفاع، قطعة شيكولاتة، أو أشياء أخرى لا أميزها. محطة تلو الأخرى حتى أصل إلى محطة فيربلنر مرة أخرى، وأعاود صعود السلالم ثم المشى فى الممر الطويل، وفى نهايته بالتحديد وحيث يجب أن أهبط سلالم أخرى تهاجمنى رائحة البطاطس لأتوقف مكانى وأحاول أن أقاوم الإغراء. شابة تقف فيما يشبه كشكا تتاول كل مشتر قرطاسا من البطاطس تعلوه بقعة حمراء أو بيضاء. نجحت أن أقاوم الإغراء كثيرا لكن فى المرة الأخيرة وعندما أوقفتنى الرائحة قررت أن أبتاع قرطاسا مشابها لكل القراطيس التى تتلذذ بها الأفواه، خاصة أن اللون الذهبى للبطاطس كان متناقضا مع اللون الأحمر الذى يعلو قمة الهرم. أخذت مكانى فى الطابور، هكذا أصبحت أقف فى أى طابور دون أن أشعر، حتى إننى فى إحدى المرات فى السينما توجهت إلى دورة المياه فوجدت امرأتين تقفان خلف الباب فوقفت خلفهما، فقالت لى إحداهما إن ذلك ليس طابورا. أرئى لحالى دائما فى هذه المواقف. أنا التى جئت من مدينة لا تعترف بالطابور، أقف بتلقائية فى أى طابور هنا.

ومن طول فترات الصمت ومن طول الطوابير تعلمت أن أركز بصرى على شىء واحد، أى شىء أنتقيهِ. هذه المرة اخترت الشبابة التى تبّيع البطاطس. ولأن الرجل الذى كان واقفاً أمامى كان طوله حاجباً لكل شىء فقد خرجت قليلاً عن الصف لأحصل على رؤية أفضل. يتقدم كل زبون لتسأله عن طلبه، فيقول لها: "بوم فريتس" وهى البطاطس المقلية متساوية الطول والسّمك التى انتشرت فى القاهرة مؤخراً فى محلات الأكل السريع والتى تستخدمها أمى بكثرة والتى أكرهها، لا أحب الأشياء المتساوية، أكره تلك النزعة المثالية، أو يقول الزبون "كانترى بوطيطز" وهى أكثر سمكاً ولونها داكن لبقائها فى المقلاة وقتاً أطول. وفى كل مرة تقوم الشبابة بتعبئة ملعقة الغرّف بالبطاطس النيئة وتضعها فى المقلاة أمام الزبون وتضبط الموقد أو توماتيكياً ليطلق صفارة معلنا نضج البطاطس، فتقوم بتعبئتها فى القرطاس وترش عليها ملحاً وشطة حمراء، ثم تسأل: "كاتشاب؟ مايو؟" فيختار الزبون كاتشاب لتقوم هى بالضغط على ما يشبه حنفية تسيل منها الصلصة الحمراء على البطاطس أو يقول الزبون: "الاثنين"، فتضغط على حنفية الكاتشاب ثم المايونيز بالتوالى. تقدم القرطاس للزبون الذى يبدأ فى التهامه مباشرة أثناء دفع الحساب. تتعامل مع كل زبون وكأنها ستقدم له شيئاً جديداً، شيئاً غير متوقع، ويتواطأ معها كل زبون. حتى جاء دورى فطلبت "كانترى بوطيطز" وعندما سألتنى "كاتشاب؟ مايو؟" ارتبكت، فسألتها بالإنجليزية: "ما الأفضل؟" أجابتنى بسلاسة ودون أن تتركها إنجليزيتى: "الأفضل هو تناول البطاطس بدون أى إضافات" وابتسمت، فابتسمت

واومات برأسى موافقة. ناولتتى القرطاس و اردفت: "يمكنك ان تاكلى هنا اذا شئت"، وأشارت إلى منضدة صغيرة عالية بدون مقاعد امامها مباشرة. توجهت إلى المنضدة ووضعت القرطاس على المنضدة فانفرط نصفه. لم اهتم كثيرا بالتاكيد، لم اكن قادرة ان أنهى كل هذه الكمية. وبالفعل فقد أكلت حوالى نصف النصف وشعرت بالامتلاء. فما كان منى إلا أن توجهت إلى سلة المهملات وضغطت عليها بقدمى لألقى بما تبقى، لأسمع تلك الشابة تقول بصوت عال "هالو". و"هالو" بالألمانية تعنى تنبيهها أو تحذيرا. لم أدرك أنها تكلمنى إلا حين نظرت إليها، بدأت تتكلم بالألمانية فتملكنى غضب. ما لها ومالى؟ ثم ما هذا الخروج عن التحفظ الألمانى المعروف! لم أنطق وظللت أنظر إليها بغضب. لا بد من إظهار الغضب هنا من باب الاحتياط. كانت قد أخذت بضع خطوات لتصل عندى، فقلت: "ما الأمر؟" فقالت: "ألم تعجبك البطاطس؟" زاد حجم غضبى، لماذا يجب ان أشرح نفسى طوال الوقت. فقلت: "بلى ولكنها كثيرة"، فقالت "أوكى، إذن أعطيها لأحد بدلا من رميها". غرقت فى ارتباكى فأنا دائما ما أفعل هذا، لكننى لم أفكر فى البطاطس التى أبقيتها، ولماذا تخرجنى هذه الشابة. قلت كلمات من قبيل: "نعم.. بالطبع.. أكيد.. سافعل". تجاهلت ارتباكى كما تجاهلت الطابور الذى كان يزداد طولا وسألتنى: "تبدى عربية.. من أى البلاد أنت؟" تجاهلت بدورى طول الطابور، وقررت أن أتذاكى فسألتها: "ولماذا عربية؟ قد أكون

تركية". ابتسمت وقالت: "عزيزتي، العرب فقط هم الذين يلقون بالاكل فى سلال المهملات. لابد ان اعود للعمل ولكن ارجوك لا تلقى باى بقايا اكل.. هناك بشر كثيرون، أكثر مما تتخيلين لا يجدون ما يأكلونه.." وعادت تسأل كل زبون: "كاشاب؟ مايو؟"

أخذت بالفعل بقايا البطاطس معى وأعطيتها للرجل الذى صعد إلى المترو ليعزف الجيتار. شكرنى بامتنان ممتزج بالدهشة. ولم أنس تلك الشابة والصدق الذى كان يشع من كل جزء بجسدها. الحقيقة أننى نسيتهـا بعد قليل، عندما بدأت أصارع الثلج الذى تطيره الرياح أثناء هبوطه الرائع من فوق ليستقر فى عيني وشعري وداخل ملابسى، لو فقط يحدد اتجاهه. إلا أننى تذكرتها، أو هى التى تذكرتى عندما مررت من نفس المكان قرب نهاية الأسبوع. أشارت لى بيدها على سبيل التحية فأشرت لها بما معناه أننى سأعود. وفى طريق العودة كان الصمت قد قتلنى واشتقت للحديث مع أى شخص، فتوجهت وأخذت مكانى فى طابور البطاطس.. "بطاطس بدون إضافات؟" فقلت: "ما رأيك فى قهوة؟" فقالت: "عظيم، فى خلال عشر دقائق سيكون لدى ساعة راحة". قلت: "سأنتظر". تجولت فى المحطة وبعد عشر دقائق بالفعل وجدتها تلوح لى فتوجهت نحوها وخرجنا لنجلس فى مقهى مقابل. كل جزء فيها يقفز من مكانه وكأنه يحاول أن يغادر، حتى صوتها.

"اسمى كرازينا من بولندا" ومدت يدا رجولية معترقة من زيت البطاطس،. "أهلا كرازينا، أنا عائشة من القاهرة". ابتسمت: "أشأ، اسم جميل". ولم تنتظر حتى نجلس، بدأت الحكى فوراً... "جئت برلين من عامين، قضيت منهما عاما كاملا أعمل فى تنظيف المنازل، وعندما أصابنى الغثيان من تنظيف المراحيض قررت أن أجوع حتى أجد عملا آخر. وبعد ثلاثة أشهر فى الشارع حصلت على العمل فى كشك البطاطس. صاحب الكشك رجل تركى لا يحب أن يوظف تركيات يقول إنهن يتكلمن كثيراً. لذلك أمثل أمامه أننى شبه خرساء. غضبت منى خالتى أنا كثيراً عندما تمردت على العمل فى المنازل، فقد ظلت تنظف منازل الألمان عشر سنوات حتى تمكنت من شراء منزل، بالتقسيط طبعاً. أكسب من البطاطس أقل بكثير لكن أى شىء لابد أن يكون أفضل من تنظيف المنازل. اتعاون أنا وصديقى على دفع إيجار الغرفة التى نسكنها فى شرق برلين وأحياناً أحضر معى قرطاساً من البطاطس للعشاء. الحقيقة أننى أتنازل عن القرطاس دائماً لـ"تيكىتا" لأننى لا أفكر ليلاً إلا فى النوم. أعمل كل يوم من العاشرة إلى التاسعة، فيما عدا يوم الأحد، أعمل ساعتين فقط. أتمنى أن تتحسن الظروف قليلاً عندما يحصل "تيكىتا" على المنحة الدراسية التى قدم لها. يريد أن يدرس علم النفس، أنا أريد أن أدرس التاريخ. كنت على وشك الحصول على منحة إلا أن شرطها كان دراسة تاريخ اليهود فى المنطقة. وأنا أحفظ هذا التاريخ عن ظهر قلب فقد جئت من كراكاو حيث معسكر

الأوسفيتش الذى أباد فيه "هتلر" كل الفنانين والكتاب والمفكرين. أوف...
تاريخ سئمت من حكيه لكل من يقابلنى، لو فقط يسألوننى عن شىء آخر.
بما أننى لن أتمكن من رؤية بقية العالم إذن سادرس تاريخه. مضت الساعة
سريعا، لابد أن أعود. هل سأراك ثانية؟" هزرت رأسى بالإيجاب وقلت:
"غدا"، فقالت: "لدى فكرة رائعة، هل تعرفين أن كل حى فى برلين يحتفل
مرة فى العام. لم لا تأتيني إلى الحى الذى أسكن فيه وتُشاهدين الاحتفال؟"
اتفقنا أن أمر عليها يوم الأحد بعد أن تنهى عملها ونذهب معا. فانا غالبا لا
أجد ما أفعله يوم الأحد.

كان الطقس معتدلا ولم يتوقف "تيكيتا" صديق "كرازين" عن إلقاء النكات.
تناولنا سندويشات ونحن جالسون على دكك خشبية فى الشارع والموسيقى
تصدح من كل شبر حتى كانت تتناثر أحيانا. مراجيح للأطفال، صناديق
خشبية يعبئ منها الباعة البيرة للمارين، أكشاك تبيع مشغولات فضية، قطع
حلى متراسة خلف زجاج، سيوف خشبية، امرأة رائعة الجمال ترتدى
فستانا أسود عارى الكتفين وتغنى فى ميكروفون فينبعث صوتها محدثا هالة
من البخار الأبيض بسبب البرودة، أكشاك تتراص بها جميع أنواع التوابل
والأعشاب.. كرغفال أخبرتنى "كرازين" أنه يستمر حتى منتصف الليل. كنت
بالطبع أمارس هوايتى المفضلة وأراقب البشر، أنتقى أيا منهم وأتابع ما
يفعل، حتى أبدت "كرازين" فجأة رغبتها فى الصعود إلى

المنزل لنحتسى القهوة. كنت أود البقاء لكن لم أتمكن من الاعتراض. صعدنا إلى الغرفة التي بالكاد كانت تكفى لاثنتين، وبدأ "تيكيتا" فى إعداد القهوة. خلعت "كرازينا" حذاءها وجوربها وأطلقت أهة طويلة ومدت قدميها على كرسى أمامها وكان الكرسى الوحيد بالغرفة. وقع نظرى على قدميها فكنت أصرخ، وعندما لاحظت جزعى قالت: "أعانى من الدوالى منذ زمن، لكن يبدو أنها وراثية من أمى". كانت عروق قدميها نافرة وتميل إلى الزرقة بشكل مخيف حتى إن هذا النفور قد غير من شكل القدم. حاولت أن أهون عليها الأمر ونصحتها برفعهما قليلاً. وغادرت بعد أن احتسيت قهوة سوداء.

ذاكرة أقدام

لم أقابل من يهتم بالأقدام كما تفعل "سارة". اهتمام يصل إلى حد الهوس. يبدأ الأمر من قدميها، ففي أحلك الظروف لا تقصر في حكمها بالحجر وتديكهما بالكريم كل ليلة. وأظافر قدميها لا يغادرها طلاء داكن اللون، وتذهب سرا مرتين في الشهر لتجري ما يسمى "باديكير". تذهب سرا لكي لا يقال إنها "بورجوازية". دائما ما تقول: "الأطفال مافيهمش غير رجلين بس، الباقي بقى انسوه". وعندما انتشرت موضة الشباشب بدلا من الصنادل كانت "سارة" هي أول الفرحين، فقدمهاها هما الشيء الذي تعرضه دون خجل أو ارتباك. وكلما تفعل هذا أكون أول الناظرين، وأهمس لها: "لا ليك حق يا سارة" لعملهم، هم يستاهلوا برضه". تستغرق في الضحك وتجيبنى بصعوبة من وسط نوبة سعال: "مش كده والنبى، أهو حاجة أتباهى بيها. بصراحة أنا مش عارفة الستات اللي رجليهم معفنة دول إزاي مش واخدين بالهم. بيفتكروا إن النظافة هتقلل من الجدية، تصورى؟ وكمان الرجالة، يا ساتر، كلهم كان القطر معدى على رجليهم. وبرضه فاكرين إن النظافة من اختصاص الستات. إنت عارفة يا "عيشة" الراجل مش ممكن يتعرف إلا من رجليه، بس إزاي بقى نقلعه الجزمة والشراب، هي دى المشكلة". أستغرق في الضحك بدورى وأعجب من النظريات التى تخرج بها "سارة" وكأنها

بديهيات، وأكسل عن الرد. لكن "غادة" بالطبع لا تفوت الفرصة وتقول:
 "خلاص نقطع رجليه ونريح دماغنا". ولا تتوقف "سارة": "وحياك ولا
 يفرق، هتلاقى دماغه زى رجليه. أنا حتى عمرى ما فهمت دماغهم بتشتغل
 إزاي. يعنى إيه المقدمات اللي بيوصلوا بيها لنتائج.. من وسط الضحك
 أقول: "إنتم خليتم فيها مقدمات ولا نتائج، رجلين إيه بس اللي إنتم بتفكروا
 فيها، يعنى مش شايفين التراب والتلوث اللي احنا عايشين فيه، وشوشنا كلنا
 أزرق فى أسود من الأكل اللي شوية يقولوا فيه فاشيولا وشوية سرطان،
 والمية اللي زى الفل اللي مليانة حيوانات أليفة و..." تقاطعنى "سارة": "إيه يا
 "عيشة"، ما تخليك حلوة، ما احنا عارفين والا يعنى عشان رحب شوية عند
 الخواجات خلاص.. بكرة ترجعى وتبقى زينا مش بس أزرق فى أسود،
 وحياك هتبقى تكنى كلر من طولة لسانك. طيب ده أنا من شهرين بعد ما
 بعيد عنكم ويا رب الشر بعيد عن السامعين ولا أشوفكم فى ضيقة زى
 ضيقتى...."، تنتم "غادة" فتكمل "سارة": "يا حبيبتي دعوات مجانية، هو
 إنت لاقية... المهم بعد ما راقبت شوية فى انتخابات سبتمبر أكلت حنة طبق
 كشرى من عربية فى الشارع إنما إيه... ماحصلش ولمسه عيشة أهو.
 والراجل كتر ألف خيريه صمم يغسل لى الطبق قبل ما يغرف فيه، والله يا
 "عيشة" غسله فى جردل مية بايتة فيه مش أقل من أسبوع، ماكننش عارفة
 ده لون الجردل ولا لون المية اللي فيه. لأ وإيه... بعد كل ده اديتيه ربع
 جنيه زيادة، بقشيش، ما هو كرمنى الصراحة، من وجهة نظره

بمعنى بطلوا بقى تبصوا لى كده. وأكلت الكشرى وأنا واقفة قصاده وكل شوية يقول لى: "هه كشرى المزمازيل تمام؟" أقول له يا سلام تعلم الأيادي. وكل اللى بافكر فيه إبنى عايزة أحصل رجله فى أى مكان. بس والله ما كنت بالكذب، أى حاجة ساعتها كانت أكيد أحسن من القرف اللى شفته فى اللجنة. حتى لو كانت مية الجردل بقى لها سنة. ده الضابط كان يشاور للعساكر من هنا ينزلوا عجن فى الناس من هنا، يعنى إذا كنت نفدت من العساكر مش هاخلص مع الكشرى. عمرى ما شفت بوليس كده، ماكنش فاهمة حاجة، لا عايزين الناس تنتخب ولا عايزين القاضى يطلع النتيجة ولا عايزين المرشح يدخل اللجنة، ولا عايزين الصحافة ولا المراقبين يدخلوا ولا يبققلوا اللجنة.. تزوير علنى زى زمان. عايزين يخلصوا مننا على أساس يعنى إن إحنا سبعين مليون عاملين زحمة فى الدنيا. عاملين كده زى الألمان بتوعك يا "عيشة". صدقونى بجد أنا متأكدة إن الحكومة بتقرف مننا ومن ريحتنا، النفساوى بتاعهم تجاهنا مش كويس. بس على مين ده إحنا بتوع الكشرى. إذا لم يهزمنا الكشرى فلن يهزمنا أحد.. يا سلام والله مطلع أغنية حلو". نضحك بافتعال فقد كنا نتجنب الخوض فيما حدث فى الانتخابات. ثم خيم علينا صمت قطعه "غادة": "باقول لك إيه يا "سارة" إنت متأكدة إن اللى فى الجردل كان مية مش حاجة ثانية؟"

!ع...ع...ع...ع.. وتخبئ "سارة" وجهها بين يديها ونواصل السعال الضحك.

ذاكرة عبث

أمل أحياناً من شاشة الكمبيوتر التى أتصيد منها الأخبار وأحن إلى تصفح جريدة حقيقية تترك بصمات الحبر الأسود على أصابعى. كانت "حنان قد دعتنى فى مكتبها أنا و"هشام" لنقابل كاتباً هندياً قام بتحرير موسوعة عن الأدب الهندى الحديث. بعد أن تناولنا الغداء انتقلنا إلى ما يشبه الصالون والذى يحرص الألمان على أن يكون متوافراً به الصحف الرئيسية فى العالم. بدأ الحوار حول "ملمان رشدى" بينما أنا أحاول عدم لفت أنظارهم إلى الجريدة التى أمسكت بها. وضعتها على المنضدة أمامى دون أن أفتحها، فكان نصف الصفحة الأولى يحتل نظرى تماماً بالصورة التى قبعت فى المنتصف تماماً: حوالى ستة رجال يتسلقون سلالماً خشبية مستندة إلى جدار متهاك. التعليق أسفل الصورة يقول: "مؤيدو الإخوان المسلمين فى الانتخابات يحاولون الوصول إلى اللجان للإدلاء بأصواتهم". لم أرَ صورة تشبه هذه من قبل. أنا المغرمة بالصور. صورة يمكن أن تعرض بسهولة فى أى معرض فى برلين مع انتقاء عنوان غريب بعض الشيء وتحصل على جائزة "صورة اليوم" وتعرض على شاشة مترو برلين. كادت الرغبة فى الضحك تقتلنى وكلما حاولت أن أكتم الضحك تزداد رغبى فيه. كان لابد أن أقول شيئاً وإلا سأنفجر من كبت الضحك. يجلس بجانبى قاض إفريقى من الجابون، وبهدوء وما يشبه الهمس، قلت له: "تخيل هذه الانتخابات عندنا. هل رأيت مثل هذا من قبل؟" ابتسم وقال: "تسميها فى بلدنا

ديمقراطية". قلت له: "غريبة ونحن أيضا". وفقط عند ذلك لم يستطع اى منا ان يكتم الضحك. لم استطع مطلقا ان افتح الجريدة فكنت انظر من بين ثناياها لأجد: "حظك اليوم".. بحثت عن طالعى: تمر اليوم بموقف شديد الصعوبة ستجتازه بحكمة". ضحكت فقد اجتزته لتوى، هل هناك أصعب من هذه الصورة، التى تبتعها رسالة من "هى" على المحمول "طبعاً عرفت الأخبار. قلبى مش مطاوعنى أكتبها. فيه واحد مات. واحد تانى فى المستشفى. إنت عاملة إيه؟ وحشتينى.." تتبعها رسالة من "غادة": "عيشة..تعاااااالى بقى. الدنيا زفت.."

فى المساء اجلس مع مجموعة من المعارف الجدد فى برلين.. مصريين مقيمين فى ألمانيا، مصريات متزوجات من ألمان، مصريات غير متزوجات ويتكلمن العربية المكسرة.. "اسمه إيه اللى طعمه مسكر كده شوية؟ اللى بتشربوه وتحطوه على الأكل.. أه افكرت اسمه حرفة". أجيب بمسخرية: "لا يا خواجه كريكو، اسمها قرفة". يتطرق الحوار إلى انتخاباتا - كما يسمونها - وبعد قليل يصل الكلام إلى مسامعى، وكأنه يبيت من محطة إذاعة فى القمر، مليناً بالخروشة والجمل المبهمة...

- أصل نظام التعليم لازم يتصلح، مش معقول الفصل قاعد فيه خمسين وأحياناً والله العظيم ستين تلميذ، تصوروا؟؟ ستين.. تخيلوا؟
- أصل الناس بتخاف دلوقت تودى عيالها مدارس خاصة، تخلف وانغلاق. طبعا فيه فقر، بس هى مسألة انغلاق.
- خلاص كله لازم دلوقت يتحجب غصب عنه.
- المشكلة فى الأزمة الاقتصادية، ليه مش بيعملوا زى الفلبين؟ "عيشة"، إنت مش سامعانى والا إيه؟ ليه مش بتعملوا زى الفلبين؟
- هم مين؟
- إنتم. المصريين يعنى.
- قصدك إحنا.
- وطبعا هيدفعوا الأقباط الجزية.
- هم مين؟
- الإخوان يا "عيشة" طبعا، إنت سرحانة فين يا بنتى؟
- كنت حاسنة ان كل ده هيحصل. الحمد لله إن عندى بيت فى ألمانيا.
- الواحد ممكن يقعد فى مصر بس مش غصب عنه.
- احكى لنا يا "هدى" حصل لك إيه لما رجعت مصر؟ قدرت تعيش فيها إزاي؟
- فضلت منهارة سنة بحالها وكان عندى صدمة حضارية.
- أيوه، ما هو ده اللى بيحصل لى أنا ومراتى لما نروح أجازة. وبعدين؟

- ما أنا باقول لك، فكرة إن عندى بيت هنا وبيت هناك مريحانى قوى.

يبتعد الصوت ويبتعد حتى أنفصل تماماً. ولا تبقى فى ذاكرتى إلا كلمة "بيت". بعد أن أغادرهم أتوقف عند أول تليفون فى الشارع وأتصل بـ"سارة".

- أيوه يا "سارة"، أنا "عيشة".

- ارجعى بقى يا "عيشة"، وحشتينى، خلى عندك دم.

- وإنت كمان. خلاص هانت. المهم احكى لى إيه اللى حصل؟

- حصل فى إيه؟

- فى الانتخابات طبعاً.

- عايزة تعرفى إيه؟ ما هو إنت أكيد متابعة اللى حصل. لحد دلوقت

الإخوان أخذوا حوالى الثلث والحكومة مش هتديهم أى حاجة ثانية. والحكاية فيها بلطجة ودم وموت. أما إحنا فخدنا ولا حاجة. صفر كبير قوى، أكبر من شجرة الكريسماس اللى تلاقىها مالية الدنيا عندك.

- يا "سارة" أنا عارفة موضوع الصفر ده، بس عايزة أفهم ده حصل

إزاي؟ كل المظاهرات والاجتماعات وحرقة الدم دى تطلع بصفر؟ إزاي؟

- يا "عيشة" لما يكون اليسار كله بيتخانق مع بعضه وبيشتم على

الإنترنت وبيطلع بيانات فاهم إنها هتكسر الدنيا من غير ما ينزل الشارع ويدفع التمن اللى المفروض يدفعه لازم يبقى عندنا أكبر صفر فى الدنيا.

ولما طول الوقت لبقى بنجرى علشان نتحالف مع الإخوان اللى هعلقونا

على باب زويلة قريب قوى لازم الناس الى معانا يكفروا بينا، ولما نخط طول الوقت أجنده أكبر من قدراتنا يبقى بجد الصفر مجاملة. المرشح اللي "كمال" كان ببساعده نجح علشان "كمال" موت نفسه فى الانتخابات مش علشان هو من اليسار ولا يحزنون. كل الحكاية إن الرجل معروف فى المنطقة و"كمال" حريف لانتخابات. الانتخابات كانت عبث يا "عيشة" وتضيع وقت ويا ريتنا ما وجعنا قلبنا.

ربما كانت تلك من المرات النادرة التى أسمع فيها نبرة اليأس فى صوت "سارة"، وهذا بالتحديد هو ما جعل جسدى يقشعر خوفاً. وبصوت يحاول أن يبدو لا مبالياً سألتها:

- يعنى خلاص يا "سارة" الشارع يا إخوان يا وطنى زى ما بيتقال؟
- يا "عيشة" لأ. المسألة مش بالبساطة دى. أنا بس مش عايزة أطول عليك وإنت بتتكلمى من برة.
- لأ لأ أنا عاملة حسابى. قولى.

- إنت عارفة للوطنى نجح إزاي. أما الإخوان فكانوا بديل لناس كتير قوى لأننا مش موجودين. الحاجة الثانية بقى إن الحكومة زى ما استخدمت العنف الإخوان ماكانش عندهم أى مانع يستخدموا نفس الأسلوب لولا بس إن عنف الحكومة أقوى. أما بقى الفلوس فحدث ولا حرج. وبعدين لو

راجعت مواقفهم هتلاقى إن مافيش فرق بينهم وبين الحكومة. لو شاطرة
قولى لى ثلاث فروق جوهرية بين الإخوان والحكومة. إنت مش فاكدة لما
نادوا مثلاً بإلغاء قانون الإصلاح الزراعى؟ احنا يا "عيشة" ماعملناش
الواجب اللى كان المفروض ناخذ عليه حاجة أعلى من الصفر.

- الوقت جه خلاص يا "سارة" ...

- أتمنى. هترجعى إمتى؟ اوعى تتهفى فى مخك وماترجعش وتفكرى
إن القعدة عندك هى الحل. كده قعدت مع نفسك كفاية قوى. تعالى حلى
مشاكلك هنا يا "عيشة". بطلى جو الهروب والمغامرات اللى إنت عايشة فيه
ده.

تؤلمنى الحقيقة قليلاً وربما كثيراً، أحياناً تسيطر على رغبة قطع لسان
"سارة":

- إيه العبط ده يا "سارة". مارجعش إيه وبتاع إيه؟ إيه أخبار الناس؟
- كل الأخبار عندى من التليفون. "كمال" خلص الانتخابات وعایش
حياته فى التصوير كالمعتاد. "شهاب" من ساعة الجولة الأولى وهو عيان
وراقد على طول. "سميرة" ماشية بنور الله وبتخلص إجراءات السفر،
و"غادة" إنت عارفة إنها أجلت ميعاد الفرح لما رس اللى جاى. "هاجر"
منزلة ومش بترد على التليفون خالص. "سمر" بقى التليفزيونات بلعتها
خلاص.

- طيب و"كمال" عامل إيه معاك؟ فيه جديد؟

- "كمال" إيه يا "عيشة"، "كمال" لما كنت باكلمه فى الصيف كان موزب
أموره مع واحدة ثانية، واحدة صاحبتنا مش هاقدر أقول لك هى مين. المهم
إن هى اللي جات وقالت لى على كل الحكاية. فضل "كمال" يتحايل عليها
وبعدين لما أنا ظهرت رماها وقال لها: "سورى أصلى ماعرفتش أحبك".
نصورى، "كمال" اللي عامل لنا فيها ملاك، قصدى عامل لكم إنتم. أنا الكلام
ده فاهماه من زمان. باقول لك مش بيقدر يولجه حتى نملة. الموضوع طويل
لما تيجى أحكى لك على كل حاجة. شغلك ماشى كويس فى برلين؟

- ماشى يا "سارة"، كله ماشى. إنت اللي شغلك عامل إيه، المدير اتعدل
معاك ولا لسة؟

- من ساعة الانتخابات وأنا واخدة أجازة وقاعدة فى البيت وسبت
القضايا اللي معايا لواحدة زميلتى. أول مرة أكتشف إن الأمان الوحيد فى
الدنيا دى هو سريرى فى البيت.

- مالك يا "سارة"؟ فيه إيه؟

- أصلهم خطفوا صحفية وموتوها من الضرب وبجد من ساعتها وأنا
مرعوبة. ماشية فى الشارع باتلفت حواليا.

- آه شفت صورها على النت. خايفة من إيه، يعنى هى أول مرة
يعملوها؟

- لا خايفة لأن دى أصبحت القاعدة. العادى يعنى.

- ربنا يستر يا "سارة". بوسى نفسك لحد ما أشوفك. وسلمى.
- بوصل، مانتأخريش. باقول لك إيه، لو مروحة على البيت قابلينى على الماسنجر، عايزة أرعى معاك فى حاجة كده.
- بنتابنى القلق:
- حاجة إيه يا "سارة"؟
- يوه يا "عيشة"، الكلام ده بفلوس، على النيلة الكمبيوتر ببلاش.
- ماشى، ماشى.

أعود للدق بكعب حذائى على الأسفلت، أدق وأدق لكى لا أدق رأسى بدلا من حذائى. أنفث كل المكالمة فى الهواء، تخرج كلمات "سارة" بخارا أبيض فى درجة برودة أقل بكثير من صفر الانتخابات. ولا يبقى فى ذاكرتى غير "البيت" وخيبة أمل فى يسار لا أملك له بدلا، حتى لو أردت لن أعرف. لا أتقن سوى ابتلاع هزائمه وتجاهل سخف أصحابه والتعامل مع عدوانيتهم المستعدة للأخر دائما.

ذاكرة مواجهة

أعود للمنزل قلقة. ماذا تريد "سارة"؟ أشغل الكمبيوتر بمجرد أن أصل للمنزل، أتركه يحمل برامجه بينما أخلع كل قطع الملابس وأعد شايًا أخضر. أعود لأتسمر أمام الشاشة، وتطالعني الأيقونة الخاصة بـ"سارة"، أحول لغة الجهاز إلى العربية وأكتب:

- الو يا بلد.

- كويس إنك رجعتِ على طول، الساعة كام عندك؟

- عشرة، وإنتم؟

- ١١

- احكى، فيه إيه؟

- "عيشة"، هادخل في الموضوع عدل. إنت سافرتِ بحجة تقعدى مع

نفسك وترتبى الدنيا فى دماغك من الأول. جيتِ ورحتِ مليون مرة،

وعمرك ما فتحتِ الموضوع ده تانى. ولا أنا مآلتك. قلت من نفسك

هتتكلمى، بس لقينك بليدة كالمعتاد وساكتة زى أبو الهول وعابزة تضحكى

علينا وتعملى إن كله تمام. إيه الموضوع بقى؟

توقعت أى شىء إلا هذه المواجهة. لماذا لم تتركنى 'سارة' استمتع قلباً
ببلادتى وسكونى فى اللافل، عند نقطة الصفر، راسى فارغ تماماً.

- 'عيشة'، بطللى استهبال، رحب فين؟

- أبوه، هنا، مش متأكدة إنى عايزة أتكلم فى القصص دى. أنا كويسه
عموما.

- ماشى، كويسة إزاي؟ اشرحى.

- الشغل كويس واستفدت من التجربة... مش عارفة.. كده يعنى.

- ماليش دعوة بالشغل، إنت عمر ما كان عندك مشكلة فى الشغل. أنا

بامال عليك إنت، إنت، من جوة عاملة إيه مع 'عيشة'؟

- ؟؟

- إيه اللي إنت مش فاهماه؟ الكلام واضح يا 'عيشة'، هو بس علشان

خبط لزق فجامد شوية، لازم تتعلمى تتكلمى عن نفسك. إنت فاكرة دى

أسرار مخبرات ولا حاجات مقدسة؟

- نم.. نم.. نم..

- أم إيقاع السلاحف ده. بصى يا 'عيشة'، عايزة أعرف ثلاث حاجات

مضايقتك.

-

- عيشة! يلا! ابتديت أغلى. إنت عاملة زى العيال اللى مش عايزين
رهنحموا. عيال معفنة. اتكلمى وانضفى من جواله، أحسن ريحتك قربت
ملع.

- "سارة" إنت سافلة!

- ماشى، يلا يا مؤدبة يا راقية قولى.

- مشكلتى إنى مش مبسوطه يا "سارة"، حاسة إنى فشلت فى حاجات
كثير، وساعات باسأل نفسى إيه فائدة الشغل ده كله فى بلد ميتة وفاسدة. كله
زى بعضه. مفيش فرق، مش عارفة إيه كمان.

-

- "سارة"؟؟

- أيوه أيوه، باسمعك. بس كده؟

- لا ساعات بافتكر حاجات شنيعة حصلت ودماعى تبقى بركان بيغلى
وباكره نفسى.

-

- "سارة"! إنت سايبانى أتكلم وخلص؟

- لا يا "عيشة"، بجد باسمع، بس حكاية مش مبسوطه دى مالهاش أى
معنى، دى حجة بس بتقولها لروحك علشان تفضلى زى ما إنت. بصراحة
أنا بالنسبة لى "مش مبسوطه" ترف كبير قوى. يعنى إنت عابزة بجد تبقى
مبسوطه والدنيا هنا كلها والعة، ومافيهاش حاجة عدلة، إزاي؟

- أنا باشوف ناس كثير مبسوطين، وما عندهم مش اى حاجة معكنة عليهم.

- اه طبعا، دول بقى عاملين زى سيد قشطة، لما تسونامى حصلت هو الوحيد يا حبيبى اللى ماحصلوش حاجة، عايزة تبقى سيدة قشطة؟ وبعدين هم مين دول أنا ما عرفش حد مبسوط والفرحة قاتلاه كده خالص. واللا قصدك على موضوع الجواز والطلاق، مصر كلها كل يوم بتتجوز وبتتطلق، إنت مش فاكرة حكايتى مع "كمال" واللا إيه؟ ومش فاكرة لما اتخطبت زى الهيلة بعد كده وماكملتش شهرين. مش آخر الدنيا يعنى يا "عيشة".

-

- وياه موضوع الفشل ده كمان؟ حدى بالضبط يعنى إيه؟ كلامك كله عايم. مين اللى بيحط معايير للفشل والنجاح؟ ماشى، إنت فاشلة، قاعدة عندك بتعملى إيه؟ بتدورى على النجاح؟ والنبي اشترى لى واحد معاك، بس مايكونش غالى، المستورد برضه أحسن من المصرى.

- بس يا زبالة.

- وهو أنا عمرى قلت إبنى نخبة؟ طبعا أنا زبالة. الحاجات بقى اللى بتفكر فيها دى لازم تطلعها وتحطها قدامك وتقولى أبوه أنا اتوجعت واتضايقت واتبليت، بس إنت على طول عاملة زى "نبوية" اللى عندكم فى البيت، فاكرة لما كنت بادور على شيشبى عندك فى الأوضة ولقينا كل الزبالة تحت السرير. مافيش فرق بينك وبينها يا متعلمة. حطيت كل اللى

واجعلك تحت السرير، وماشية تقولى: "أنا شجاع السيم، أبو شنب بريمة..
نم تم.. اعملى زى ما باعمل، احكى واحكى، أمال أصحاب على إيه؟

-

- "عيشة؟"

-

- "عيشة"، ارجعى حلى مشاكلك هنا، لو عندك مشاكل يعنى. كفاية سفر
والا فلوسك كتيرة قوى؟

-

كان صوتى قد بدا يرتفع بالبكاء ولم أرغب فى سماع كلمة واحدة،
كرهت نفسى وكرهت "سارة" فى تلك اللحظة. خرجت من الماسنجر بدون
كلمة واحدة، وأغلقت جهاز الكمبيوتر، كأننى أغلق الخط فى وجه "سارة".
وأكملت البكاء وأنا اتحسس ركبتى، لأنأكد إن كان الألم مازال موجودا وإن
كانت آثار الكدمة مازالت باقية.

ذاكرة بيت

البرد يقتلني، يجمد رأسي، يجمد أطرافي، يفقدني القدرة على فعل أي شيء، يفقدني حتى الرغبة. لكن الرغبة في عقلي تكاد تنهش كل ما تبقى من تركيز. اعتاد الجلوس بمفردي والمشى بمفردي والحديث مع نفسي. "امرأة مثلك وحيدة؟ هم الرجال اعموا، دول صحيح ما عندهمش نظر". ومثلي "ثيرات، وتتعلم الوحدة وتتقنها حتى تصبح لغتنا الأولى. اللغة الأم والأب، الأخ والأخت. الأصل هو الوحدة، كل ما عداها جمل اعتراضية واستثنائية وممنوعة من صرف المشاعر. أتقنت لا مبالاة "سمر" وانغلاق "حنان". أتقنت غياب الآخر لديهما، ولم يبق سوى "هاجر" التي مازالت تبالي بنا وبفواصلنا السخيفة وتتكلم كثيراً عن مشاعرهما، لم يبق سوى "هاجر" التي نرانا وتبكي وتتالم. لم يبق سوى "هاجر" المفزعة بقدرتها على ضغط كل حرف في الكلمة بشدة لنسمعه جلياً. كم "هاجر" نحتاج لكي نواصل؟ المشكلة أن "هاجر" تختفي ثم تظهر لتختفي وهكذا. في أحلك اللحظات الباردة المعجونة بالوحدة والرثاء تهاتفني "هاجر" من القاهرة الصاخبة "عيشة وحشيتيني قوى.. يللا ارجعي". وفي نزوة خيبة الأمل ترسل لي مع "توماس" الذي قابلها في القاهرة ظرفاً مطلقاً. اتحسسها فلا أشعر بالورق

داخله، أجد منديلاً ورقياً مكتوباً عليه بخطها: "يا عيشة كل سنة وإن،
الصاحبة الحميمة. إزاي بتعرفي تاخدي كل البلد والدفا مننا وإنت ماشيه"
بتعملها إزاي دي؟ هتقولي لي لما ترجعي. دلوقت كل سنة وأنا دفيانة بيا.
وبـ"روضة" بنتك الجميلة. هاجر". نعيش العمر كله لنشعر أن آخر
يحتاجوننا. أننا ذوو فائدة. أن هناك من ينتظرنا كما نحن. أن هناك من لا
يفقد صورتنا ولا ينسى ذكرنا. أن هناك... هناك... من يحبنا ببساطة لأننا
نحن ولذلك لن نشرح ولن نوضح. ثم كان أن اختفت هاجر، تلاشت تماماً
كانها لم تكن أبداً موجودة. أتعجب دائماً وأتساءل ما إذا كانت تفقد أياً من
الشعور بالسعادة ترف، من أين تأتي "سارة" بهذه النظريات؟

برلين الباردة تخبي قسوتها عن أعين الغرباء. تظهر جمالها فقط كامرأة
تتدلل وتعرض محاسنها لنقع في شباكها وتترك أن قسوتها مركبة. كلما
تصل قسوتها إلى الذروة تقدم لي شيئاً يعدل الفكرة. كان أبحث عن مكان
فتطوع امرأة تتحدث مع صديقتها في الشارع أن تصحبني إليه، وفي سبيل
ذلك تنهي حوارها سريعاً مع صديقتها، أو أن يفتك بي ألم الأسنان فيتطوع
صديق أن يتوسط لي لدى الطبيب الذي لا يملك مواعيد إطلاقاً، أو تفاجئني
امرأة على سلال المنزل بابتسامة عريضة وتحية، أو أحتاج لمقاعد إضافية
فأهرول صاعدة على سلال المنزل حافية وأدق الجرس على الجيران الذين
لم أقابلهم من قبل وأشرح لهم في كلمات بسيطة أنني أريد أن أقترض
مقاعد، أتوقع مثلاً أن يخلقوا الباب في وجهي فتتركني المرأة على الباب

«مود بمقعد فى يدها وتناوله لى، ثم تقول "فارتن بته" - اى انتظرى، كلمة .لمنتها من كثرة استخدامى للماكينات التى تبّيع السجائر، كلما اضع النقود، .يدا الماكينة فى هضمها ثم تطالعنى تلك الكلمة، بعد ثوان تظهر عليه السجائر - وتختفى المرأة ثم تعود بمقعد آخر، يلجمنى الامتتان وأؤكد لها انى اسكن فى الشقة التى تقع أسفل شقتها فتقول: "نعم، اعرفك جيداً". أو أن اشترى مناديل ورقية لأوقف السيل الهابط من أنفى فترفض المرأة أن تأخذ ثمنها، أو ينهمر المطر وأنا بدون شمسية فيفتح لى أحد المارة شمسيته ويضبط خطوته على إيقاعى. برلين الخادعة. كلما أكون عنها رأياً لا بد أن أغيره فوراً. هذه برلينات وليست برلين واحدة.

فى ذروة القسوة، فى قمة البرد، فى أعلى درجة احتياج، فى أشد حالات الرغبة لا أجد سوى البيت. البيت. ذلك البيت الرائع الذى تملكه صديقة نصف مصرية ونصف ألمانية. بيت أعيش فى مطبخه نهاراً وفى حجرة نومه ليلاً. بيت أكلم جدرانه وأعتنى بآركانه. بيت. بيت. بيت. البيت. بيتى. بيتنا. البيت. راحة البيت. أنا فى البيت. قاعدة فى البيت. نفسى أقعد فى البيت. لا مرسى مش عايضة أشرب حاجة، أنا جاية من البيت. يا سلام على البيت. أحلى حاجة هى القعدة فى البيت. الواحد مايرتاحش إلا فى بيته.

أفتح الباب من القفل العلوى ثم القفل السفلى، أطمئن أن هناك شعاع نور يطل من الشقة المجاورة، أدلف إلى الشقة. أخلع المعطف وأضعه على الشماعة المخصصة له. أخلع الكوفية وألقى بها على الأريكة فى المطبخ أخلع القفازات وأضعها فى حقيبة يدى. أخلع الجاكينة وأعلقها فى الدولاب أتجه إلى المنضدة الصغيرة بالمطبخ وأتجاهل بقعة الظلام المظلمة من النافذة العريضة. أجلس إلى المنضدة وأخبئ وجهى بين كفى. يعنى إيه بيت؟ هنا؟ أم هناك؟ هناك جاء عم "أحمد" فى القسم وعلامات الحزن تبدو جلية على وجهه، سأله عما به فقال: "البيت وقع فى الصالة". بعد عدة أسئلة فهمت أن البيت يعنى زوجته. زوجة.. صحبة، زوجة أى أبناء، صراخ ومرضى ونجاح ومدرسة وقلق على الغد وضيق ذات اليد، وفرح وجهاز وعريس وعمل جديد، بيت عم "أحمد" يشجعه على البقاء فى هذه الحياة. ماذا عن أمثالنا الذين لا يملكون حتى ترف الشعور بالإرهاق من مصاريف الأبناء؟ ولا ترف القلق على الآخر؟ ولا ترف للمذاكرة للأبناء؟ ولا ترف معاقبة الأبناء؟ الشعور بالسعادة ترف.

فى كل مدينة زرتها لدى بيت: باريس. دمشق. الرباط. أمستردام. عمان. لندن. بيروت. بروكسل. تونس. حتى الخرطوم التى تعثرت فى زيارتها، لدى صديق أو صديقة أقيم عندهما. لدى معارف. لدى أصدقاء هنا وهناك. ما البيت؟ حيث نتعلم الصواب والخطأ من وجهة نظرهم، حيث نكره صورتنا، حيث نتمرد ونخترع قواعد من تأليفنا، حيث نرتكب

أخطأنا، حيث نصحبها، حيث نتصل منها، حيث نمرض أم حيث ننداوى،
 حيث نفهم لماذا اندفعنا خارج البيت بحثاً عن الحب فى وقت مبكر، حيث
 ندرك أسباب صفقتنا للأبواب، حيث نتلقى أول مكالمة من أول رجل، حيث
 نبكى طوال الليل معتقدين أنها نهاية العالم فقط ليبدأ من جديد لا مبالياً
 بأمثالنا، حيث ندرك أننا أصبحنا كالورقة التى تزداد سمكا دون أن نشعر،
 فقط عندما نحاول أن نقطعها نكتشف أن هذه الورقة الشريرة اكتسبت وزناً
 دون أن ندري، حيث نفهم فجأة بعد أن نستيقظ من قيلولة معبأة بالأحلام،
 حيث نشكل القوة من مزيج صلابة وسخرية، حيث نكون فى منتهى الضعف
 فنواجهه بصلابة وفجأة وضحك، حيث يصبح لدينا عبء اسمه الوعى،
 حيث نراكم الألام تحت السرير ونواطأ على تجاهلها. ما البيت؟

ربما كلها بيوت. كل ما فى الأمر أننا لم نتعلم أن نقبل تعددية الأمهات
 والبيوت. بيوتنا هناك مليئة بالكتب والأوراق والقصاصات والمقاعد
 والمناضد والأكياس والعلب والبرطمانات والملابس، والغبار والسجاجيد
 وقطع الأثاث. بيوتنا هنا خالية من كل هذا، قطع أثاث قليلة حتى إننى
 أقترض من الجيران مزيداً من المقاعد، لا ورق ولا كتب كثيرة وقطع
 ملابس معدودة. حتى الغبار أبحث عنه بدقة لأجده. ورغم كل هذه القلة
 والندرة فى كل شيء تمكنت أن أعيش. عشت دون أن ينقصنى شيء. ما

الفرق بين البيت هنا والبيت هناك؟ دائماً ما يؤكد "عماد" أن البيوت تنتمي
لجنسيات مختلفة كالإنس.

فى القاهرة البيت هو مكان الغداء والمكان الذى نقيم به أمى فى الحجرة
المجاورة واللى تأتى مهرولة عندما نسمع صوت موسيقى ونقول "فيه إيه؟
والله اتخضيت عليك يا حبيبتي". افكرتك بتخانق مع حد فى التليفون". فى
القاهرة البيت هو المكان الذى تتدد فيه أمى: "بالعين اللى صابتنا من زمان
ومن يومها مامشيتش ولا كسبنا"، فأشعر أننى خالفت كل توقعاتها، أننى
سبب كل الإحباط الذى تعانيه أمى، كان المفروض أن ألبى صورة لكن يبدو
أننى مزقتها، فيتحول البيت إلى المكان الذى نهرب منه لنبحث عن أحد يؤكد
لنا جمالنا وروعتنا. يمكن لأهل القاهرة أن يعيشوا خارج بيوتهم عدة أشهر.
البيوت كلها مفتوحة للمبيت وبيوت مفتوحة للأكل، وبيوت أخرى لا تنام.
هناك بيوت هادئة للنوم وبيوت صاخبة للعبور. بيوت وبيوت. وكلها بيوت
بها علب وبرطمانات وقطع أثاث لا تفيد ولا تستخدم. فقط اعتدنا على
رؤيتها ولا نندم عليها إلا عندما نتخلص منها. بيوت أرضيتها خشب مغطى
بسجاد نسمع فيها وقع كل خطوة وكأنها أنين "إيىء..إيىء.."، وبيوت
أرضيتها بلاط نسمع عليها وقع الخطوة وكأنها حفلة راقصة تراك.. تشك..
تراك.. تشك"، وبيوت أرضيتها طين لا نسمع لها

صوتًا إلا في مقالات تنادى بحقوق "الفقراء". ويؤكدون على "الفقراء" وكان مرض تم اكتشافه ولا بد من علاجه فوراً. وكلها بيوت. وأهل القاهرة يقولون: "البيت بأصحابه" و: "الجار قبل الدار" و: "البيت ريحه حلو".

بيوتنا هناك تنن من تاريخنا المتعرج، قصاصات ورق مصفرة يمكن أن نلقبها ببساطة وفي كل مرة نقرر نتراجع. ربما نحتاجها في يوم ما. ملابس زاد حجمنا عنها كثيراً، لابد أن تذهب وفي آخر لحظة نتراجع، ربما نتمكن من استعادة الوزن القديم. كتب نعرف أننا لن نقرأها لأن العمر لن يكفى، نسمح عنها الغبار ونبقيها ربما يوائمتنا الزمن ونقوم بقراءتها. صور فوتوغرافية لبشر قتلونا وآخرين لا نذكرهم، نعيد وضعها داخل الدرج المكتظ الذى نغلقه بصعوبة. مقالات مقصوفة من صحف بهت حبرها، ربع جنيه ورقى لا أذكر مناسبة الاحتفاظ به، مجلة بها صورة لانفجار مفاعل تشرنوبل، كم هائل من الشموع المتأكلة، كتالوجات معارض انتهت، شرائط كاسيت لفرقة الجيتس، كارتنيهات جامعة قديمة، مفارش لا تغطي شينا وتجمع الغبار، أبحاث مؤتمر عقد في الأردن ولم أقرأ منها حرفاً، حقائب متأكلة، وقطع زجاج منكسر مرصوفة بعناية في أعلى الدولاب. ولا نجرؤ. هل أجرؤ؟ هل أجرؤ؟ هل أجرؤ؟ هل أجرؤ؟ هل أجرؤ على كل هذه الخيانة؟ بيوتنا هناك تواجهنا أننا نعيش حياة أخرى مؤجلة. حياة أجلتها حتى أحقق ترف الشعور بالسعادة.

بيوتنا هنا تستعجل رحيلنا ولا تمتص تاريخ بقائنا فيها. بيوت لا تستوعب رغبتنا في التراكم، تراكم ذاتنا في المكان، وتراكم الغبار على أسياننا القليلة. بيوت تعترض على ما يزيد عن احتياج اللحظة. بيوت لا نتمكن من تطويرها لعاداتنا فنقبل بها كما هي. بيوت عابرة نستخدمها لنذكر بيوتنا هناك. بيوت ننظفها في دقائق ونقضى العمر محاولين تنظيف بيوتنا هناك. ولا ننجح. كل ما يحدث أننا نغير أماكن تاريخنا قليلا. بيوتنا هنا بلا تاريخ، تلمع من النظافة والفراغ. لهذا لا نتوانى عن تنظيفها، فنحن نعرف أن المهمة سهلة.

انظف البيت هنا ولا أجد ما أفعله بكل هذا الفراغ حيث أحتل ركنا واحدا في المكان. التصق أنا وشاشة الكمبيوتر بمدفأة الحائط وجلس هناك طوال الوقت. فأنض من الوقت الذى خصصته للتنظيف. ثوانينى فكرة محاولة تنظيف البريد الإلكتروني، فهو يشبه بيوتنا هناك. قال مهندس الصيانة إنه ثقيل للغاية ولذلك لا يفتح بسهولة. أحتفظ برسائل لا أعاد النظر فيها مطلقا. لأبدأ التدريب على النظافة فى شيء صغير. أفتح البريد من آخر صفحة لأنظر فى الأقدم. أجد اسم "مصطفى" أمامى، وأقول: "ياہ إنت لعمه هنا". أبدا بلعبة محاولة تذكر ما بداخل الرسالة وأفشل تماما وسريعا، فأفتحها.

غرفة فى فندق "محمود درويش

سلام على الحب يوم يجرى، ويوم يموت، ويوم يغير أصحابه فى
الفنادق! هل سيخسر الحب شيئاً؟ سنشرب قهوتنا فى مساء الحديقة.
نروى أحاديث غربتنا فى العشاء. ونمضى إلى حجرة كى نتابع بحث
الغريبين عن ليلة من حنان، (إلخ.. إلخ...)
سننسى بقايا كلام على مقعدين، سننسى سجانرنا ثم يأتى سوانا ليكمل
سهرتنا والدخان. سننسى قليلاً من النوم فوق الوسادة. يأتى سوانا ويردد فى
نومنا، (إلخ... إلخ...) كيف كنا نصدق أجسادنا فى الفنادق؟ كيف نصدق
أسرارنا فى الفنادق؟ يأتى سوانا، يتابع صرختنا فى الظلام الذى وحد
الجسدين، (إلخ... إلخ...) ولمنا سوى رقمين ينمان فوق السرير المشاع
المشاع، يقولان ما قاله عابران على الحب قبل قليل. ويأتى الوداع سريعاً
سريعاً. أما كان هذا اللقاء سريعاً للنسى الذين يحبوننا فى فنادق أخرى؟ أما
قلت هذا الكلام الإباحى يوماً لغيرى؟ أما قلت هذا الكلام الإباحى يوماً
لغيرك فى فندق آخر أو هنا فوق هذا السرير؟ سنمشى الخطى ذاتها كى
يجىء سوانا ويمشى الخطى ذاتها... (إلخ... إلخ..)

حاشية على متن

لطالما أحببت هذه القصيدة لعبثيتها الجارحة، وسخريتها الموجهة من رغبتنا في التفرّد، وتأكيدنا القائل بأن كل ما يجب أن يكون حميماً وخاصاً هو في نهاية الأمر مشاع، مشاع: سربرنا وما ننساه من نوم على الوسادة وكلامنا الإباحي.

ولطالما خفت من هذا الأفق الذي تفتحه لكل رغبتي في التمرد على ما اعتبره الآخرون تفردي، ولكل رغبتي في الاستسلام اللذيذ لساعات تشبه أيام الآخرين ونساء عادات مثل نساء الآخرين، ونوم بلا طقوس وصحو بلا عادات وحب لا يحيل إلى حب آخر، وممتعة تمضي كما جاءت دون أثر ودون ذكرى.

ولطالما خفت منها لأنها جاءت، بعد أكثر قصائد "درويش" ملحمية وأطولها شعراً وغنائية، لتتبي بأن الشعر ربما نضب وجف معينه وإلا كيف يتنازل بهذه البساطة عن الأفاق التي تفتحها القصيدة، مثلاً ذلك القليل من النوم الذي نسيناه على الوسادة، ويستسلم لحالة الخ.. الخ..

الخ..

إ..

ل..

خ..

شرح على حاشية

كان الأبنودى يقول: مانتيش غريبة يابلدى ومانيش ضيف
وكنت أردد صحيح: مانتيش غريبة يا بلدى ومانيش ضيف."

حاولت فى البداية أن أتذكر مناسبة الرسالة ثم بدأت أحاول فهمها. ولا
أذكر إن كنت حاولت فهمها عندما تلقيتها أم لا. هل هو تفرد الذى يؤرقه أم
الشعر؟ ومن أين جاءت فكرة كونه متفردا. "مصطفى" ليس متفردا سوى فى
غيابه حتى أثناء وجوده، فى أعلى ذروة هو غائب، غيب متعمد وخوف من
التورط وضحك من الآخرين حتى أصبح غيابه ضرورة. أن يكون
"مصطفى" موجودا لابد أن يكون غائبا لكى نعتبر غيابه هو وجود الغياب.
أما فكرة التفرد فبعيدة تماما عن الغياب، لأن التفرد انتفى مع انعدام
الحضور. تسود الشاشة أمامى فأضغط على الزر مرة أخرى لتعاود الرسالة
الظهور وتخبرنى عن التفرد. لماذا يتوجب أن أفكر فى تفرد الغياب؟ ولماذا
أقبل الغياب وكأنه وجود؟ ولماذا أضفى شرعية على الغياب وأحتفظ
بالرسالة؟

نفس عميق.....

واضغط على الزر الذي يحمل أمر "امسح". مسحت الرسالة ثم حذفتها
من سلة المهملات. إنجاز. وما زال الشعور بالسعادة ترفاً.

ذاكرة رحيل

الملم حاجياتي، أكتب على قصاصات ورق صغيرة ما يجب أن أفعله وما يجب أن اشتريه. أتخلص من الكثير من الأشياء، فبعد أن مسحت "مصطفى" يمكنني أن امسح أى شيء. أبحث لـ"هاجر عن هدية لونها برتقالي، ولـ"غادة" عن شيء أصفر، أنكر نفسي بدواء "جمينة"، وكريم "سميرة"، وفيثامين لـ"تهى" و... أفكر فيما سابتاعه لأمي التي فقدت الرغبة في كل شيء فيما عدا الشيكولاتة. في غمرة الاستعداد للرحيل لا تتورع "هاجر" أن تقاجنتني دائما، فترسل لي مع صديق زار القاهرة والتقى بها رسالة. الرسالة داخل مظروف أبيض ومكتوب عليه من الخارج "عيشة جدا.. تصبحي على فل. صفوت"، صديقي النادل الذي يعمل بأحد مطاعم وسط المدينة. بداخل المظروف أجد رسالة "هاجر":

يا غالية.. ..

واحشائي ومفتقدك زى دايمًا وكأنك عمرك ما مشيت. وزى ما أكون عمري ما ضربت لك مواعيدنا. وزى ما أكون كنت طول الوقت معاك... وده عمره ما حصل. والحاصل الوحيد إنت عارفاه.. إني مشتاق لك وإن زى ما إنت عارفة.. البلد سافرت. أنا بخير لأنى زى ما أنا.. ماحدث مضايقتى.. ماياضايقتش حد على قد ما أقدر وباتونس زى عانتى بإحساسى

المستمر اللواعى بالذنوب الوهمية والتوقعات الغلط والأصحاب المعائبين
وقفل التليفون. "كمال" عمل لى مكالمتين كلامهم شبه الكلام وملينين
فضيان.. بحبك قوى.. واحشاني قوى..

هاجر!

كنت ساضع أنا علامة التعجب لو لم تضعها "هاجر"، تعيش دائما فى
اطول وأكبر إحساس بالذنب، تتسج الذنوب بدقة وتضفى عليها ألوانا
صريحة وتبدأ فى العيش عليها كدودة القز التى لا تكل ولا تتعب.

كنت قد قررت أن أمر على "كرازينا" فى طريقى لأطمئن عليها.
الأسبوع الماضى قابلتها عبر طابور البطاطس وبدت متعبة. سألتها عما بها
فقال أنها انتقلت من منزلها، تقصد حجرتها، لأنها تشاجرت مع "تيكىتا".
وعدها أن أمر عليها فى اليوم التالى ومر الأسبوع دون أن أشعر. لابد أن
أطمئن عليها وأن أخبرها أننى راحلة. وقفت فى طابور البطاطس الذى كان
طويلا لانتصاف النهار. قضيت الوقت أنصفح مجلة أدبية كنت قد اشتريتها
من يومين ونسيتها فى حقيبتي. وعندما جاء دورى أخيراً رفعت رأسى من
المجلة لأجد فتاة لا أعرفها. وكأننى تجمدت فى مكانى، وهى تسألنى: "يا..
بته شون". وأنا أحاول أن أبحث فى المكان بنظري عن "كرازينا".. "يا..
بته شون" بصوت أعلى. لم أقل سوى "كرازينا؟" أجابتنى ببساطة وهى تنتظر
للزبون الواقف خلفى: "كرازينا نيشت هير". وأين هى إذن؟ "إيش فايس

ليست". ومن الذى يعرف؟ وظللت "متسمة" فى مكانى وكأننى أحملها مسئولية غياب "كرازينا". كان الواقف خلفى شبه يدفعنى لياخذ دوره بعد أن أدرك كل الطابور إننى هنا من أجل شىء يدعى "كرازينا" وليس من أجل البطاطس.

بالفعل لم أفهم ما حدث فى تلك اللحظة، كأننى فقدت عمرى أو فقدت عقلى. تجسد الفقد بغياب "كرازينا". شعرت به ينخر فى عقلى، فى رأسى ويصل إلى أبعد نقطة فى الداخل. خرجت من الطابور واستدت إلى المائدة التى كانت "كرازينا" قد أشارت إليها فى أول مرة رأيتها. ولعدة ثوان كنت كمن انتقل إلى مكان آخر وعدت على صوت يكلمنى ويهزنى. أن يلمسنى الألمان فهذا يعنى أننى كنت فى عداد الأموات. رفعت رأسى فوجدته الرجل الذى كان واقفا خلفى: "آر يو أوكى؟" كرر سؤاله وأنا أبحث فى عقلى عما تعنيه هذه الكلمات. ثم ناولنى زجاجة عصير، ولم أجد إلا دموعى المنهمرة وهو يكرر سؤاله: "آر يو أوكى؟" ألا يرى أننى لست أوكى؟ كان الموقف يحتم أن أقدم إجابة فقلت من بين نهائى: "لا". فسألنى: "هل كانت "كرازينا" هذه صديقك؟" هزرت رأسى بالإيجاب. فسألنى: "ألم تتقأ على إنهاء العلاقة؟" فقلت: "لا لم تخبرنى أنها....."، ثم أدركت ما يقصده فزاد بكائى. غادرت وأنا أتمتع بكلمات لا معنى لها وهو مازال يصيح: "بى سترونج، لقد مررت بهذا الموقف من قبل". أغادر المحطة كالطفل الغاضب، ولا

بهمنى أن كل المارين كانوا ينظرون لى بالفضول الألمانى المعروف
وبالذهول من هذا البكاء العلنى. لم بهمنى أى شىء، كنت أفكر فى شىء
واحد.. أين ذهبت "كرازينا"؟

قررت أن أتوجه لمنزلها فوراً فى أقصى شرق برلين، وحتى لو كانت
غادرت فمستجوب "تيكىتا" واعذبه حتى ينطق. لم أتوقف عن البكاء طسوال
الطريق، جلست بجانبى فى المترو امرأة ذات وجه مستدير أبيض وعينين
شبه لوزيتين، تضع إشاربا على رأسها من باب الاعتیاد لأنه كان ينزلق فى
كل لحظة ولكى تعید وضعه كان لابد أن يصطدم كوعها بكفى. من تلقاء
نفسها بدأت تربت على كفى ولم أمانع وهى تقول: "الله يسلم إن شاء الله".
وتناولنى مناديل ولبانا وبسكویتا وأشياء أخرى لا أعرف من أين كانت
تخرجها. "ع شو عم تفطرى قلبك؟ والله الدنيا ما تستاهل. لما تركنا كل شى
هونيك كنا مفكرين راح نموت، وشوفى لهلا عايشين". ثم ينزلق الإشارب
ونقول: "فى المترو شوب كتير". أتوقف عن البكاء وأتمخط وتحين منى
التفاته لها فتقول: "حبيبتى لشو هالعيون الحلوة تبكى. إذا كان رجال ضربيه
بالكندرة، وإذا كان شى ثانى فكيه من راسك. بك مصارى؟" كعادتنا نحن
العرب لا ننطق إلا حين يذكر المال: "لا لا مش مسألة فلوس". نتهلل وتوجه
كلامها لطفل بصحبته: "شوف يا تضال" حبيبى قلت لك عربية". ثم تنظر
لى وتقول: "والله أنا فهمت لحالى إنك عربية، الدم بحن

ولو. ما حدا ببيكى غير نحنا العرب، طول العمر نبكى*. أقبليها قبل أن أنزل
فى محطة "كرازينا"، وهى تصر: "والله لتيجى معانا لتتغدى، بتعرفى
المقلوبة؟" أشد على يديها بقوة لأن أى كلمة أخرى كانت تعنى أننى سأبدأ
البكاء من جديد. بعد أن غادرت عربة المترو استدرت لألوح لها بيدى
وأدركت أن الجميع ينظر لنا بذهول تام. كنت فى أشد حالات الامتئان.
وعندما أدركت هذا بدأت أبكى من جديد.

بشكل أوتوماتيكى صعدت سلالم المحطة وعبرت الشارع ووقفت أمام
المنزل وضغطت على الجرس ليفتح الباب. أثنى صوت "تيكىتا": "من؟"
فأجبت بنبرة بانسة "أنا" "عيشة" صديقة "كرازينا".. تذكرنى؟ فأعاد السؤال
باستنكار: "من؟" استحضرت "كرازينا" وقلت بصوت واثق: "أنا أنا". أجاب
بنبرة اعتذارية: "أه أوف كورس.....". بمجرد أن فتح الباب صعدت الأدوار
الثلاثة فى لمح البصر، ومن بين نفسى المنقطع بفعل التدخين والسن والبؤس
والبكاء والبرد والغضب قلت وأنا مازلت على عتبة الباب: "أين كرازينا؟"
من وسط ذهوله، قال "تيكىتا": "ادخلى أولا".

"كرازينا" رحلت، عادت إلى بولندا. قالت إنها سوف تتصل بك من
هناك، ألم تتصل بعد؟ كانت متعبة دائما من العمل فى كشك البطاطس
ورفض صاحب المحل أن يعطيها إجازة أسبوعية. كانت دائما متغيبه عن

المنزل. كنت أراها ليلا وهي منتهية تماما. أردت أن أحكى لها الكثير عن الجامعة وعن حياتي وعن كل شيء، لم يكن لديها طاقة، كانت تستغرق في النوم فورا. حتى إنها كانت تهذى في نومها من التعب. كان معي بقايا إنسانة. المفروض أنها شريكتي في الحياة وليس في السكن فقط. كانت حياتنا مرارحيض وتنظيفا فتحولت إلى بطاطس حتى شعرت أنني أكبر حبة بطاطس في الوجود كذلك التي كان "ماونسي تونج" يتباهى بها. بعد ثلاث سنوات في برلين أردت أن أتأكد من إنسانيتي فتورطت في علاقة مع زميلة لى في الجامعة من أوكرانيا. الحقيقة أنني لم أتعهد إقامة علاقة. كنت أتفهم معنى أن تعمل "كرازيينا" من أجلنا معا ولكن لى احتياجات ولدى الأمى أيضا، أتفهمين؟ أنا إنسان ولست آلة.. لست حبة بطاطس.

- كنت تخون "كرازيينا"، هذا ما تريد قوله من باب الاختصار لكيلا نفلسف الأمور كثيرا.

- "أشا" أنا لم أكن "كرازيينا". بالعكس كنت أمينا معها. عندما شعرت بعلاقة تعترض مشاعري معها أخبرتها على الفور. ورغم يقيني أنها علاقة عابرة إلا أنني قررت أن أخبرها. كل ما في الأمر أنها لم تحتمل المبدأ. لماذا تعتبرون قول الحقيقة خيانة؟ هذا هو ما حدث، وأى شيء آخر كان معناه الكذب. هذا يحدث يا "أشا". هذا يحدث. لابد أن تفهمين.. نحن بشر.

لم اهتز إطلاقاً للحالة الانفعالية التي كان "تيكيتا" عليها. كنت انانية للغاية، أفكر في "كرازين"، وأدفع بعيداً عن عقلي منطق "تيكيتا"، وكلما أدفعه تقفز "سارة" إلى رأسي. ليس هذا ما فعلته "سارة" مع "كمال"؟ كانت أمينة معه، ببساطة. ولم يغفر لها أحد. حتى "كمال" لم يفهم ولم يستوعب، فنملكته أداة استغهام واحدة "ليه؟" لماذا ساندت "سارة" ولا أمانع الآن أن أفك بـ"تيكيتا"؟ ولماذا تعاطفت "سمر" مع "كمال" ولم تبال بـ"سارة"؟ هل كانت ترى الأرض التي تقف عليها؟ عيناى متورمتان من شدة البكاء وروحي شبه نائمة ونظرة الفزع في وجه "تيكيتا" تذكرني بفزع "سارة" عندما خانت القاهرة وأعلنت صدقها في حركة عنترية. الصدق يكلف الكثير، والشعور بالسعادة ترف لا يقوى عليه إلا القلة.

ذاكرة خيبة

كم خيبة حتى الآن؟ لا يهم، العدد كثير، المهم ما تبقى. والشعور بالسعادة ترف لا تقوى عليه ميزانيتي. أحصى خيباتي كالبخيل العجوز. وما تبقى هو كل القاهرة، بقيت بكل جبروتها، القاهرة الهادرة الأسرة الساحرة القاهرة الماكرة الرائعة. القاهرة التي مازالت تقهرنا في حبها. البيت بأصحابه! القاهرة هي القاهرة حتى لو مسحت "مصطفى" من البريد، وحتى لو سحلتنا العسكر فردا فردا. وحتى لو اختفت "سمر"، وحتى لو ظلت السحب السوداء والزرقاء تخلق سماء القاهرة. القاهرة هي القاهرة وعلى المتضرر اللجوء إلى مغادرتها بشرط ألا يذكرها إطلاقا. القاهرة هي القاهرة حتى لو غاب عنها "مصطفى" إلى الأبد وحتى لو ظل "كمال" يسأل مدى الحياة: "ليه؟" ويلتقط صوراً للإسكندرية، وحتى لو غادرت "سميرة" وأمنت أن سفرها سيغير القاهرة، حتى لو طاف "شهاب" كل المظاهرات وحفظ كل روايات واسيني الأعرج وحتى لو أنا غادرتها تماما وحتى لو قرر "معز" أن يندفع ليقول رايه فينا جميعا، وحتى لو تكاثف الكل ضد "سارة"، وحتى لو كان هناك مليون "عالية" و"ليلى". حتى لو كان هناك مليار عسكر. حتى لو سرق المحمول مائة مرة، حتى لو عمموا السواد، ومنعوا الكلام، وحتى لو قتلنا الاحتياج، وحتى لو تحولت الجدران إلى بديل للكتف، وحتى لو بكينا في بيوتنا وحتى لو لم ننجح في تنظيفها وحتى لو توقفت

"سارة" عن الحكى.... القاهرة هي القاهرة. ومن الذى استطاع أن يغير القاهرة؟ من الذى يمكنه أن يغير القاهرة أو يزحزحها شعرة واحدة عن طريقها! لا كل الألسنة فعلت ولا كل الأيدي تمكنت ولا كل القلوب استسلمت. و"مانتيش غريبة يا بلدى ومانتيش ضيف". المسخف بعينه هو أن يتمكن "مصطفى" من حفظ هذا السطر. سطر يبدو كنشيد مدرسى صباحى سخيف. الحقيقة أننا فى معظم الوقت ضيوف على القاهرة. القاهرة هي القاهرة وأنا راحلة إلى القاهرة. ساسترد ذاكرة كل خيائى فى القاهرة لأحتفى منها بها، يبدو أن "سارة" كانت على حق.

ذاكرة كبرت

راجعت ما كتبتّه فأدركت أنك كبرت بالفعل، مر عامان من الكتابة والحكي، سأخبرك ما كتبتّه أنا في بداية الخيانة:

أعرف... تنتظرين مكانك وتتسألين دوما عنه. ما الذى جعلك ابنتى، ما الذى حولنى إلى ماما. ربما يكون هذا أصعب سؤال، فقد حاربت نصف الدنيا من أجل هذا السؤال وربما يكون السؤال خاطئاً من أصله.

لا أعرف كيف تكون الماما، فارتجلت وارتبكت وتهت وحملت المسؤولية والإحساس بالذنب، أما التوقعات فحدثى عنها كيفما شئت. وبما أنه لم ينتفخ بطنى مطلقاً قررت أن أتبع قلبى (روايتك المفضلة). بذلت مجهوداً لأحملك من صبى مراهق إلى أنسة على أعتاب العشرين، تكلمت كثيراً عن الكريم والكحل، ووضعت الحناء وزيت الزيتون على شعرك قسراً، أخبرتك قصصاً كثيرة عن الوقوع فى الحب وخارجه، والأهم أننا شاهدنا معا القاهرة الأسيرة الهادرة... كيف إذن أكتب عنك يا صغيرتى وأنت القاهرة التى أشتاق إليها، كيف أكتب عن جزء منى وهو عنى؟

وأنت سخية في التعبير عن مشاعرك، وكلما زاد سخاؤك يزداد غضبي.
ربما لأنني عاجزة عن التعبير مثلك، وربما لأنني غاضبة من محاولتك
الدائمة لإثبات مشاعر توغلت أنا فيها بالفعل.

خرجنا معا إلى ذاك العالم، مشينا في المظاهرات، وشاهدنا أفلاما،
وتعرفنا على بشر، وحضرنا ندوات. جاء البعض وذهب البعض ومازلنا
معا. ربما لأنك تحولت إلى أمي، ربما لأنك تقيضين فاحتمى فيك (أحيانا)
من شراسة العالم، تعلمت واختزنت فافضت من روحك. لذلك عندما
تتحولين فجأة إلى طفلة أنهرك بشدة فتتراجعين فورا. تركتك وأنت تقولين
"لما أكبر نفسي أكون...". وكبرت دفعة واحدة، فصرت أسمع دقة حذائك
على الأرض وأرى لمعة شفتيك واشتم رائحة دخان سجائر. لا أشعر أنني
"ماما" إلا عندما تتمكني الرغبة في أن تكوني الأجمل. وعندها أدرك أنني
أطلب منك الكثير. فانا لم أكن أنجح البنات ولا أجملهن ولا أكثرهن نكاء
ولباقة ومهارة، بل كنت "عبيطة" كما يحلو لـ "عماد" القول.

أشواق للقاهرة فتكونين أنت حاضرة، وأكلمك لأكلم القاهرة بأكملها. أنا
كما "مصطفى" تماما احتجت كل هذه الأميال لأخبرك الحقيقة. عندما تبدئين
في السخرية مني لا أملك سوى أن أضحك حتى تدمع عيناى، خاصة عندما
أقرر أن أغنى مقاطع من أم كلثوم. تسميني السلحفاة لبطء إيقاعى، لكننى

لا أرى سببا للعجلة، شيء ما يشدني دائما إلى الخلف، فأجلس على السرير وأسالك: "هيه، إيه الأخبار؟" وتكونين أنت على وشك الانفجار.

في برلين الغربية أتوق إلى إحدى نكاتك، وفي برلين الشرقية أتوق إلى التسكع معك. هل كبرت فعلا؟ كيف تكبرين والألم مازال بعيدا... ليكن بعيدا دائما... لكننا لا نكبر إلا بالألم، فكيف لك أن تكبري؟ هل استوعبت كل الآلام الأخرى؟ عيشي ولا تكوني سواك.

هل أبوح لك بسر؟ أمي تتقنني دائما في ملابس وصحوى ونومي وأكلي وشربي، أكره هذا الانتقاد الدائم ولكنني اكتشفت مؤخرا أنني أفعل نفس الشيء معك. أريدك أن تتوقفي عن قضم أظفرك وعن جمع شعرك في ذيل حصان وعن ارتداء البنطلونات الجينز وعن تدخين الشيعة وعن الجلوس الدائم أمام شاشة الكمبيوتر. تتنازعي الرغبات أمام كل تلك الممكنات. لم يكن في زمني إنترنت ولا فضائيات ولا ماك دونالدز الذي أبطلت مفعول حبك له عبر القهر، فأخبرتك عن الأمراض الناتجة عنه ثم قمت بابتزازك سياسيا وقلت لك إن ساندويتش ماك دونالدز يساوي طفلا فلسطينيا، ومازلت أشفق عليك من حبك لماكدونالدز فأكافئك به!

لم أرَ سوى محل واحد في برلين يحمل علامة ماك دونالدز، كيف تتحقق أحلامنا دائما في أماكن بعيدة؟ بعيدة عن كل الذين أردنا أن يشاركونا الحلم.

عندما أقرأ تلك الجملة الآن أضحك مما كتبته، فانا لم أحصل مطلقا على شيئين في نفس الوقت، وعندما أتأمل قليلا أدرك أنني لم أحصل على أي شيء أردته فعلا، ومازلت أنتظر... حتى لو كان الانتظار في برلين الباردة.

بدأت خيانتى للقاهرة وأنت 'صغيرتى'. وفي غمرة ممارستى للخيانة لم تعودى صغيرة. ولست أيضا كبيرة. بدأت خيانتى وشعرك معقوف للخلف بالتزام شديد، وحذاؤك رياضى يلفت النظر بحجمه للضخم والبشور التى تغطى وجهك لا تقلقك فى شيء، وأظافرك لا تغادر فمك. بدأت الخيانة ولنت صامتة ومندهشة ونائية عن التورط فى القاهرة. كنت متورطة فى العديد من الكتب ومن المسلمات، كانت دنياك مسلمات وبديهيات، كانت دنيا ألوانها قليلة ولكنها جميلة. كانت ألوانا تقبل كل الألوان الأخرى. كنت تبدين صغيرة للغاية فى سيارتك، فى وجهك، فى خطوتك، فى 'ألو' التى كانت 'اله...'. فى القمصان ذات الكرانيش والأكماس القصيرة، وفى وجهك المغسول بصابون ذى رائحة. لكن يبدو أن ألوانك كانت مستعدة للخيانة تماما، بل ربما كانت تتوق إليها، وعندما أوشكت أن أنهى خيانتى كانت خياناتك تتوق للمتوقع.

قضيت سنوات فى القاهرة أحاول أن أتعلم كيف أقول: "لا" بهدوء وثقة، فوجدتك تنطقينها بمنتهى السهولة وكأنها أول حرف تعلمينه. قضيت سنوات

ممثلة لتعلم إخفاء الدهشة، والقاهرة تحمل لنا الدهشة فى كل خطوة، وحتى الآن لم أنجح تماماً فى إتقان الإخفاء، وعندما أنجز هذا بصعوبة، أشعر بالمرح بفتك بعضلات وجهى. فقط عندها أسمعك تقولين: "إيه النظرة اللي فى عينيك دى؟ ماتعمليش كده بتصعبى على بجد". تبادل أدوار فى ثانية. استعيد دورى مرة أخرى ببعض الضجيج والصراخ فى وجهك ولا أتورع عن إلقاء درس مخيف على مسامعك. ينتهى الأمر أن أبتاع لك كريما لوجهك وتبتاعين أنت لى حجر الجاد الأخضر: "لازم تلبسيه يوم التلات، ده الحجر بتاع اليوم". كيف كانت ستمر أزمان القاهرة بدون كل هذا التبادل المتفق عليه للأدوار. كانت ستمر كما يمر كل شىء فيها، لكن الندوب كانت ستبقى محفورة. معا أزلنا كل الآثار. طورنا حيلة نتحايل بها على القاهرة، كنا نلف من وراء ظهرها ونضحك، ثم نبكى ثم نخرج ثم نضحك ثم ننسى القصة كلها ونلقى بانفسنا فى أحزان الآخرين.

كيف كبرت؟ بحكاياتى التى كنت تنتظرينها؟ حكيت لك كل ما أملكه من حكايات، وجعلت المؤلم منها مضحكا، وأخفيت بعض التفاصيل الموجهة التى لم أرد أن استعيدها، أكملت لك حكايات وأكملت لى العديد منها، حكايات بدانها منذ أن كنت أحمل الطبق وأطاردك لتأكلى واستمرت حتى جلوسنا متقابلين كصديقتين حميمتين على طاولة فى وسط المدينة، نتحدث عن "شهاب" ونسرف فى قلقنا عليه. ثم ننقل حوارنا إلى "هاجر" وعزلتها،

ونصرف فى القلق عليها، ثم نتعجب من أحوال "غادة" وإصرارها الدائم على التكرار، ثم نذكر "مصطفى" ونتواطأ ألا نذكره، ثم نتساءل عن "سمر" ونهز رأسنا بأسف لغيابها، ثم نضحك حتى الثمالة من جنون القاهرة. ثم نجد أنفسنا متورطتين فى حبها حتى النخاع.

أم كبرت بغيابى الذى كنت تكرهينه وتتحزين له وكأنه خصمك الأول؟ غياب تحاللت عليه بكل الطرق، رسائل ومكالمات وتطور الأمر إلى زيارات. مع بداية غيابى قررت أن تحتفظى بالقاهرة حتى أعود إليها، اخترنت كل تفاصيلها وحكاياتها وجنونها وعسكرها وحراميتها، ومع الوقت بدأت لا أميز بينك وبين القاهرة. من فيكما هى الأصل؟ أنت أم هى؟ تركت القاهرة فى عهدتك فكبرت، من أجلها أم من أجلى؟ كان لابد أن أفسح لك مكانا تكبرين فيه، كان لابد من الغياب، كان لابد أن أتزحزح قليلا لأترك لك مساحة تمارسين فيها خيانتك. كان لابد أن يتخلل الهواء قليلا بسبب بكائك المستمر والمزعج، كان لابد أن تحرقك ملوحة الدموع، كان لابد أن تعصرى الألم بمفردك وأن تحصدى عددا قليلا من الخيبات، كان لابد أن يحدث كل هذا لتكونى أهلا للقاهرة. القاهرة لا تحب الصغار وتكره كل من يقول: "والله ما كنت أعرف".

كبرت وعرفت بدون سابق إنذار. وانطلق شعرك من التزامه وقلت
البثور وأحيانا تختفى وبدأت أظافرك تنمو. اختفى الحذاء الضخم وحل محله
حذاء أنثوى فى الشتاء وشبشب فى الصيف، والأهم أنك امتلكت حقيقة
ومحفوظة. عندما يكون لدينا الكثير الذى لابد أن نضعه فى حقيقة فهذا يعنى
أنه أصبح لدينا حكايات. وعندما نحكى حكاياتنا نحكى حياتنا. الآن لديك
الكثير من الحكايات التى أطلبها منك وأقول "احكى". بل هناك حكايات
تحدث دون أن أشارك فيها. حكايات لا أعرفها. وكلما كبر حجم الحقيقة
تزداد الحكايات. حقيبتك تكبر.

حكايات يحدث لك أثناءها كل ما حدث لى كل ما مررت به. حتى إننى
أفزع. فجأة يبدأ شعرك فى التساقط، ثم فجأة يتوقف كما يحدث لى، ربما كما
يحدث لكل البشر لكننى كنت كمن يشهد حكاية من أولها. حكايات يحدث
فيها أن تفقدى تشببك المعهود بالتفاصيل وتتسى بعض الأسماء (ربما
ستسئنها كلها فيما بعد) وتتجاهلى بعض المخافات (ربما ستجاهلنها كلها
فيما بعد) وتغيبى بعض الأشخاص من الأفق المباشر أمامك (ربما ستغيبين
العديد فيما بعد) وتحكى الحكاية مرة واحدة (ربما لن تحكىها مطلقاً فيما
بعد). هكذا يمكنك العيش فى القاهرة، هكذا يمكنك استيعاب جمالها وقسوتها
ومكرها وجنونها وطبيعتها ولفها ودورانها. هكذا يمكنك فهم الفرق بين
رمادى القاهرة ورمادى الأماكن الأخرى، بين العيش فى قلب القاهرة
والفرجة من بعد على القاهرة. هكذا ستفهمين صفاقة المتخرج، الذى يرفض

أن يضع يديه فى نار القاهرة ويفضل جنة مقعد بعيد بنسج عليه بضعة
أحكام ممزوجة ببضعة جمل من كتب أنيقة حققت أعلى مبيعات يصرح بها
بنبرة هادئة وجفون غير مرتعشة ونظرات ثابتة نحو قطعة ديكور لونها
غير متنسق مع ألوان الحكاية، و... ألوانك..

أثناء خيانتى كنت تمارسين أنت خيانات لكل ما كان متوقعا منك فى مقاهٍ
تشبه المقاهى فى حى المهندسين والزمالك، مقاهٍ بها بشر يشبهون البشر ولا
يخرجون عن نصوصهم السخيفة التى تعلن غير ما تبطن، والتى لا تسمح
لهم أن يعبروا عن ألمهم أو جوعهم أو حتى كرههم، نصوص تمنعهم من
إزالة كل المساحيق التى تنقل وجوههم والملابس التى تجعلهم مستنسخات لا
نهائية. حياتهم نص يتحول إلى صور لامعة فى مجلات أقع عليها بالصدفة،
مجلات صنعت خصيصا لمثل هذه النصوص، لهم نصوصهم ولنا
نصوصنا، لهم مجلاتهم ولنا مجلاتنا، لهم أماكنهم ولنا أماكننا، لهم قاهرتهم
ولنا قاهرتنا. كان المتوقع أن تكون هذه الأماكن هى قاهرتك، فاخترت أنت
قاهرة أخرى. اخترت القاهرة "شهاب"، اخترت منها أول طبعة، غير معدلة
ولا المهجنة ولا المزينة ولا الملونة. القاهرة المعسل والكشرى والتلوث
والمظاهرات والروايات والأشعار والفلس والمعارضة والخروج عن كل
المألوف وتكسير كل القواعد وتعتمد الضحك والمقاطعة فى وسط الكلام
وعدم الالتزام بالمفروض وحكى كل ما هو صادم والتطرف فى الصراحة
وفى الأكل وفى النوم وفى السهر وفى البكاء وفى الحزن وفى الفرح.

اخترت القاهرة التي لا تبذل مجهوداً لإرضاء الآخرين، القاهرة التي تبحث عن أفضل وضع لجلستها وعلينا أن نتكيف مع كل مقاعدها. القاهرة التي لا تبالي بنا كثيراً ولكنها تتسلى بكل قصصنا. اخترت القاهرة بدون إضافات كبطاطس "كرازينا". اخترت القاهرة تجعلك قاهرة حتى لو لم تكن مقدماتك توحى بهذه النتائج. اخترت القاهرة تؤمن أن الشعور بالسعادة ترف.

قاهرة صافية خالية من المواد الحافظة ولذلك لا أفهم حتى الآن لماذا نرى أن مقطوعة لـ "شترامس" في برلين أرقى من "يا رايحين الغورية" هاتوا لحبيبي هدية في قلب القاهرة على أريكة متهالكة وأرضية بلاطها تفوح منه رائحة الفينيك. لماذا تعتقدين أننا نفعل هذا؟ لماذا نفضل الآخر دائماً ونعطيه مكاناً أعلى؟ ألهذا كنا نتمد المشي في شوارع برلين والضحك على أهلها الذين لا يعرفون كيف يمارسون ضحك القاهرة وسهرها؟ كنا نضحك ونتعجب منهم في كل محل يغلق أبوابه قبل منتصف الليل، ومن كل شارع يخلو من مارته قبل العاشرة، ومن كل طبق سلاطة نطلبه فيأتي أكبر من توقعاتنا؟ ربما كان "شترامس" هو السبب في كل هذا الهدوء، وربما كانت الغورية هي السبب في كل صخبنا. لم ننسَ أبداً القاهرات الأخريات، بعد لحظات كنا نتذكر تلك القاهرات التي لا ترحب بنا ولا تألفنا، وربما تنتظر منا محاولة، تلك القاهرات العبوسة دائماً، المتجهمة، المتطرفة التي لا نعرفنا ولا نعرف أمثالنا، ربما تنتظر. تلك القاهرات التي ترانا نضيع الوقت هباءً وتعتقد أن أفضل شيء يمكن أن يحدث هو صورة في جريدة ويد

نصافح وزيراً ما حتى لو كان وزير البطيخ وكلمة رضا من المدير وتجاهل شديد للغير. قاهرات تشبه السحب على الجوائز: "اشترك معنا فى السحب السوبر فقد نفوز بخمسة وعشرين ألف جنيه أو رحلة رائعة لباريس مع الحبيب". وكلما نتذكر تلك القاهرات نتذكر "سارة" وحكى "سارة". فى لحظة تتحول القاهرات إلى "سارة". أتلعث فى ذاكرة القاهرة، أهى ذاكرتك أم ذاكرة "سارة"؟ بالتأكيد هى ليست ذاكرة "ستراوس"، لم يعرف "ستراوس" القاهرة ولم تؤرقه فى شىء. وفيهم تهمه القاهرة؟ القاهرة لا تهم إلا من عاش بها، فى قلبها، واكتوى بنارها ومكرها وسمع أم كلثومها برقص على دقة طبلتها وسهر ليلاتها وأهين من عسكرها واستمتع بكذب أهلها وفهم لغة "مصطفى". القاهرة لا تهم إلا من فهم لغتها واكتشف أنه لم يفهمها حتى الآن، القاهرة لا تهم إلا من عرف أنها وديعة وهادئة وشرسة وماكرة تماماً كخطوة "سميرة" وهى تعبر شارع الجلاء لتصل مقر عملها، وكشقاوة "غادة" المفاجئة غير المبررة وقراراتها العشوائية فى الزواج وكثقل "شهاب" فى الأحوال، وكسيارة "كمال" التى تتوقف حين يجب أن تسير وكأراء "معز" التى ينطقها حين يجب أن يصمت، وكـ"سمر" التى تختفى حين يجب أن تتواجد. لماذا يهتم إذن "ستراوس" بالقاهرة؟

أم اغوثك قاهرة "سارة" فكبرت في غفلة من الزمن؟ قاهرة "سارة" التى
 لم نعرفها كما يتوقع من أناس عارفين أمثالنا، أناس يتكلمون عن الدولة
 الحديثة فى عهد "محمد على"، وعن إسهام "تازك الملائكة" فى الشعر الحر،
 وعن الفرق بين "ماركس" و"تروتسكى"، وعن الفرق بين "سيكا" و"نهاوند".
 نتكلم عن كل هذا ولكن عندما نتلبس "سارة" حالة الحكى نصمت جميعاً
 ونبدى قليلاً من الدهشة ونقول: "آه طبعاً فيه من ده كثير"، أو كثير من
 الدهشة ونقول: "بتجيبى الحاجات دى منين يا سارة" وينفرد كمال بتعليقه:
 "يخرب بيتك". عرفت أنك وقعت فى هوى "سارة" عندما تملكك الغيرة منها
 حين تقمصتها حالة الحكى أول مرة أمامك.. تتذكرين تلك المرة؟ لم تكن
 تحكى عن صديق لم تره منذ عشر سنوات، ولم تكن تحكى عن امرأة تبكى
 فى حمام فندق. لم تكن "سارة" تحكى حدوة حدثت لها فى أحد شوارع
 القاهرة، ولا كانت تحكى عن "كمال" الذى يرفض أكل الحمام لأنه مأكـل
 بـورجـوازي ولا كانت تحكى عن الرجل الذى قرر أن يصرح لها بحبه وهى
 تحاول تغيير إطار عجلة السيارة بعد منتصف الليل ولا كانت تحكى عن
 رحلتها للعراق وتبكى، لم تكن تحكى أى شىء من هذا. كانت "سارة" تحكى
 قصيدة! حتى أنا تملكنتى الدهشة يومها، كيف تمكنت "سارة" من حكى
 قصيدة؟ اغوثك القصيدة ذاك اليوم، ولم تقلى سوى الصمت، حط عليك
 الصمت كما ينزل الثلج فى برلين فيلفها كلها بالصمت. كنت قد

نويت أن تكبرى بالفعل وأنا مازلت أتخط فيما بين ضمير ورغبة، بين أم
وأب وعمة وحياة مختلفة، بين قاهرتين؟

أم كبرت يوم أن أصبح "عماد" أبا، جاءه طفل يوم عيد ميلادك الحادى
والعشرين. ولدتما معا، فى يوم واحد. مصادفة! كبر "عماد" وأصبح أبا
وكبرت أنت وأصبحت أنت. لابد أن تتلازما طوال العمر، لابد أن يذكرك
وجوده بكبرك، كنت يوم مولده بالفعل قد تمكنت من قيادة سيارتك فى
شوارع القاهرة الساهرة. كنت تتصحينه أن يبقى مع زوجته، كنت تطمنين
عليه بالتليفون، كنت تسألينه عن صحة الأم، كنت تسألين عن الطفل. كنت
كبرت بالفعل.

أم كبرت يوم قررت أن تخرجى فى مظاهرة اقترحها عليك "شهاب"،
كنت ملتزمة بالميعاد، جهزت نفسك وتظاهرت أنا بالنوم. لم أرد أن أشهد
هذا الموقف. لم أعرف ما الذى يجب أن أفعله، هل أقول: "مع السلامة" أم:
"خذى بالك من نفسك" أم: "ماتتأخريش". كان الحل الأمثل أن أبقى عينى
مغمضتين، وأتركك تتحسسين موقع ملابسك فى الحجرة، وأسمعك تقلبين
الملقعة فى فنانج القهوة، ثم تعودين إلى الحجرة وتهزيننى برفق وتهمسين:
"أنا نازلة علشان الميعاد". أطبقت عينى مرة أخرى وقررت ألا أفتحهما إلا
عند عودتك. ونمت، ونمت، وظللت أنام، ثم كان لابد أن أغادر السرير.
تعرفين كيف يبدو يوم الجمعة فى بيوتنا، هناك دائما كرنفال صغير فى كل

بيت. وعندما عدت ونظرت في وجهك أدركت أن استقرار الخطوط المرتعشة ينبئ بالكبر القريب. عدت من المظاهرة بخطوة واضحة، أول خطوة في حياتك: "لازم أكل وبعدين أستحمي وأنام".

أم كبرت يوم ركبت الطائرة بمفردك وأنت ترتعدين من أشباح، كنت ترتعدين من كل شيء... طائرة، مصعد، سلاّم، بشر، جمل، أماكن، أكل، ملابس، وحتى الألوان. كان كل شيء يجعلك تقفزين من مكانك كالفارة، وكان قفزك بسبب لي غضباً هائلاً. كنت تخافين من القاهرة ربما لم تكوني تعرفين ما هي القاهرة. عم إذن سنتحدث؟ الشرط الأول هو أن نعرف القاهرة و"شرع الهوى الإنصاف" كما يقول "بشيز"، المعنى الأسمر. وأصعب الاختبارات هو إنصاف القاهرة. القاهرة مراوغة، كيف ننصفها؟ كيف نفهمها؟ كيف نحب مراوغة لثيما؟ ونجحت في الاختبار!

أم كبرت حين كانت عائلتك على وشك التفتت وكان "مصطفى" الناصح الواعظ غائباً؟ كبرت حين ذرفت من الدمع ملء بحار وارتفع صوتك ثم اختنق ثم انفلت ثم صمت، وكنت أنا أجلس على السرير قبالتك أفكر فيما يجب أن أفعله. لم أتوصل لشيء سوى التماسك. كنت أراقبك وأنت تكبرين وتتركين أن العلاقات تنتهي كالعلاقة بين "سارة" و"كمال". كنت أراقبك

وانت تتساعلين: "ليه؟" مثل "كمال" تماما. كنت تسألين وتقدمين إجابات مقنعة ثم يملكك البكاء ويختنق صوتك. كنت أراقب الألم على وجهك وأدركت أن الكبر قد حل لا محالة. هكذا هو الكبر، لا يأتي بدون الألم. وبعد أن يكوننا الألم وبعذبنا نتحرر من كل مخاوفنا ونعشق القاهرة أكثر. تفككت عائلتك ثم عادت فالتأمت ولم يكن هناك سوى "سميرة" تراقب، تشاهد، وتبكي، وتردد: "معلش كان لازم يحصل كده، هي لازم تكبر. كفاية فرجة على الحاجات من بعيد". هل فكرت في "مصطفى" حينها، أنا على الأقل منحتّه حيزاً من فكرى، وتساءلت إن كان مازال نائماً.

أم كبرت يوم أن أدركت ذاك الجمال الأخاذ الكامن بداخل عم "حسن"، زميل عم "محمد" السخيف في المقهى. عم "حسن" عامل النظافة الذى يصنع الشيشة يوم إجازة عم "محمد". عم "حسن" البشوش الصامت الذى لا يكل من تنظيف المقهى وكأنه ينظف العالم كله. مغرم هو بتنظيف الأرض من كل بصمات القاهرة ومن كل كلامها رغم أن كلام القاهرة لابد أن يترك علامات واضحة لا تزيلها كل المنظفات. عم "حسن" الذى يشبه وجهه وجه القرد ويشى كل خط فيه بمحر غير طبيعى، عم "حسن" الذى افتعل مناسبة لأكله. إذا تمكنت من معرفة الفرق بين عم "حسن" وعم "محمد" فهنيئاً لك. كبرت. وهنيئاً لك حبك للقاهرة.

غالباً أنك كبرت عندما قابلت رجلاً كنت تعرفين ما سيقوله. نكبر عندما يقول لنا رجل: "بحبك"، عندما نذهب للمقابلة ونستعد لها ثم نفكر فيما يجب أن نقوله وما يجب أن نرتديه. كلامنا وملابسنا مؤشرات يتعامل بها معنا الرجال، مؤشرات تساعدنا على تصنيفنا وتقنيننا ووصفنا وتحديد النغمة التي سيلقون بها تحيتهم علينا. نكبر عندما نبدأ الحوار ونحن غير متأكدين من النهاية، بل حتى غير متوقعين الجملة التالية، وغالباً ما تكون كل الجملة مخيبة لتوقعاتنا التي نمسجها رغماً عنا، نمسجها لنراهن على شطارتنا التي تكشف عن أكبر خيبة فوراً. نكبر عندما يتلعثم هذا الرجل فنمد له يد العون ونوفر عليه مشقة كبيرة، عندما ندرك أن هذا الرجل الجالس أمامنا لا يتعامل إلا مع صورة لنا، يرانا عبر وسيط، يتحاور مع الوسيط، يتفاوض معه، يبرم اتفاقات، بل حتى يصيح في وجه الوسيط ويملى شروطه، وفي النهاية يكون جلوسنا على الطاولة ونحن نرتشف الكابوتشينو ليس إلا تكملة لمشهد مرسوم ومنته منذ زمن. كل ما نقوله أثناء رشف الكابوتشينو ليس سوى جمل لا معنى لها، جمل تتخبط ما بين الفئجان وبين الحروف التي تعطى صوتاً. ندرك فجأة أن وجودنا لا يعنى أى شيء، كان لابد أن نتواجد ليجلس شخصان على الطاولة بدلاً من شخص واحد بمفرده. وبمجرد أن ينتهي فئجان الكابوتشينو نبدأ في نسج حلم يلزمنا حتى القبر، ولا ينتقل من خانة الحلم. نريد رجلاً نتكلم معه، رجلاً يربت علينا بهدوء ويقبلنا كما نحن بكل مخاوفنا الساذجة وشراستنا البليدة وقراءتنا الكثيرة ولساننا السليط وحالاتنا المزاجية السخيفة، رجلاً يرانا بدون وسائط، رجلاً يحبنا بدون

إضافات كالطبعة الأولى من القاهرة، رجلاً صوته منخفض وحنانه مرتفع، رجلاً ينتظرنا ويقضى عمره يبحث عنا.. ويكبر اللحم ويكبر ويكبر حتى يضغط على أنفاسنا ولا يتحقق. يتلون الحلم ويتشكّل ونقابل رجلاً يرون الدنيا كلها عبر وسيط، ثم ندرك أننا أصبحنا كالبطّة السوداء التى قابلت الديك فاعتقدت أنه عائلتها فنقرها، ثم قابلت القطّة واعتقدت أنها أمها فخربشتها، ثم قابلت المعزة وصدقّت أنها أمها فتركّتها تضيع، حتى قابلت طيور النورس التى انتشلتها من الغرق فأدركت أن عليها أن تبحث عن الأمان داخلها. كانت البطّة السوداء جائعة للحب فقبلت المأكولات الخاطئة والأرواح الناشزة. ولا نتنازل عن الحلم، المشكلة أننا نندهش عندما ندرك أننا كبيرنا كثيراً... أكثر من اللازم، أكثر من شروط القاهرة. نكبر عندما نكتشف أن القاهرة كثيرة للغاية.. أكثر من عدد سيارات الميكروباص وأكثر من عدد المناطق التى يقلنا إليها الميكروباص.

أم كبرت عندما فهمت لماذا سافرت، فكتبت لى خطاباً أرسلته على جهاز الكمبيوتر، خطاباً رسمت فيه نفسك فى أحضان القاهرة، خطاباً صاغ كل الأسئلة التى ستبقى بدون إجابات محددة:

... أمى تحب أن تعد أصابع يدي، وعندما تصل إلى الخامس يخونها نشاطها فتعود إلى الأول بحماس. هكذا رددت ترنيمتى فى أذنك قبل أن

تستيقظى بلحظات لتلهثى وراء مدينتك المجنونة. هل تشبهينها، أم تملئينها،
أم تكتبينها؟

... أمى تحب أن تعد أصابعى، هل هى ترنيمتى أم ترنيمتك
هى عنك ومنك وتحبو بجوار ظلك لتعبر قبلك مسافات الأشواق. تسبقك
إلى البلد الآخر لتزرع فيه بعضاً من سحر نجمك. تدفئه وتحاول أن تدفعه
إلى الجنون حتى لا تشعرى بالحنين إلى مدينتك.. فهل نجحت؟

... اضع يدى على يدك فى محاولة منى لاحتواء الزمن - تعرفين أنت
هوسى باللحظة والمكان - ورغم علمى بالإجابة، أسالك بمرح طفولى: "هل
كبرت يدى؟" فتضحكين أحياناً وتتفنين أحياناً أخرى. وعندما تتخلين عن
إخفاء الطفلة بداخلك تضعين أنت يدك على يدى وتأخذين فى عد أصابعى...
واحد.. اثنين.. فى الخامس يقنعك كسلك بأن اليد الأخرى بعيدة فتعودين إلى
الأول لتتأكدى من عدم اختفائه. يسألنى عنك الأول دائماً، وعندما نرحلين
إلى برلين يفقد الاتجاهات فى مدينتك ويقف عند حدود أماكن كثيرة فى
انتظارك. وفى انتظارك يحترق كثيراً: هل هو الأول أم العاشر. تمضى عدة
أيام وأصابع يتذكر فيها تعاليمك فيعرف أنه الإصبع الذى يبدأ من عنده العد.
يوقظنى فى الليل ويسألنى: لماذا لم تتأكد أمك من وجودى منذ

بضعة أيام؟" اطمئنه وأدرك أنه مازال يحاول أن يحدد الاتجاهات فى مدينتك.

...مدينتك التى يصبح صخبها مزعجا فقط عند ذهابك، تصرخ وتنتفض شوارعها عند مرورى بها.. تطاردنى كى التفت إليها.. تسألنى عن ظلك الذى لم يعبرها بخفة منذ مدة... عن رائحتك التى لم تستشقه منذ فترة.. عن صدى ضحكك فى ممرات شوارعها.. عن رغبتك الخفية فى الرقص تحت هلالها.. عن كلامك الذى تقولينه لها وعنها. مدينتك هى الأخرى تردد معى فى الليل ترنيمه الحنين، وتغير من الإصبع الأول لأنه يشعر دائما بوجودك رغم أنه يفقد طوال الوقت الاتجاهات فى غيابك... مدينتك رغم نكائها وحكمتها لا تستطيع الانتظار. مدينتك تشتاق إليك وعند حضورك تقدم لك كشف حسابها، الحسنات والسيئات.. تضع نفسها بين يديك لتحكمى عليها: موتى، جرحى، عبيداً أسرهم بحبها، طغاة، وبشراً يحاولون الاحتفاظ بالحلم وسط لهائها.. تسحبك فى دوامتها وتتوهين فتقنعينها بأنك ستحاولين أن تبحثى لها عن حكم يليق بها.. هل مازلت تبحثين؟

... تفكرين أنت دائما فى الحدود.. ولما سألت مدينتك عن معناها قالت لى إنها تعرف حدودها الجغرافية جيدا ولكن ألعيبها - كما قلت لى - ليس لها حدود. تغير حدود ألعيبها مثلما تريد. تمنع ثم تسمح.. تدفع بشرا إلى

الجنون وبشرا إلى الانتحار وبشرا يحتمون بظلمها ورقعتها وقسوتها. ولكن عندما رددت معى ترنيمة الحنين همست لها سرا بأن الحنين عابر للحدود.. لا يعرف المسافات.. لا يركب المواصلات التى تزعجها وتقتحم عزلتها.. الحنين له أجنحة شفافه لا تشبهه أجنحة الفراشات تجعله يصل إلى أى مكان بسرعة لا نفهمها. يراقبنا من بعيد، ينتظر بهدوء قادر هو على افتعاله.. يقترب منى مع اقتراب موعد مغادرتك.. يلقي على التحية من بعيد فى اليوم قبل الأخير لسفرك ويسيطر على بهدوء جميل قادر هو على إتقانه. هل يراقبنا الشجن من بعيد أيضا؟ يلقي الشجن التحية على حنينى.. يتنسم له ويؤكد بثقة أنه سيأتى فيما بعد. الحنين عكس مدينتك فهو يحب الانتظار، يتغذى عليه ولا يخفى. يقبع بداخلى وأقنع أنا نفسى بأنه يرحل عندما تأتين ولكنى أكتشف دائما أن الحنين لا يغادر أبدا مثل الشجن يترك بذرتة فى الروح ويعود ليرويهها كل فترة. أيتغذى الشجن أيضا على الانتظار يا أمى؟ أنقل البرودة كثافة الشجن بداخلك وانت هناك؟ أم تزيدها؟

... فى مدينتك أضع نفسى وسط الزحام. ألتمح بالأجساد المحيطة بى فى الجامعة عند دخول قاعه المحاضرات.. وفى اللحظة ذاتها التى أبدأ فيها التذمر من الزحام يأخذنى عقلى فى رحلة لمكان غير معلوم لأقل من ثانية، وأعود ليصبح الالتحام مشهدا من فيلم طويل، لست جزءا منه.. ولم أقل لك أبدا يا أمى باننى لا أستطيع أن أتعامل مع مدينتك إلا على أنها فيلم غير مفهوم، لم نشاهد بدايته.. ونهايته لا نستطيع التحكم بها. مدينتك فيلم.

... مدينة مهبولة. نلث وراءها كالمجاذيب. وعندما تمتلئ ارواحنا
بغبارها نهول إلى أوليائها: "أغيثونا منها.. حددوا لنا مفاتيح أبوابها.
تعرفين أنت أن مدينتك لا تحتاج إلى أبواب لتحبسنا بداخلها.. سحرها وحده
قادر على فعل ذلك. وأبواب المدينة بداخلنا. لنتمردى عليها لابد أن تتمردى
على نفسك فى البداية... فهل نجحت؟"

أم كبرت حين أصبح لديك عمل تتوجهين إليه صباحاً وتعودين منه
منهكة ومرهقة، ثم تقولين: "عندى مشكلة كبيرة فى الشغل"، وتنتظرين لنا
جميعاً بتعجب وتقولين: "وطوا صوتكم شوية، أنا افكرت إنها خناقة"،
وبعدها ترفعين قدميك على وسادة فى محاولة للتخلص من الورم الظاهر
فيهما، أم كبرت حين أصبح لديك قصة خاصة بك تعيشين أفراسها والامها،
بكاءها وفرحها، هداياها ومكالماتها ورسائلها؟ قصة أسالك عنها فتقولين:
"بس بقى باتكسف بجد"، قصة منعك الخجل أن تظهرى سعادتك الفائقة بها،
ربما أخذت فى اعتبارك هزائنا وعجزنا، ربما لا تعرفين أن الشعور
بالسعادة ترف. كبرت حين تحولت إلى مشاركة وهجرت خانة المتفرجة.
تسبعت من قصصنا وآلامنا فقررت أن نصنعى قصتك بمفردك.

بحبك بحبك يا بنت الذين

نساfer كالناس ولا نعود إلى أى شىء، نساfer لنبحث، وغالباً لا نعرف عما نبحث. ثم ندرك أننا نساfer إلى آخر الدنيا لنبحث عن المكان الذى غادرناه. نغادر الأماكن ولا تغادرنا هى. نساfer لنتعرف على الوحدة فى أقصى أشكالها، وحدة بدون إضافات. نساfer لنكلم أنفسنا حتى نتأكد من صوتنا، نخاف أن ننسى صوتنا، ولا نجرو على طلب مساندة كى لا تبدو أغبياء، ونؤكد أننا بخير رغم غياب السؤال، نضحك ونلقى بضع نكات، نأكل ونضحك ثم نعود لأربعة جدران نعرف كل أسرارنا، جدران مازالت تحمل علامات رأسى التى خبطتها فيها مئات المرات. نعود لبيوت الترانزيت ونفكر فى كيفية ترتيب بيوتنا هناك. ننتظر وننتظر ونكبر أثناء الانتظار، سنكبر كثيراً لأننا ننتظر إلى الأبد ولا نجرو أن نطلق كل ما بداخلنا، نتكلم كثيراً ولا نقول شيئاً، فقط ننتظر ربما يقول لنا الآخر شيئاً يثير دهشتنا. ننتظر ولا يحدث شىء سوى حالة من الحياء المطلق المخيف التى ما إن أصابتى حتى بدأت أقرص ذراعى لأخرج من هذه القشرة الحياضية القاتلة. تحسست ركبتى واسترجعت كل الأوجاع بقسوة وعندما سقطت منى دمة فى شوارع برلينية باردة تجسد الوحدة والخوف والغربة ابتسمت، فقد كسرت حالة الحياء، وانتهكت الحظر على الحواس. لا تعرف "سارة" الآن أنها نجحت، أشعر بالسعادة لأننى أدركت أن الشعور بالسعادة ترف.

لوقت طويل اكتفيت بحكى "سارة". لن أحكى إلا فى قلب القاهرة،
سأحكى حكياً متصلاً صافياً بدون إضافات، حكياً يشبه حكى "سارة"
و"كرازين"، حكياً متخلصاً من كل الزوائد رغم كل مخاطر الحكى. فى قلب
القاهرة بعسكرها وحراميتها وتلوثها وضجيجها وجنونها وصخبها وفقرها
وفولها وطعميتها وخواجاتها وأصحابها وكذبها وهذونها وانتظارها وإيقاعها
وشكلها ورسمها..

نسافر نسافر لنختر تلالاً من العجن..

الحكى هناك فقط، الحكى فى القلب ودائماً على الحدود. والعبور يبدأ من
هناك. والأربعون تكتمل فى القاهرة لتهدأ الروح فى مكانها ولتحصل على
ثلاث ورقات منك تكتبينها بخط طفولى لأستيقظ فأجدها على المكتب:

صباح الخير يا سلحفاة..

شكراً على إنك سببتنى بره لحد الساعة ١٢. أنا رجعت ١٢،١٥
بالضبط. على فكرة أنا أخذت المرتب قبل لما أنزل من المكتب على طول.
الاحتفال بتاع أول مرتب هيكون إنك تمضى على الظرف وإن أنا وإنست
نتغدى مع بعض. ولو ده مش هينفع ممكن نعمل الغداء عشاء. على حسب
ظروفك.

أول مرتبة ده السبب الحقيقى فيه هو إنت. علشان إنت شجعتينى إنى
أشغل وأجرى ورا حلمى وعلشان بتستحملينى لما باكون راجعة من الشغل
تعبانة. وعلشان حاجات كتيرة تملأ أكثر من كراسة.

عارفة يا ماما... بجد والله من غير تنظير أو دراما ٩٩% من الحاجات
اللى باعملها دلوقت السبب فيها هى إنت. الـ ١% ده سببه علشان الحاجات
الغلط اللى إنت هتقولى إن مالكيش دعوة بيها. خفة روحك وأفكارك اللى
مالهاش حدود وحاجات تانية كتير علمونى أكثر معا إنت ممكن تتصورى.
إنت أحلى وأروش سلحفاة.

روضة

.....

خيانة القاهرة

نسافر كالناس ولا نعود إلى أي شيء ،
نسافر لنبحث . وغالباً لا نعرف عما
نبحث . ثم ندرك أننا نسافر إلى آخر
الدنيا لنبحث عن المكان الذي غادرناه .
نغادر الأماكن ولا تغادرنا هي . نسافر
لنتعرف على الوحدة في أنفسنا
أشكالها ، وحدة بدون إضافات . نسافر
لنكلم أنفسنا حتى نتأكد من صوتنا .
نخاف أن ننسى صوتنا ، ولا نجروء على
طلب مساندة كي لا تبدو أغبياء ، ونؤكد
أننا بخير رغم غياب السؤال ، نضحك
ونلقى بضع نكات ، نأكل ونضحك ثم
نعود لأربعة جدران نعرف كل أسرارنا .
جدران مازالت تحمل علامات رأسى التي
خبطتها فيها مئات المرات . نعود لبيوت
الترانزيت ونفكر في كيفية ترتيب بيوتنا
هناك . لأننا ننتظر وننتظر ونكبر أثناء
الانتظار ، سنكبر كثيراً لأننا ننتظر إلى
الأبد ولا نجروء أن نطلق كل ما بداخلنا ،
نتكلم كثيراً ولا نقول شيئاً ، فقط
ننتظر ربما يقول لنا الآخر شيئاً يشير
دهشنا .

MADBOULY BOOKSHOP

مكتبة مذبولي

6 Talat Harb SQ. Tel.: 25756421

٦ طلعت حرب س.ق. : ٢٥٧٥٦٤٢١

www.madboulybooks.com - info@madboulybooks.com